
نفس مقيدة
تشتاق الى الحرية
ولو على جناح عصفور
ABASEMENT
أبيسمنت
بقلم
هالة حمدي

رواية

أبيسمنت

Abasement

هالة حمدي

بقلم:

هالة حمدي

تصميم غلاف:

Delicate buTter fly

تصميم داخلي:

Heba Elghoraiby

تعبئة وتنسيق ورابط تحميل:

حنين أحمد

كلمة .. Abasement تعني الحِطة والمهانة والإذلال

" البداية "

تتسابق أنفاسه مع الفرس عدوا، يدور حول غريمه بثبات تدرب عليه طويلا، يمسح جسده بعينيه الغاضبة متشفيا، لقد تمنى وحلم بهذه اللحظات مرار، الآن فقط حان الوقت.

ضوء المصباح الاصفر الذي يعلوهم يلمع فوق ظهره يمتزج بعَرقه، شعره البني مغسول بقطرات انبثقت من بصيلاته حقدا، عضلات فكه تختلج بقوة كمن يسحق صخرا تحتها، بنطاله الملتف حول خصره يندى بالماء المتجمع على جسده، سكون المكان تُبدده خفقات قلبه المنتصرة، المترقبة، إلتقت

العيون الرمادية المتماثلة بقوة، تقص كلمات وحكايا طمرتها السنين ، بينما الشفاة منطبقة على جروح غائرة.

انقض على غريمه الملتاع ، الخائف.. ليُسقطه أرضا.

جذب شعر الأخير بقوة يسحق معه ذكريات لطالما مزقته، يمسك وجهه بقبضتيه الساحقة التي عمل على تقويتها وغذّاها بغل يضمره قلبه، يُخفيه بين دمائه المتلونة، يحاول غريمه المقاومة ليقف مجددا قائلا بخوف يأبى أن يُظهره

" هل جننت! تحتجزني في قبو وتحاول الإعتداء علي، أنت لا تعلم ما الذي أوقعت نفسك فيه "

كانت كلماته بتلك العنجهية الكريهة ما أوقدت نارا أخيرة نشبت ولن يستطع أعتى من في الأرض إيقافها.

وبحسبة صغيرة بين البنيان والبنيان ..

بين العمر والعمر ..

كانت النتيجة فوز الأول على الأخير ..

كبله .. أحكم الوثاق ، إقترب منه ببطء الى أن وقف أمام

وجهه فأختلطت الأنفاس .. نزع حزامه وتناول السوط ..

"نبدأ بأيٍ منهما ! هذا أم ذاك؟ "

إرتعبت ملامح محدثه ليردف مشيرا بحزامه

"هذا مؤلم .. قد نبدأ به .. أما هذا فيلهب الجلد ويمزقه ..

يعذب الروح فتئن طلبا للرحمة .. يلسع .. يحرق .. يكسر

اسنانك .. يشد عضلاتك .. يسقط عرقك ويلهب جلدك

لأنتشي أنا "

إرتفعت أنفاس كلا منهما ، أحدهما خوفا ، والآخر غضبا ..

رفع السوط لينهال به على ظهره في ضربة أولى

" هكذا ألهبت جسدي يوما "

وتوالت الضربات مع صخب الذكريات ، وتوالت أنات

الآخر من لهيب السوط فوق ظهره، يصرخ ويعلم بأنه لا

نجاة.

ومع ذكرى أخيرة، وضربة أخيرة، إمتزجت قوة السوط بدماء

غريمه، صدحت آخر صرخات الرجل ممتزجة مع صرخة

غاضبة قوية منه أخرجت جل ألمه.

صرخة أفضت أوجاعه ، وسكّنت غروره ، و أسقت حلمه

بالانتقام حتى إرتوى ..

بينما الآخر مع تلك الضربات الموجعة ، التي أفقدته وعيه ،

لم يستمع الى كلمات معذبه الذي قال من بين أنفاسه

" لا زلنا في البداية .. تَجَلَد يا.. أبي "

***

الفصل الاول

ليس فقرك عيب بك، إنما العيب فيمن يطمع فيك بسببه،

من يقنع بدهسك..وإمتصاصك، وإمتهانك لأجله.

***

حانت منها إلتفاتة حيث مصدر الصوت، ركضت بقوة

ساعدها عليها جسدها النحيل وسيقانها الرفيعة، إلى أن

وصلت للغرفة المنبعث منها الصرخات.

فتحت بابها مسرعة لتُفاجأ ب كمال يقف أمام تلك العجوز

الصارخة بوجه محمر حنقا ، تكمل صراخها بكلمات مدببة

كالسهام

" كيف تقتحم علي غرفتي يا هذا بدون استئذان، أين

زوجي، إذهب و أخبره بأني أريده "

ضغط كمال على أسنانه بغيظ، يلعن الزهايمر كمرض بأسبابه

ونتائجه، ذلك المرض اللعين الذي يجعله كالعجين الممطوط

بين يديها صباحا ومساء، لكن .. لا بأس، هو يعرف جيدا

كيف سينال حقه من تلك الشمطاء.

" حسنا، سيد كمال .. عليك الإنصراف الآن أنا سأهتم

بالسيدة منيرة، و آسفة على تأخري "

إلتفت إليها كمال مجيبا بحنق، وعينيه الحادة تصيبها قبل

كلماته

" لقد إعتدنا تأخرك يا خلود، عليكِ الإعتذار لو أتيتِ

باكرا"

وجه إليها كلماته الساخرة ثم تركها وذهب.

تنفست الصعداء لتقترب من الجسد الهزيل أمامها تمسد

ظهرها بكفها الناعم وتقول

" سيدتي الجميلة، هل أعد الكيك الفرنسي أم شطيرة الفول

الشهي "

وبطابعها الأرستقراطي الرفيع أجابت

" شطيرة الفول "

إبتسمت خلود باستمتاع وهي تجذب كرسي متهالك لتجلس

أمام سرير سيدتها

"حار أم بالطحين؟ "

إلتمعت عين منيرة بشغف والذكريات تستشري بعقلها

" حار يا خلود، لطالما عشقت الطعام الحار، ااه، كنا نتشاجر وزوجي كثيرا بهذا الشأن .. كان شابا قويا .. جسد مفتول، وعقل ناضج، لكنه لم يستسغ الطعام الحار يوما"

ضحكت منيرة بصفاء، تلتقط أنفاسها بتلذذ

" كان محط سخريتي الدائمة، حتى بات يعشقها، وكان يعشقني، كان يخبرني بأنني أهم من ماله و عائلته و أهم من .. من .. "

زال إستمتاعها وتلذذها، وترقرق الدمع بعينيها.

تعلم خلود باقي الكلمات .. فقد هجرها زوجها مؤخرا .. بعد أن أسقاها العشق عشقا، والمرار كؤوسا .. بعد أن كانت كل عائلته .. ذهب ليبحث عن الولد.

لم تكد دموع منيرة تسقط لترفع يديها كي تمسحها بضعف

و إستكانة .. وقعت عيناها على خلود فقالت برفق

" من أنتِ؟ "

حسنا، لقد بدأنا للتو من جديد..

" أنا خلود، عاملة هنا، في دار المسنين، أهتم بدواءكِ،

ونظافتكِ الشخصية، جليستكِ، أستمع إليكِ، و أحبكِ،

ولن أسيء إليكِ أبدا "

***

لفحتها أشعة الشمس فور خروجها من غرفة السيدة منيرة،

مشت خطوتين لتدلف إلى غرفة النزيل الآخر، ومنها الى

المسن الذي يليه، إلى أن إنتهى يومها بسلام في غرفة السيد

كمال، مدير الدار.

غرفة منظمة، تختلف عن باقي الغرف في المكان، متكلفة

بعض الشيء، و أهم ما يميزها هذا الكرسي المريح الذي

يجلس عليه، كرسي تتخيل جسدها النحيل يغوص فيه براحة

لطالما تمنت تجربتها، تستند برأسها حيث المسند الذي يعلوه،

تضيق عينيها تتخيل متنعمة بمجرد أوهام تصاحب صحوها..

ما يذهب عقلها من اللامنطقية، تلك الأرفف التي تعلوها

كتب علم النفس والإجتماع، هي على يقين بأن كمال لم

يقرأ صفحة واحدة من أصغر كتيب في تلك المكتبة.

" هلا أخبرتني عن سبب مجيئكِ بدلا من التمعن في مكتبتي"

خفضت بصرها بحياء وتلجلج

" أ .. أ ..جئتُ كي أذكرك سيدي بأمر .. ال .. ال "

" السلفة! "

تنحنحت بحرج، وبصوت مكتوم أجابت

" نعم "

عيناه الحادة باتت باحثة، جريئة، تمر على جسدها ببطء مقيت.

" إنها السلفة الثانية التي تطلبينها يا خلود ولم يكتمل على الأولى سوى أسبوعِ واحد"

دب الحماس في أوصالها تحث لسانها على ترتيب الكلمات

" أعلم سيدي، ولكن تراكم علي ايجار عام كامل، ولن تصبر علي مالكة الشقة، أرجوك سيد كمال، ستلقي بي في الشارعِ أنا وجدي"

أسكتها بإشارة من يده

" تعلمين بأني تجاوزت عن خطأ مهني في ملفكِ كان يمنعك من العمل و ألحق بكِ الخزي لفترة ورأفةً مني بحالكِ

ولإلحاحكِ الشديد منحتكِ تلك الوظيفة التي لم تحلمي بها

يوما، وقمت بإعطائكِ سلفة منذ اسبوع، فلا تطمعين في

كرمي يا خلود، إن رغبتِ في المزيد، فعليكِ دفع المزيد "

هكذا اذا، أخيرا ترجم تلميحاته ونظراته السافرة إليها

بكلمات لا تحمل معنيين.

لقد حشرها في الزاوية، ولن تنفك منه إلا بالإنسحاب أو

الانصياع.

قالت بإيجاز

" أنا آسفة سيدي، يبدو أني طمعت في كرمك، أعتذر عما

بدر مني، و أعدك بعدم طلبي لسلفة قبل سداد مثيلتها"

إستأذنت بلطف لتخرج وهي تحمد ربها بأنه لم يستوقفها أو

يعترض على كلماتها.

***

" شهر آخر يا أم محمود وسأعطيكِ المال، لن يضركِ شهر

فقد صبرتِ عاما كاملا"

صرخت المرأة في وجهها بقوة

" عام كامل أي منذ إستأجرتِ هذه المخروبة أنتِ وذلك

العجوز، ليذهب كي يجد عملا ويساعدكِ أيتها البلهاء، ليس

من شأني ضيق زرقككم أو حتى موتكم، أنا أريد المااال،

وليس هناك حديث آخر، هو أسبوع لا أكثر وستجدين

أشيائكِ في الشارع، لقد سئمت أمثالكم "

وتركتها ليعم الهدوء خلفها إلا من صرير بابها حيث وقف

جدها الذي كان يتلصص على حديثهم بخزي.

إحتضنها ليجذبها للداخل، هو يجيد إحتوائها في تلك المواقف

البائسة الكثيرة، فذلك لم يكن أفضل حالا من كلمات

البقال الذي مل " الشكك" فقد تراكم عليها ثمن الجبن

واللبن، ولا كلمات الخباز أو صاحب محل الخضروات.

تبكي بشدة ويشتد عناقه.. تنتفض بقوة ويدعمها بتربيته

على كتفها، هو سندها وإن لم يكن بالمال.

هو أمانها وكونها الذي تدور حوله.

تعد لاجله الطعام..

تعود لاجله من العمل..

تتحمل كلمات هذا وذاك لتسد رمقه..

ربما لو لم يكن موجود لما تحملت كم هذه الهانات، لكانت

ستموت خجلا مما تتعرض له، لكنها تقاتل من أجله..

"حيزبونة"

رفعت عيناها اليه تتلمس الدفء من لحيته البيضاء التي

شاخت بها و معها.

إبتعدت قليلا لتفتح حقيبتها المرقعة وتخرج منها تفاحة،

فشهق جدها قائلا

" من أين لكِ بها يا خلود، لم أعلمكِ السرقة يا ابنتي"

قالت بود

" لقد أعطاني إياها نزيل في الدار يا جدي، لقد زاره اليوم

ولده حاملا اليه فواكه لم نسمع عنها من قبل، أعطاني اياها"

" خيرا فعل، قبل أن تختفي تلك الفاكهة في الصباح"

" لا تقلق، لقد أخفوها بعد مغادرة ولده بقليل"

إمتعض وجه جدها

" لا أعلم سببا لاسلوب تلك الدار في معاملة المسنين "

قالت لتكمل كلماته

" أنا لا أعلم سببا لترك الأبناء لأبائهم في مكان غريب مهما

كانت خدماته، كيف نتنصل بهذا الاجحاف من أرواحا

أحبونا ولطالما قدموا الدعم لنا"

" لأن ليس لكل الابناء قلبا كقلبكِ يا خلود "

إحتضنها بشدة هذه المرة، هي تتحمله، يعلم، ويعلم أيضا

مدى تعبها في الخارج لتحضر له دواءه وتطعمه، ليت لديه

من الصحة ما يحفظها به من العالم وقسوته.

"هيا صفي لي تلك الفاكهة التي لا نعلم عنها شيئا يا ابنة

ابني"

تحمست وهي تنفلت من بين ذراعيه

" فاكهة تشبه الكمثرى أشد خضارا وبها بذر أسود كثير

داخلها، ناعمة ، ومذاقها طيب"

شعر بطعمها في حلقه

" هل تذوقتها يا خلود؟"

أفاقت من خدرها لتقول على استحياء

" لقد أطعمني منها هذا النزيل بعد أن قشرتها له"

" من دوني!"

" آسفة جدي هو لم يعطني الا التفاح فأحضرته لك، وحمدا

لله أن السيد كمال لم يفتشني كما يفعل مع العاملة الأخرى"

تقوس فمه بحزن

" لا تغضب، والا أخذت منك هذا"

إمتدت يديها لتفاحته فدافع عنها بروحه، فضحكت بحنان

تقبل يده

" والله إن كانت ستحييني لما أخذتها منك ابدا، تعلم بأني

أبديك عن نفسي"

تراخت يداه ليقول بعنجهية

" غلبتني كالعادة "

قامت لتبدل ثوبها ليستطرد بحب

" لطالما فعلتِ "

***

تصدر حوله ضجة كحوافر الثيران في الماراثون، ولم يتبقَ لها

سوى الهجوم عليه لتنال منه

" لماذا ترفض ذهابي إليها يا طارق؟، هي تجلس وحدها

فوالدها طوال النهار في عمله"

يرتدي رابطة عنقه يهم بربطها

" لأنهم ليسوا من مستواكِ يا عاليا، أين ستجلسين عندها،

من سيقدم لكِ مشروبا كما تأمرين كل خمس دقائق، من

ستتنمرين عليه من الخدم عندها؟"

" لقد سئمت هذه الحياة يا طارق، وسئمت الخدم ونظراتهم

المشفقة نحوي، سئمتك ومللت من تدخلك في حياتي على

هذا النحو"

إلتفت اليها يحك ذقنه، يفكر جيدا في كلماته التالية، هي

تجتاز مرحلة خطرة في حياتها كونها على أعتاب المراهقة وعليه

إحتوائها.

جلس جوارها على سريره بعد أن إقتحمت غرفته صباحا

بهذه الزوبعة والصخب

" ابنة مدير مكتبي ليست أختا لكِ، ولن تكون صديقتكِ

حبيبتي، أبيها يعمل لدي، ضعي الأمور في نصابها يا عاليا "

قامت بثورتها تشيح بيدها يمينا ويسارا بغضب

" ومن إذا من مستواي كي أنل صداقته، إعترضت سابقا

على صديقتي في المدرسة الى أن أرغمتني على الابتعاد عنها"

" كانت ترافق الشباب وخفتُ عليكِ منها"

" و شاهي "

" تدخن وهذا سلوك لا يليق بفتاة"

" وهل يليق بك أنت الكأس التي لا تفارقك يا طارق، لم

تحلل لنفسك ما تحرمه على غيرك!"

تنفس بقوة، هكذا ينتهي بهم الحوار كل مرة، حائط سد منيع

تتركه يتخبط به.

وقف أمامها يمسح على شعرها بأنامله، يحاول جذبها الى

احضانه الا انها أبت بشدة

" لن ينتهي حوارنا ككل مرة بعناق تبرر لنفسك به تقاربنا،

نحن أبعد ما يكون عن بعضنا، ألا تعي ذلك، منذ عاد أبي

الينا بتلك الغيبوبة وأنت لست على ما يرام.. تنثر أوامرك

على الجميع، لم تعد تهتم بي كذي قبل، منهمك في تفكير

طويل وعمل لا ينقطع، لقد مللت، حقا مللت"

ثم غادرت، فتنفس، هل كان يحبس أنفاسه!

تلك الصغيرة ستتسبب في قتله يوماً!

صغيرة! من الصغيرة! تلك التي سددت كلماتها في شباك

عقله محرزة هدف ساحق!

هكذا ترى عناقه .. تبرير ..

يعانقها ليبرر تقاربهم، بل هي البعيدة، لا لا ، هي نصفه

الآخر، بها ولها يحيى، يحرس مالها، ينال ممن يغضبها، يحاول

تربيتها متلافيا عقده الداخلية يعطيها كل الحب..بينما هي

لاترى ولا تهتم لما يفعل ودوما متذمرة.

تناول سترته السوداء لتكتمل أناقته، وقبل أن يغادر ذهب

لغرفتها، وبكلمات مقتضبة طيّب ثورتها

" لا بأس في الذهاب الى سلمى اليوم، اليوم فقط "

***

أنهى ؟إتصالا هاما يخص العمل يلتفت الى مدير مكتبه الذي

يعدد عليه أعمال اليوم.

إستمع بصبر لحين إنتهى من كلامه.

" اجلب لابنتك خادمة لترعاها وتلبي احتياجاتها"

" أمرك سيدي "

" وراتبها يصرف من الشركة "

أحنى رأسه يذعن لاوامره فأردف

" كيف حالها؟ "

فهم ما يقصد سيده فاجاب

" بخير "

انتفض طارق ليقول بغضب

"لا أريدها كذلك"

" أفعل كل ما بوسعي لنيل رضاك سيدي، لا تقلق الامور

تسير على ما يرام"

إسترخى طارق على كرسيه يتمتم

"أريد خادمة بخلفية طبية لوالدي، تكون عمياء وبكماء فيما

يخص بيتي، وياحبذا لو لديها نقطة ضعف"

إلتمعت عيني الآخر ليجيب

" طلبك لدي، سأفعل"

" لن اذكرك بسرية ما تفعل، كن حذرا"

أومأبرأسه قبل مغادرته، يريد سيده خادمة لابنته كي تنال

أخته رعاية خمسة نجوم عندما تزور ابنته، لا بأس في قليل من

الدلال في بيته، لا بأس في وجود خادمة أبدا.

***

عادت عاليا الى المنزل بعد أن أوصل السائق شاهي لمنزلها

ومن ثم أعادها الى الفيلا.

بعد موافقة طارق لذهابها الى سلمى، هاتفت شاهي ليذهبا

سويا اليها.

لقد كان وقتا ممتعا بين الفتيات، لم يسئها سوى عرض شاهي

عليها التدخين فرفضت بشدة، هي لن تخذل اخيها ابدا، ولن

تخن ثقته.

بدلت ثيابها، وتوجهت نحو غرفته، لابد أنه عاد فالوقت الآن

متأخر.

دلفت الى غرفته، مغمض العينين، أنفاسه غير رتيبة، جلست

جواره.. تحدق اليه وكأنه يسمعها

" أريد هاتف أحدث من هذا"

تنهد يجيبها ولازالت عينيه مغلقة يتحاشى الضوء السافر في

غرفته

" لا يوجد ما هو أحدث منه"

" لقد وجدت ما هو أحدث يا طارق"

وعندما ذكرت أسم الهاتف المعني أجابها فقال

" إنه في بلد آخر"

" بلد عربي"

فتح عينيه يتأملها بهدوء، قال

" وإن كان في بلد أجنبي يا عاليا سأحضره لكِ "

يملس على شعرها بحنان

" لكن عليكِ أن تعي جيدا أن الانسان لا يقاس بما معه او

بما يملك، الانسان بأخلاقه وصدقه"

شعرت بتلميحه الى شيء ما، يمسك كفها يقول بحزم

" لقد قابلتِ اليوم شاهي، وقد منعتكِ عن صداقتها، المرء

يُعرف من اصدقائه"

حاولت التملص من بين يديه فاحكم قبضته يتلقى غضبها

" هذا السائق الواشي، تبا له"

" هو يؤدي عمله ويتحمل مسؤلياته، حفنة من المراهقات

وجب عليه التعامل معهن"

استكانت ليردف

" بينما أنتِ تتملصين من مسؤلياتكِ، لقد وثقت بكِ

يا عاليا"

قالت بخزي

" و أنا لم أخن ثقتك يا طارق، لقد عرضت علي شاهي اليوم

التدخين ولكني لم انصع لها"

تصلب جسده، تحشرجت أنفاسه، تبا لاساليب التربية

الحديثة في هذا الوضع، عد الى عشرة ليكتم غيظه ، بل

تعدى الخمسين ليقول

" بل خروجكِ معها خيانة لثقتي، هذه المرة تعرض عليكِ، في

المرة القادمة تصر، والمرة التي تليها تصبحين مدخنة ولم يتعد

عمرك اثني عشر عاما، تبا لها، ولعقلكِ المتحجر هذا "

يقسم انه حاول بأن يكون هادئا، لكن الامر خرج عن

سيطرته، كيف يحجب عنها كل ما هو ضار ويؤذيها، يعي

جيدا تربية والدته لها ، لكنها في النهاية صغيرة، قد تنجو مرة

اثنان لكنها حتما ستقع ان اشتد بها الشرك.

مثله هو..

قام من سريره ليكمل بثورة

" لا ذهاب مجددا الى سلمى طالما تصطحبين اليها شاهي، انا

بالكاد ائتمن احد عليكِ، لا خروج من المنزل يا عاليا ، أنتِ

معاقبة"

بكت بشدة، خرجت مسرعة من غرفته وهي تعلم جيدا أن

قراراته لا تناقش، وأنها حقا أغضبته، وتستحق ثورته..

لكنها الآن تحديدا تحتاج لامها .. أمها وفقط، لطالما كان

حضنه ملاذا لها بعد وفاة والدتها ، لكن الآن وقد أغضبته

.. لمن .. تلجأ!

***

اليوم ذهبت باكرا لتهتم بشؤون النزلاء وتهتم ببعض الاعمال

قبل استيقاظهم لتتفرغ كليا لمجالستهم ودوائهم ..

هذة الصرخة المعتادة من غرفة السيدة منيرة لم تعد تزعجها

بعد أن تكررت عدة مرات على مدار الايام المنصرمة عندما

تواتيها نوبة الزهايمر وتفاجئ بوجود أحدهم في غرفتها..

لكن ما اثار استغرابها، أنه لازال الوقت مبكرا على حضور

أحد غيرها..

دلفت الى غرفة السيدة وهالها ما رأت ..

عصاه طويلة، رفيعة تسقط فوق ظهرها وعلى صدرها بقوة

يد حاملها الذي لم يكن سوى.. كمال.

شهقتها جعلته يلتفت اليها بوجه غاضب

" ما الذي أتى بكِ الآن؟"

لم تتحمل ما شاهدت فصرخت بوجه

" ما الذي تفعله أنت؟، عليك اللعنة"

أقتربت منه تهاجمه ، تحاول نزِع تلك العصا عن يده ، لكنها

فشلت، وكيف تقارن قوته بضعفها ، حقده بطيبتها..

" كيف لك أن تفعل ذلك؟، لقد استأمنك ذويها عليها،

سأبلغِ الشرطة"

وقبل أن تلتفت كان قد انهال عليها بالعصا ضربا، ليقول

باستمتاع

" و أنا أيضا سأبلغ الشرطة عن سرقات وقعت هنا ولم أجد

الفاعل، وحين مقارنة تاريخك القذر بتاريخي النزيه، تعلمين

جيدا ما الذي سيحدث"

ضربت صدره بقوة وهي تصرخ

" أيها القذر، أيها ال ..."

لم يتركها تكمل وهو يحملها كالعلقة طاردا اياها خارج الدار

ويغلق الباب الكبير بوجهها

" ومن اليوم، ليس لكِ عمل عندي"

انقطع سيل ذكرياتها عند كلمات صاحبة العقار الذي تقطنه

" هيا من هنا"

كانت آخر كلمات أم محمود الصارخة متزامنة مع القاء آخر

سرة تملكها خلود في الشارع.

اليوم آخر يوم في مدة دفع الايجار، هكذا اكتمل النصاب، طرد من العمل، والمنزل، بلا شئ، فقد وضعت ام محمود يديها على اثاث خلود المتهالك لتضمن حقها في اجرة عام كامل منصرم.

ورأفت بحالها لتترك لها ثيابها وجدها، فيكفي عراء الشارع، حقا لقد كانت رحيمة بهم.

استكانت وجدها على أحد الارصفة، جدها لا يملك من الكلمات ما يدعمها به، ولا من الدنيا سوى علاجه الذي ضمنته له خلود قبل انتهاء الشهر.

أظلم الليل مع ظلام حياتها، بلا طعام او مأوى بصحبة عجوز متهالك، لا تملك سوى هاتف محمول إن فكرت في

بيعه لن يثمر الا بعشرون جنيها..

" جدي، أنا جائعة"

لأول مرة ترى دموعه، العوز، والعجز، والمرض تكتلا عليه

جميعهم فأنهكوه تاركين للصمت هيبة على وجهه.

نظرت للهاتف تهم بالقيام

" لا بأس من بيعه، لا أملك فيه رصيد، ولا اظن بأني سأملك

يوما، لست بحاجة اليه"

حملت سرة ملابسهم، تساعد جدها على القيام، تتوجه لمحل

هواتف محمولة، أخبرها صاحبه بأن

" هذا الهاتف لا يتم بيعه ، بل حرقه، لا وجود له منذ زمن "

" أرجوك، ابتعه مني بأي شئ، أرجوك لم نأكل أنا وجدي منذ

يومان"

أخرج من درجه ورقة مالية فئة العشر جنيها يعطيها لها

فقالت

" أنا لا أشحت، أريد بيعه"

حسم الرجل أمره قائلا

" هذا ثمنه"

المهانة والامتهان ما شعرت به لها ولكرامتها، كانت تنتظر

هذا اليوم منذ زمن الا ان الله قد اكرمها بتأخيره.. نظرت

للهاتف والى المال، همت بأخذ العشر جنيهات ..

ولكن .. رن هاتفها..

هاتفها الذي لم تتلقَ عليه مكالمة منذ زمن يرن الآن .. تُرى..

من!

لم تهتم، أخذت المال وهمت بالمغادرة

" إنتظري، خذي هذا لا أحتاجه"

وهم باخراج شريحتها ، واذا بالهاتف يرن من جديد..

فقال الرجل متأففا ..

" لا ينقصني هذا، أجيبي ثم غادري"

أجابت مذعنة لامره.. أتاها صوت خشن..

" أنا طارق الرشيد .. أحتاج لعاملة وممرضة لأبي.. هو في

غيبوبة ويحتاج إلى ممرضة دائمة .. العنوان ....."

****

الفصل الثاني

***

اريدكِ فضاءً واسعاً ، ماء عذبا، بئرا يحوي أسراري، أريدكِ

كياناً بتفاصيله يغمرني وينسيني أوجاعي.

***

قاطعته بسرعة

" لحظة سيدي، أي عنوان ..! "

صمت غشيهم، ظنته أغلق الهاتف فأردفت

" ليس معي مال للحضور.."

قاطعها بحسم

" أين مكانكِ؟ "

وهل سيعلم مكانها .. هي في منفى عن العالم .. حيث

العشوائيات اللامنتهية.

أخبرته بأسهل نقطة قد يتعرف عليها .. وجدت فيه غوثها

و نجدتها..كان كطوق تعلقت به خشية العراء... لا تعلم

لماذا قالت له هذا، الا انها لن تتحرك خطوة بدونه

" طالما المريض يحتاج اقامة دائمة، سآتي بصحبة جدي!"

سُبة، ما إستمعت اليه كانت سبة لم تخطئها أذناها.. وبعد

صمت آخر مهيب أجاب

" سيأتي السائق اليكِ في غضون دقائق "

ثم أغلق الخط.. أبعدت الهاتف تنظر في أثره وكأنه سيعود

اليها بشحمه ولحمه ليحدثها مجددا...غير مصدقة بأن المدد

والعون أتى بهذه السرعة...تنظر الى جدها..تراه هو السبب

في رزقها..تدمع عينيها تلتهم الأسئلة عن وجهه دون أن تقدم

له إجابات.

سلطان صوته وهيبته ، سطوة كلماته، من أين علم بها

وحصل على هاتفها.

من هذا المجنون الذي يوافق على ممرضة تجر كهل في قدميها

حيث العمل.

من اين واتتها الجرأة لتلك الفعلة، قبضت على العشر

جنيهات ، ثم وجهتها نحو صاحب المحل ، أخذت هاتفها

واستدارت تحث الخطى بصحبة جدها لتنتظر السائق..دون

أن تنبس بكلمة معه، فقد أصبح هاتفها وللغرابة منذ

سنوات، أهم من السكن والطعام، بل بات أملها ونجدتها.

تركن الى عمود الإنارة..وقد وصلت الى مكان تختلف معالمة

عن عالمها..يفصلهما سور...عدة امتار مشتها على أقدامها

لتكون في مكان عامر...صاخب بمباهج الحياة.

تطمئن عليه بين الفنية والأخرى..يظهر صلابته وهي خير من

يعلم بتعبه...تربت على كتفه تمنحه المواساة..ويمنحها

إبتسامة تؤازرها وتزيدها تماسك وقوة...

لحظات مرت حتى رأت سيارة فخمة تتوقف أمامهم، دلفا

اليها، تتمعن بها وتتحسس كراسيها الأنيقة التي تبعث في

النفس شعورا بالعظمة والكبرياء، كيف يحافظ مرتادها على

قلبه كي لا يتفشى الكبر فيه.

كراسي هذه السيارة فقط قد ترمم منزل آيل للسقوط في حارتها..

قد تفتح بيوت قاطنيها لعام كامل ببطون منتفخة من كثرة الطعام .

أصحاب هذه الثروات حقا لا يشعرون بمن هم أقل منهم، ليتها تؤمن فقط دواء جدها، وطعامه، ربما ملابس للنوم، أو غرفة تشعر بها بالامان .

حسنا لقد طمعت كعادتها وشطحت بأفكارها، لابد أن يجيب صاحب هذه الثروات على تساؤلاتها، قد يكون طامع بها ويرغب بها مقابل المال كما لمح لها كمال من قبل.

مسحت على رأسها تبعد هذه الافكار الشريرة عن رأسها، تؤجل تلك الاسئلة لوقتها.

توقفت الافكار مع توقف السيارة، ترجلت بصحبة جدها

منها، إتبعت اشارة السائق نحو الفيلا ليدلفا سويا، الكف

بالكف، والعيون ترعى في الفيلا باتساعها وجمالها الأخاذ،

ديكورات ثمينة، لوحات بإطارات ذهبية، جدران أثرية عريقة.

بفم مدله تكلمت ..

" جدي..هل أحلُم؟ "

" بل أنا من يحلُم، إقرصيني، أوخزيني في صدري علي

استفيق"

شعرت بضيق تنفسها، الهواء قل، تعرقت من الحرارة الزائدة

ربما من انفعالها..

" مرحبا "

التفتا سويا وكأنهم في مسرحية هزلية يؤدون أدوارا منمقة هي

وجدها، شاهدت رجل ثلاثيني، بأنف كبير، هذا ما يميزه، لهذا السبب شعرت بقلة الهواء، فهذا الأنف إستحوذ عليه كله.

لم ينل جوابا فكرر قوله

" مرحبا، أنا طارق محدثكِ، أهلا بكم"

أين تلك الاسئلة اللعينة التي جهزتها، أين افكارها التي ادانته بانه ربما طامع بها، أين تلك الثرثرة العديمة الفائدة أمام هذا الرجل المهيب.

فأرة.. نحيلة، ما يميزها عينان ضيقة كالزيتونة، تضع تقويم للاسنان بدا من فتحة فمها البلهاء..

لم يستمع لصوتها حتى الآن فأردف بعملية

" المريض أبي ، هو في حالة غياب عن الوعي لا نعلم متى

سيستفيق، يشرف على علاجه طبيب العائلة، و أنا بحاجة لممرضة ترافقه وترعاه، لا بأس في وجود جدكِ المكان يتسع لما تريدين"

مشى الى النافذة يشير منها نحو ملحق للفيلا

" هذا سيكون مكانكِ ، تستطيعين أخذ راحتكِ، أنا لا أتواجد كثيرا، ما بين عملي وسفري، كل ما يهمني هو أبي والعناية به"

حك مؤخرة عنقه وهو ينظر اليهم، تلك السرة التي لا تفارق يديها.. ملابس مهترأة..وأعين مشدوهة مما تراه غريبا عنها، يبدو أن جدها أبله أيضا، فهو منهمك بصمته هو الاخر يطالع الثريا البرّاقة التي تتدلى فوق رأس طارق فتزيد من مهابته وثراءه.

نادى على خادمة، أمرها بايصالهم الى الملحق، على أن تبدأ

عملها من الصباح، لينهي حالة إتساع الافواه تلك.

وبعد انصرافهم ظل يضرف كفا بالاخر متعجبا من تلك التي

رشحها له مدير مكتبه، يصبر نفسه

" لا بأس في المحاولة"

***

يرتب حقيبته، عطور، أحذية، جوارب، صورة أمه، و ..

صورة عاليا، يهجرها منذ خانت ثقته، لا يتحدث اليها ولا

يخبرها بشئ مما استجد في الفيلا، وهي ايضا تحبس نفسها في

غرفتها، ولا تغادرها .

هي طفلة في النهاية وستتغير بالعقاب، سيغيب أسبوع آخر

في سفره كي يبتعد عنها، لا ينكر شوقه اليها وغزوها لغرفته،

شقاوتها التي تلين قلبه القاسي، لكن لا بأس في القليل من

الحزم معها.

لقد مرت ثلاثة أيام على قدوم خلود..لا يلحظ وجودها فهي

ليست ثرثارة او تتعمد لفت إنتباهه، إلا أنه يتابعها عن

كثب لمعرفة سير عملها...

الخادمة تحمل حقيبته الى السيارة فأخبرها

" قولي للممرضة تلاقيني في غرفة المكتب"

وقد كان، بعد لحظات من تبديل ثيابه وتحزيم حقائبه، لاقاها

في المكتب، بعد أن تعرفت على البهو الكبير وغرفة

والده..الذي هالها قدر التشابه بينهما..لقد أشفقت عليه

وهو يملك ما يملك لكنه بلا حول ولا قوة، لا يستطيع

التصرف في أي شيء..بل لا يستطيع هش ذبابة عن

أنفه..هي من تحركه وهو بين يديها كالمحتضر، تتعرف الآن الى غرفة مكتبه..التي لا تقل فخامة عن باقي الفيلا، أخرج من جيبة رزمة من المال يعطيها اياها لتخرج من شرودها المقيت، فكان جوابها هزة بالنفي من راسها فقال

" هذا راتبكِ مقدما، علمت بأنكِ بدون أموال وكذلكِ طردتِ من عملكِ، أنتِ حتما بحاجة اليه"

ما الذي يعلمه أيضا، هكذا فكرت، عطره النفاذ يختلط بأفكارها فيشوهها ويدنسها ببريق المال، هذا العالم الذي يجذبها بسهولة وسرعة نحوه تخشى أن يبتلعها.

" إن أردتِ المغادرة لاي مكان، هناك سائق بسيارة في الخارج لخدمتكِ، سأغيب عن الفيلا لاسبوع، إن احتجتي لشئ اطلبي من مديرة المنزل"

الدنيا تفتح لها ذراعيها أخيرا، من يصدق، هي بنفسها لم تكن

تصدق أو تحلم بما يحدث معها.. تنام على سرير بمفردها في

ذلك الملحق وجدها ينام على كنبة فخمة خارج غرفتها

لاول مرة منذ ولدت تشعر بالخصوصية..تخففت من ملابسها

ونامت براحة... تطمئن على نوم جدها وشبعه .. الطعام يأتي

اليها معد..عملها عدة ساعات متفرقة..وباقي اليوم في حالة

من الاسترخاء.

قالت في محاولة لتدير نقاش مع ربها منذ أن استلمت

عملها..

" السيد بحاجة الى نظافة شخصية .. وأ .. أنا .."

قاطعها بحسم اعتاده معها يلملم أوراق تخص العمل..يستدير

ليضعها في حقيبة يد صغيرة...

" هذا عملكِ"

" هذا لا يصح"

نبرته أصبحت أكثر حسما..في حين توقف عما يفعل

ليسترعى انتباهها

" هذا عملكِ يا خلود، هذا ما أنت هنا لأجله، وأي تقصير

لكِ هنا لن يمنعني من طردكِ"

في دقائق أعطاها الامان ، وفي ثوانٍ سحبه منها بل وشوه

لوحتها الغناء التي رسمتها في عالمها الجديد، ماكان منها الا

السمع والطاعة..في كلمات عملية موجزة

" تحت أمرك سيدي"

ترك لها المال على الطاولة ..حمل حقيبته..ودون أن ينظر

اليها او يودعها غادر، سحب عطره وهيمنته وسلطته وغادر،

فتنفست بعمق كمن حرم من الحياة والحلم للحظات.

إستيقظت على واقعها، هي ممرضة وليست صاحبة المكان،

هي عاملة وليست ربة الفيلا، هي كادحة بينما هؤلاء

مرفهون.

أمسكت المال، تنزع عن أفكارها وعيونها بريق هذا العالم،

زائف هو، ويحمل معه الكثير من العيوب التي لم تعتدها

كالجفاف والقسوة، هو لم يتخطَ غرفة والده ليزوره ولو لمرة

منذ وصلت، هل ينتظر موته ليرث...

تلك الأموال والشركات التي سمعت عنها من مديرة المنزل

ستكون له وحده...

تنهيدة شقت صدرها، لماذا لا تريح عقلها ولا تفكر...ربما

هو الفراغ الذي تحيا فيه ما يفعل بها ذلك، لابد أن تشغل

وقتها وأيضا تحصن قلبها ضد هذا البريق الذي يجرفها معه.

وبعد مغادرة سيدها طلبت من السائق الذهاب بها الى مكان قد يساعدها على ذلك.

***

تنظر في أثره، لقد غادر دون وداعها، لقد إشتاقت حنانه وثورته، دفئه وقسوته، اشتاقت حزمه، مسحت عن عينيها الدمع، تحاول تنفس الهواء ليمدها بالبقاء..

جذب انتباهها تللك الفتاة التي حضرت الى الفيلا منذ ثلاثة أيام، تقطن الملحق، علمت من الخادمة أنها الممرضة التي ستهتم بوالدها، مهلا .. هي أيضا تهم بالخروج، هل ستغادر أم ماذا..!

فكت سجنها وحصار أفكارها بالنفي والاقصاء نزولا الى

حديقة الفيلا، إقتربت قليلا من الملحق..من هذا..

كهل، بلحية بيضاء، يذكرها بهؤلاء الابطال في افلام

الفانتازيا، شعر ابيض كالفضة الذائبة ببريق الشمس، استدار

لها وقال بعفوية وكأنه صاحب المكان

" من أنتِ؟"

فأجابت بطفولية تناسبت مع بنطالها الطويل وبلوزتها التي

تمسك أطراف أكمامها بكفها

" أنا عاليا، أخت طارق"

إنبسطت ملامحه وهو يقول

" لم أكن اعلم بأن له أخت جميلة مثلكِ"

ها قد بدأ التملق هذا العجوز، لكن لابأس سيرضي ذلك

غرورها..

جلست على طاولة وضعت خصيصا له ولحفيدته..

لم تتحدث اليه، وهو كذلك.

تتطلع اليه ..وهو كذلك.

تكلمت، فتكلم في نفس الوقت فكانت كلماتهما

" أنت .."

ابتسمت، برزت غمازتها، ضحك فبانت أسنانه..

" تبدو قوية"

بدت دهشته...يشير بكفه بتساؤل..فأجابته

" أسنانك.. تبدو قوية لمن هم في مثل عمرك"

لا يعلم كيف يدير حوار مع طفلة، بلسان يفوقها عمرا

فأجابها

" أهتم بنظافتها"

ثم أخرج من جيب قميصه سواك صغير ، هم بتسويك اسنانه

امامها فقالت

"ما هذا!"

"مسواك"

بدا الاستغراب على وجهها الصغير فقال

"الا تشاهدين الاعلانات يا صغيرة"

عن اي اعلانات يتحدث هذا الرجل ، ألم يخبره أحد عن

الانترنت، عن اليوتيوب ومواقع التواصل والمشاهدة .. هو

يتحدث عن الاعلانات وهي تعلم ما يحدث في العالم بضغطة

على هاتفها المحمول.

اعلان عن مسواك، هي لا تنتظر تلك الاعلانات السخيفة

التي تبدد متعتها بما تشاهد.. على كل حال.

"هل الأمر صعب الى هذا الحد"

إتسعت نظراتها اليه..تبتسم بتسلية فأردف

"إنه سنّه، أوصانا بها النبي في كل وقت وحين، عند النوم والاستيقاظ، بعد الطعام، عند الصلاة"

بدا وكأنه يتلو طلاسم فصمت.

"هل لي بواحد"

فكر قليلا..يتنسم الهواء حوله بسعادة..ثم قال

"أعدكِ بأن أحضر لكِ واحدا آخر نظيف، يليق بأسنانك القوية"

ثم أخرج من جيبه لعبة الورق، فاستغربت مجددا..

"وما تلك؟"

"كوتشينة"

عقدت حاجبيها الرفيعين تتسائل في نفسها، من أين خرج لها

ذلك العجوز!

من أسطورة، أم من فيلم خيالي .. أخذت تحرك رأسها ربما هو

غير حقيقي فتستفيق.

لم ينصرف .. حسنا .. ربما بالقول فقالت وهي تشير بيديها

في حركة تتفق مع كلمتها

"إنصرف"

تعالت ضحكاته، فرأت لمعان أسنانه بوضوح تتفق مع بريق

لحيته .. ومع كلماته التي تبدو لها كالطلاسم.

حاول السيطرة على ضحكه ليقول

"تلعبين؟"

ثم بدأ في وضع الورق على الطاولة، واعطاها نصيبها من ورق

اللعب وهو يقول

"مستعدة للخسارة"

أخذت منه الورق وبدأوا في اللعب، غلبها .. ثم انهى اللعب

بقوله

"كفى.. لقد مللت"

بدت حزينة عابسة لخسارتها..تضرب برجلها الأرض متذمرة

وبعد لحظات صرخت بحماس

"لا لا ، ليس الآن .. مرة أخيرة وأكون إكتفيت.. دعني

أعوض خسارتي "

قام ليتوجه نحو الى الداخل بمشاغبة، فلحقت به تمسكه قبل

ان يغادر

"ارجوك .. مرة أخيرة"

نظرتها المستجدية أصابت قلبه الطيب فوافقها، ينظر الى

عينيها بخاصته، تلك الشقية الحلوة.. جلستها المسلية

أسعدته أكثر من مجالسة خلود.

ذكية .. فهمت اصول اللعبة بسرعة وسهولة .. توقع

خسارته أمامها وهذا ما حدث.

إستمع الى أذان الظهر وقد دب الحماس في أوصاله ورغب

في إكمال اللعب فقال

"هل تنتظريني حتى أفرغ من صلاتي وأعود "

أجابته بانتصار وهي تسترخي على كرسيها

"حسنا .. لا تتأخر "

***

عادت من الخارج ، تتجه نحو الملحق، تتلمس جدرانه

وتتنشق رائحته..أين هو من رائحة الجدران العطنة بمنزل ام

محمود .. لم يتسع لها الوقت لتنسى..فلازالت الذكرى رطبة

بعقلها...

وجدته أمامها يشاهد التلفاز، جلست جواره، ملحق صغير

لكنه يتسع بحنان جدها ودعواته التي لا تنضب وشكره

للنعم التي تحفهم.

لقد كانوا قاب قوسين أو ادنى من التشرد، لقد أنقذهم الله

من الجوع والنوم في العراء، بل أكرمهم ببيت ومال وعمل،

انها دعواته..حتما دعواته...

تذكرت عملها فقالت

"جدي .. أعلم بأن طلبي قد يكون إمتهانا لك .. لكن أرجو

أن تتفهم الوضع"

أغلق التلفاز لينتبه اليها كليا

"والد السيد طارق بحاجة الى نظافة شخصية .. وتعلم بأنني

لا يمكن .. أن .. "

"سأفعل أنا يا خلود .. اهتمي أنتِ بدواءه وانا سأهتم به ..

هو في النهاية مريض وعاجز وأنا أبتغي الثواب من الله"

لطالما أعطاها دروسا في الصبر، والصلابة في مواجهة الظرف

هبت بسعاة تقبل وجنته تشكر صنيعه..فبموافقته ازال

كدرها وهمها .. قالت توجهه

"لن تحممه يا جدي .. لن تفعل شيئا سوى تمرير منشفة بالماء

معطرة .. وتبديل ثيابه .. وغير ذلك .. ليس من شأنك "

"حسنا .. هل نبدأ الآن؟ "

سأذهب لأجدد له دواءه .. واعد لك كل شئ ليتبق لك

القليل.. هل ستقدر؟"

"نعم .. لا تقلقي"

وقبل أن تغادر وضعت يدها على كتفه لتقول

" جدي، أنا آسفة .. سيبقى هذا الامر سر بيننا، لقد هدد

السيد طارق بطردي اليوم إن لم أهتم بشؤون والده كاملة،

و أنت تعلم معنى الطرد من هنا "

أومأ برأسه متفهما

" قد أكون عجوز يا خلود"

ثم رفع ذراعه يبرز عضلاته المتهالكة ليردف

"لكني عصب"

ضحكت وهي تعلم بأنه واهن ...مريض...تكلم بجدية يحتوي

قلقها

" سأفعل ما بوسعي لتحافظي على وظيفتكِ"

تعلم بأنها مخاطرة، قد لا يستطيع جدها فعل ذلك، لكن

وجبت المحاولة، فأي شئ في الدنيا يمكن تحمله الا العراء.

غادرت، قامت بمهامها، أعدت كل شئ لجدها، ثم أحضرته

وتركته بمفرده وخرجت.

بعد لحظات خرج جدها يرفع لها أصبعين في إشارة منه لعلامة

النصر وأن الامر مر بسلام.

إتسعت ابتسامتها، وتجدد الامل بداخلها، لقد تخطت أصعب

الامور في بقائها هنا.

اليوم نالت صك العبور نحو عملها الجديد، وعليها التمسك

به والمقاتلة لاجله.

وعند معانقة القمر للسماء ليلا جلست تحتسي الشاي

بصحبته أمام الملحق..

تملأ صدرها بعبير الراحة والامان، هي الآن لديها كل شيء.

منذ متى لم تختبر شعور الراحة هذا..

منذ حملت الهم مبكرا، وفاة والدها تلاه أمها وهم في ريعان

شبابهما، لم تتحمل والدتها المسؤلية الثقيلة التي تركها والدها

، طفلتة وأبيه..وفقر مدقع.. وعليها الاعتناء بهما.

لقد كان جدها في هذا الوقت شباب مقارنة بالان، كان

يعمل في ورشة لتصليح السيارات، الى أن قام صاحب تلك

الورشة بطرده متعللا بمرضه وبطء حركته.

" لقد حدث شيء اليوم يا خلود أود إخبارك به"

تفرست وجهه وقد إرتسمت الجدية عليه.. تحثه بعينيها بأن

يردف

" والد السيد طارق"

إسترعت كلماته على انتباهها كاملا

" و انا ابدل ثيابه اليوم رأيت .. رأ.."

تقطع كلماته جعلها تستدير اليه قائلة

" ماذا رأيت يا جدي تكلم"

"آثار جَلد على ظهره"

شهقت بقوة

" هل أنت جاد؟"

" نعم، آثار جلد من سوط وربما حزام علامات متداخلة لأثر

تعذيب لا تخطئه عيني"

وهنا فقط إستدعت كل خيوط القلق المتشابكة التي قد

تؤرق روقان بال أحدهم

"علي إخبار السيد طارق"

" وهل تظني بأنه لا يعلم؟"

نظرت له باستغراب..تعبس بحاجبيها بخوف ليكمل جدها

" السؤال هو من فعل هذا بالرجل؟"

علامات التفكير شقت قسماته

" والسؤال الأهم لماذا أنتِ بالذات التي أحضرها السيد

طارق لتعالج والده في حين إستطاعته جلب أمهر الممرضات

إليه؟"

يكمل بذات النبرة المتشككة..القلقة وهو يجمع ذراعيه حول

صدره

" لماذا ممرضة بلا مال ، أو عمل ، أو حتى مأوى ومعها

عجوز مثلي بإمتيازات كالتي ننالها، بمرتب لم نكن نحلم بجمعه

لو عملنا سويا أنا و أنتِ"

ظلت تتشرب كلماته و أفكاره الناطقة تلك لتستوعب قوله.

تساؤلات جدها منطقية، لقد طلب منها طارق أن تعتني

بوالدها بنفسها

" ولماذا ووالده في غيبوبه لا ينال الرعاية في المشفى بدلا من

جلبي أنا للعناية به.. الأمر يبدو مريب يا جدي"

بلمت الوجوه، كلاهما ينظر الى الفراغ.

***

أنفاس ، من كل حدب وصوب ، تأوهات كريهة تتلبد بعقله

فتُسقط أمطار غضبه بضراوة ، ليته ما أغمض عينه ، ولا

حاول الاسترخاء ، فمن أين له بالهدوء والعواصف تكيد له

وتخطف لبه، إعتدل في جلسته يفتح عينيه بألم، يعتصر رأسه

بين يديه كمن يرتب الأمواج داخلها ، لم يشعر الا بنيران

سيجارته تلسع كتفه في بطىء يستلذ بلهيبها، ضغطة بسيطة

على أسنانه، ميلة رأس للخلف، تنهيدة نشوة ممتزجة ببعضا

من سعيره.

يعلم بأنها نشوة لحظية مسكنة لألمه الذي أنّت روحه به، لكنه

لا يعلم خلاصا لما يعانيه، لقد توقف عن فعل ذلك منذ بدأ

بجَلد أبيه وإخضاعه تحت سطوته، منذ دخل ذاك الأخير في

غيبوبته وقد عاد الى ايذاء نفسه من جديد.

جب عميق مظلم وروح مقيده به و أنى له النجاة..

عبأ صدره بالهواء المتشح بدخان سيجارته الجديدة، ينفث

دخانها على إستحياء وقد رغب في حبس سمها داخله، هو لا

يرغب بحرية لروحه بموت، أو فناء بل يستمتع بقيدها

وحبسها وتفريغ إحباطه وحزنه بها.

من قال بأن الأجساد هي من تمرض!

أو هي من تموت!

ألم يختبر صاحب هذا القول ألم النفس وحبسة الصدر وضيق الحياة!

ألم يسترعِ إنتباهه من تخلص من حياته ضيقا..

وقطع شريانه بعد أن سُدت الطرق بوجهه..

ألم يعِ ألم الفراق والفقد..

جلها آلآم للروحِ قبل الجسد تُصليها بنار موقدة لا تنطفيء ولا تهدأ...

***

الفصل الثالث

انا أستغيث..فما بالي لا أهل ولا حبيب يغوثني..أنا

أحتضر..فلا أجد يدا او عونا فأموت وحيدا هالكا بآثامي..

وحدي أقاوم فلا أهتدي...

وحدي أقاتل ولا معين...

من أنا...أين انا...؟!!

لا يهم الزمان ولا المكان..فالميت لا يهتم.

***

تتدثر بلحاف الصبر وهي تواجهها، تلك الطفلة اللزجة التي

تقف على أعتاب بابها تطالبها بمعرفة مكان جدها، هي

أخته.. ابنة المريض الذي هو سبب وجودها وحياتها..

الا أنها لا تستسيغ تلك العاليا التي جاءت لتشاركها جدها..

لا تنكر سعادته بها، لا تنكر تجدد دماءه ورغبته المبهجة في

الحياة منذ رآها ، الا أنها هي حفيدته الحقيقية وليست تلك.

تنصلت منها مرتان تخبرها بأنه في الحمام.. والأخرى يصلي،

والآن نفذت حجج غيابه.

لا تنكر شعورا بالغيرة مزقها، خاصة تعلق جدها بتلك

الطفلة، لا حديث لديه غيرها..

عاليا ركضت معي، هي تعلم أنه لا يركض بسبب آلآم ركبته

لكن ما أثار حنقها .. هو شبابه المنبعث من ركام عمره

المتهالك..

عاليا أحضرت لي هدية، تلك الطفلة متسولة الحنان أهدته

ساعة فضية ثمينة، زغللت بها عينية مشوشة الرؤية..

تبا لك جدي ولها

" هل إنهى العجوز صلاته؟"

هي حتى غير مهذبة، لماذا لا تنعته بالجد أو العم ، أم لايرقى

لمستواها، فلماذا إذا تتمحك به.

مصمصت شفتيها تهم بالرد على تلك التافهة، لكن جدها

أزاحها عن طريقه ليسلم على الفتاة

" لا يليق بي لقب العجوز هذا يا عاليا، ما رأيكِ لو تناديني

جدي"

أمسكت خلود قلبها مصدومة مما يفعل..

هي فقط حفيدته، حفيييدته.. كيف تقحمها في عقله.

فطِنت عاليا لشرارات الغيرة، ورائحة إحتراق خلود، فوضعت

البنزين لتزيد من إشتعالها

" حسنا جدي"

و ألقت نظرة مشاكسة الى خلود لتردف

" هل نركض الآن ؟"

لقد أعطتها القاضية، فسقطت خلود ولا زالت ممسكة بقلبها

تردد في تتابع وكأنها دعاء

" تبا.. تبا .. تبا "

وفي الظهيرة، لمحتهم يلعبون سويا وهي ذاهبة حيث غرفة والد

عاليا، تتسابق ضحكاتهم اليها، لتزداد حنقا وغضبا تحدث

نفسها

" حسنا يا ابنة الحسب والنسب، لديكِ كل شيء ..

وتنزعين مني جل ما أملك، لديكِ الأخ والسند، لديكِ الاب

والسلطة، منزل قد يأوي العشرات، مال لو ظللتِ تنثريه في

الصحراء لن ينفذ..وتحسدينني على العجوز وترغبين في

مشاركتي فيه .."

تعثرت من سوء أفكارها فسقطت على حشائش الحديقة في

حين تعالت ضحكات جدها وعاليا وهم ينظرون

اليها..فتضاعف حنقها فلم يعد ينفع معه الزيادة.

إقترب منها يساعدها على الوقوف، دفعت يده بطفولية لا

تتناسب مع سنوات عمرها الخامسة والعشرين، فقال

" إنتبهي لخطواتكِ يا خلود"

ولم يفت تلك الصغيرة التندر هي الأخرى

" ما كنت لأقع هكذا، لابد و أنكِ كنتِ تسرحين"

" كنت أسرح في كيفية التخلص منكِ أيتها المتطفلة الصغيرة"

كانت هذه كلمات خلود التي لم تنطقها، ودت لو لفظتها مع لكمة في فك الصغيرة كي تسكن غيرتها قليلا

" أجل كنت أفكر في والدكِ، كنت ذاهبة اليه هل ترغبين في الذهاب معي؟"

إنطفأ النور من وجه عاليا ولم تعد أشعة الشمس تجدي لإشراق وجهها من جديد، وكأن ذكر والدها وحالته الصحية عصا سحرية لجلب النكد لقلب ووجه الفتاة.

رق قلب خلود لها، كانت ستضربها منذ قليل، والآن ترغب في ضمها، فلم يذق ألم الفقد الا من عاشه.

ذكرتها بطفولتها البائسة، هي لا تملك البذخ الذي تملكه عاليا ولا العيش الرغد، لكنها وقت فقدت والديها لم تكن تنتبه أيضا لفقرها وضيق حالها قدر فقدانها لجبلين راسخين يوازنان حياتها ويحيطونها بالدفء.

نقلت بصرها نحو جدها الذي حزن كثيرا لتبدل ملامح الصغيرة.. يبدو أنها حسدت فرحتهم واستكثرتها عليهم، مدت كفها نحو شعرها ترفعه بتلقائية وهي تقول

" سيكون بخير عاليا"

"أنا أعلم ما يعانيه ابي يا خلود، غيبوبة قد لا يستفيق منها، والموت قد يكون أهون من رقدته هذه، أتعلمين.. أنا لم أره منذ ولدت سوى مرات قليلة تعد على الاصابع، وجميعها لم يكن في حالته الطبيعية، إما سكران، أو غاضب من شيء لا

أعلمه"

لمعت عيني عاليا بالدموع لتردف

" كان دوما مشغول، يسافر كثيرا كحال طارق، يسهر مع

أصدقاءه، وعندما عاد ليمكث معي كان وهو غير واعي ،

غير شاعر بي"

وخز الألم قلبها، ترغب الآن في مسكه بجدية بعيدة عن

سخرية الصباح ليتوقف الألم، كيف لطفلة بهذا العمر تحمل

هذا الألم.

تلك الأموال لا تجلب السعادة، كيف!

هذه الجدران الثمينة المشيدة على أحدث الصيحات في

التصميم لا تحوي الأمان، كيف!

وجود الأب كعدمه بين كأس مر يغيب عقله، ألم يخبره

أحدهم بأن حضن عميق من هذه الصغيرة الرقيقة قد يذهب

برأسه وتعقله!

هذا الثراء الفاحش يحوي هذا الحزن الفاحش!

أمسكت كف جدها بتلقائية تنشد دعمه، وتؤكد على تملكها

حنانه، وكانت حركتها التالية مسك كف عاليا، لتخبرها أنها

منذ اليوم لن تتخلى عنها، أو تتركها.

إبتسمت عاليا تزامنا مع سقوط عبراتها المقيدة بين عينيها،

دوما ما تهرب من الحديث عما يخصها حتى مع صديقاتها،

لقد شعرت بشيء مميز بين الجد وحفيدته، تمنت لوهلة أن

تكون إبنة خلود والعجوز جدها الحقيقي.

لكن.. ليس كل ما يتمناه المرء يناله، قد يدركه ويحضره

ويعايشه، لكن لا يناله ليصبح ملكه أبدا

***

" لا يا خلود، لا يُقطع هكذا، أنظري وتعلمي"

كلمات مديرة المنزل وهي تأخذ منها ثمرة الفاكهة، أشعرتها

بالجهل، هي أبدا لن تسأل عن أسم هذه الفاكهة التي قصت

حكايتها لجدها يوما، ولو أنها ستموت من شدة الفضول.

" ثمرة الكيوي تقطع هكذا"

إبتسمت بانتشاء وهي تستمع لاسم الفاكهة، تنظر كيف

تقطعها، بمقشرة حديثة نزعت عنها قشرتها...ثم فطعتها

لحلقات دائرية ابرزت حباتها السوداء الدقيقة..ثبتت عينيها

على تلك اللمعة الشهدية المنظر فوق الفاكهة....

لعقت شفتيها بتلذذ قبل تذوقها...

كم هي حلوة وحامضة...مذاقها المنعشة خدرتها للحظات..

" هل يمكن أخذ واحدة أخرى؟"

أشارت السيدة الى الثلاجة قائلة

" خذي ما شئتِ خلود، السيد طارق أصدر أوامر بإتاحة أي

شيء تطلبينه"

توجهت نحو الثلاجة ، تحضر طبق كبير، تأخذ ثمرتين من كل

فاكهة، واحدة لها والأخرى لجدها، ليتشاركا خدر

الطعام...واربع حبات من الكيوي الشهي.

" خذي المزيد يا خلود"

قالت بقناعة

" شكرا لكِ ، أخذت ما يكفيني وجدي"

وأثناء حديثهم جاء من الباب الخلفي للفيلا عامل، يحمل

حُلل رسمية للسيد طارق، فقالت لخلود

" أنا آسفة حبيبتي، أعلم بأنه ليس عملك، لكن .. هل يمكن

أن تضعيهم بغرفة الملابس داخل غرفة السيد طارق،

فالخادمة ذهبت لتبتاع الخضروات، أنا آسفة حقا"

تركت خلود صحن الفاكهة،تناولت الملابس من العامل.

صعدت للدور العلوي، نفذت وصفة مديرة المنزل، غرفة،

إثنان، الثالثة جهة اليمين، حسنا هاهي..

فتحت الغرفة مغلقة الباب خلفها..

أضائتها..بل الغرفة هي من أضاءت خلود..

وكأن المس أصابها لتتحفز جميع حواسها .. وتتفتح عيناها

ومسامها..

هل ما تراه حقيقي..

غرفة، أهذه غرفة؟

غرفة أكبر من ملحقها بالكامل، بل أكبر من شقتها التي

كانت تسكنها..

رائحة تخللت جلدها، ألوان نبهت عقلها، أثاث خلب لبها..

ثراء في كل شيء، في سريره، دولابه، هل يضع صالون فخم

في غرفة نومه، ما كل هذه الزجاجات، عطور!

وضعت الملابس عنها واقتربت من تلك الزجاجات غريبة

الشكل..

إشتمتها، وياليتها ما فعلت، رائحته..

هي رائحته.. إرتعشت يداها وأوشكت على اسقاطها..

شلت أفكارها..

لا تعلم بم تفكر وكيف تفكر، أصيب بالشلل في نقل بصرها

عن تلك الزجاجات..

لم تعد تذكر لماذا هي هنا..

أزاحت غرتها عنها ، تحركت قليلا، جلست على كرسي

عتيق مريح...

ثم وقع بصرها على الملابس فانتفضت مسرعة نحوها وقد

هاجمتها الافكار لتستفيق..

هي هنا من أجل وضع تلك الملابس..

بحثت عن باب في تلك الغرفة التي يتوه فيها سائق التاكسي،

الى أن وجدته..

فتحته، وكأنها تخرج من عالم مبهر، لتدخل عالم آخر أشد

إبهارا.. ذكرتها حالتها بمدينة اوز الحالمة حيث السحر

والالوان.

حوامل كثيرة، ترص عليها حلّات متعددة الالوان

والتصاميم..

أرفف متينة عليها أصناف وألوان من البناطيل الجينز

العصرية..والكلاسيكية..

يقابلها أرفف مهيبة عليها أحذية لم ترها يوما حتى على شاشة

التلفاز..

هذا ليس ثراء، إنه البذخ...

أموال كثيرة لا يعلم مالكيها أين يضعوها..

هل تشدقت يوما بكراسي سيارته التي قد تأوي وتطعم أهل

حارتها..

ماذا عن غرفته، أو غرفة ملابسه.

وضعت الحلات على الحوامل بحرص..

أغلقت الغرفة..

ومن ثم غرفته الكبيرة..

وغادرت الفيلا بطبق الفاكهة نحو جدها..

لم تسعد بهذا الغنى بقدر ما أحزنها، كم عانت من الفقر

المدقع والظلم المرير بينما هؤلاء يتنعموا ويتدثروا بالذهب..

ألم يخبرهم أحد .. بالصدقة، الزكاة، رحم الله عمر يوم قال ان

اخرج الاغنياء زكاتهم ما جاع فقير.

ليت كل العالم بعدلك عمر..

دلفت الى جدها، ناولته الفاكهة..

أخبرته باسمها.. تختبر نظرات الفرح وانبساط الوجه معه،

تناولها مبتهجا بمذاقها..يمد يده اليها بحبة، فقالت

"لقد تناولت الكثير هناك"

تراقب حركاته وسكناته...كيف كانت ستعيش بدونه...هو

الشجرة العتيدة التي بنيت من آلآف السنين فلا تهتز

بعاصفة، ولا تسقط اوراقها برياح..

هو منبع ثقتها وصبرها...على يقين بأن المال لن يبدل

طباعه.

تسللت يديها بين ذراعه تستند الى كتفه..

وكعادتها تلقي على عاتقه قلقها...

بينما لازالت أسيرة لهذا العالم المؤلم.

***

سماء متدثرة بالغيوم علقت بها عينيها ، تنهيدة فلتت من

شفتيها متزامنة مع إنخفاض صدرها بزفير راضٍ هانئ بحياة لم

تكن لتحلم بها يوما .. هكذا توصلت لقناعة، بأن تأخد من

هذا العالم البراق ما يكفيها ويرضيها، ولا تفكر بالكثير.

إنخفض بصرها قليلا نحو غرفته البعيدة .. لقد عاد اليوم، لم يملك من الوقت لحظات لتتحدث اليه، صعد مباشرة نحو غرفته لينام، ويرتاح من مشقة السفر.

ظل شمعة يتأرجح بضوئها على حائط صومعته، تراها من نافذة غرفته المفتوحة، تعلقت عينيها بالنور المهتز، ومن ثم تدخلت ملامحه لتلك اللوحة القاتمة، أنفه الشامخ، ظلال شفتيه المطبقة دوما، شعيراته المنثورة بعبث فوق جبينه، جسده القوي، أصابعه ترتفع قليلا نحو شعلة الشمعة ليطبق اصبعيه في بطىء ليطفيها فيعم الظلام غرفته، وتنتفض خلود فترجع خطوة للخلف مع شهقة خفيفة كمن أُغلق الباب على طرف اصبعها .

تشعر بالغموض حول كل ما يخصه، كلماته القليلة، تواجده

الطفيف بالمنزل، غيابه الكامل لعدة ايام قد تصل لاسابيع،

وتلك الطفلة الباهتة تمكث وحدها بين جدران ميتة بدون

شيء يحييها، ظنت ذات يوم بأن الجدران تأوي، واليوم

تيقنت بأنها قد تأوي أجسادا فاقدة لروحها.

لم تتخطَ حدودها أبدا ولن تفعل، لن تقترف خطأ بسيط قد

يودي بها الى الشارع الذي مقتته بكل ما يحويه.

" خلود!"

إلتفتت لنداء جدها، تعقد ذراعيها أمام صدرها

"العجوز يشعر بالأرق"

إقترب منها ليضع يديه فوق كتفها

" العجوز يشعر بالجوع"

" يا جدي تلك المرة الرابعة التي تطلب بها العشاء"

إحتضنها بقوة ليقول

"منذ جئت الى هنا و أنا لا أفكر سوى في الطعام .. لا أفعل شيء سوى مرافقتك والجلوس في الشمس، أفكر في افتتاح مشروع"

أسقطت ذراعه عنها لتقف خلفه، تضع ذقنها بين السبابة والابهام مدعية التفكير

"وما هو هذا المشروع يا جدي؟"

"طعام منزلي، أو ملتقى للخدم، بائع زهور، فتلك الحديقة مليئة بالزهور يابنتي"

ربتت على ظهره

"لا أرغب في الطرد من عملي هنا أيها العجوز، حبا في الله إلتزم بالتعليمات يكفي مرحك مع العاملين هنا وتدخلك

وإنغماسك في حكاويهم، جدي .. ضع حدا لهذه الامور لا

ينقصنا القيل والقال "

تغضن جبينه، لحقت غضبته باللعب على أوتار معدته

" ما رأيك بصحن بسطرمة بالبيض يا حبيبي "

تهللت أساريره وقد نجحت في الهاءه فقال

"أزيلي عنها الثوم حتى لا يرتفع ضغطي، و أسرعي فأنا جائع

للغاية"

***

تسللت رائحة البسطرمة لأنفه، شعر بالجوع المفاجىء،

الساعة تجاوزت الواحدة ليلا، قطعا ليست خادمته من

تفعل.

عبأ صدره بتلك الرائحة وبدأ لعابه يسيل فلا رغبة له في

النوم الآن، إرتدى فانلته مغادرا غرفته يتبع حدسه و أنفه،

الى أن اقترب منها وجدها، يشاهدهما خلسة، جدها يفرك

يديه بحماس يطالبها بالخبز، بينما هي منشغلة بأعطاءه الدواء

اولا.

لاك الطعام بفمه وهو يقول

"يليق بكِ لقب الشيف يا خلود"

نظرت له بطرف عينيها

" الأمر أبسط من ذلك بكثير، أنت فقط من تفكر ببطنك

لا بعقلك، أتعلم لو شاهدنا أحد ونحن نفعل هذا الجرم ..

لطردنا على الفور"

متلذذا بالطعام وهو يقول

"نحن نتعشى!"

" للمرة الرابعة! "

إبتسم جدها ليتحدث بجدية

"إنها راحة البال يا ابنتي، كان يشغلنا المكان والايجار والعمل

والمواصلات، كنا منشغلين بلقمة العيش يا خلود ولم نكن

نتناولها، راحة البال تجعلكِ تأكلين عشر مرات بدلا من مرة،

تجعل الهواء ذو رائحة وتجعل للماء لون"

تنظر اليه وشفقتها في لمسة يديه، تحاول اثناءه عن التفكير

فيما مضى

"أتعلم، لو لم أكن شيف .. او عاملة في دار مسنين ، هل

تعلم ماذا وددت لو اعمل"

همهم يكمل طعامه لتردف

"عارضة أزياء"

انفجر ضاحكا

"حسنا، عارضة أزياء، بساقين كحامل الارجوحة، وتقويم

أسنان يزين فمها، وقامة قصيرة، لن يراكِ الجمهور على أية

حال"

ردعت غضبها بكلماتها

" جدي توقف"

" حسنا ، أنا أمزح، ومن سيوافقك على تلك المهنة التي

تتعرى نسائها، قصر قامتكِ وقدميك وتقويم أسنانكِ أغلى

عندي من أن يُعرَضوا بثمن بخس على الرجال "

تركت لخيالها العنان ونسائم الهواء ترطب قلبها وتغذي

احلامها

"فساتين كثيرة أرتديها بألوان لا حصر لها، أحذية بكعوب

عالية تصلني بالسماء، زينة وعناية بالبشرة وشعر مسترسل،

لطالما كان حلمي"

"حمدا لله، لقد شبعت"

أمسكت يديه تستبقيه

" أليس من حقي أن أحلم!"

سمع إستجدائها بقلبه فعاد لجلسته

"لا عيب إن كان حلما، فأين سنفرغ أوجاعنا، لكن إن

كتب لكِ الله العيش بدوني يا خلود وتجرأتِ على تلك

الفعلة، فأنا غاضب عليكِ"

"لقد كبّرت الأمر يا جدي، لم تربني على تلك الجرأة"

رياح حملت شعرها الأسود نحو خديها في نعومة فتشابكت

معها بيدها لتعيده كما كان، جمعته في جانب واحد وقامت

لتنظف الطاولة وتعيد الصحون للداخل، بعثر الهواء شعرها

مجددا وحمله هذه المرة نحو عينيها فتعثرت وسقطت بما تحمل.

وصلتها قهقهة جدها وكلماته من بين سعاله

"إنظروا لعارضة الأزياء وقد سقطت"

حاول تهدئة ضحكاته، قام ليساعدها حتى دخلا الملحق،

فأوصد الباب خلفه متجها الى اريكته حيث النوم.

خرج طارق من مخبأه، ليصطدم الهواء بجسده مسترجعا

كلمات جدها.. التي أثارت في نفسه الحسد، فهو لم يجد من

يخاف عليه، بل وجد من قسى .. وبشدة.

***

في الصباح، أرسل في طلبها..أسرعت اليه فلقد إنتظرته كثيرا

لتعلم إجابات تساؤلاتها..

دلفت الى سلطان غرفة مكتبه..

يجلس أمامها ، يتصاعد دخان سيجارته المهملة جواره..

تنفس من فمه بعمق ليزفر كلماته

" كيف هو؟ "

" بخير سيدي"

" وأنتِ "

بدى لها مستعد لتساؤلاتها بمزاجه الرحب هذا.. حتما يعلم

بأنها سترى آثار تعذيب والده ..ويعد لها إجابة مناسبة،

عدلت حجابها وهي تقول

" كان هناك أمر أرغب بمناقشته معك سيدي"

ابتسم لتزداد ملامحه حدة، ولاول مرة ترى حدة تزداد

بالضحك ولا تزول، كم هو غريب هذا الرجل..ابتسامته

الساخرة نبهتها الى سطحيتها، وهل تتفضل عليه بالنقاش،

هو .. ولي نعمتها

" لقد شاهدت شيئا... "

قاطعها ليكمل عنها

" على ظهر والدي"

" نعم"

" هذا ما رغبتِ في التحدث اليّ بشأنه، لكن أخبريني أولا ،

ما شكل تلك العلامات"

" علامات سوط ألهب جسده"

قام يدور حولها، يستجوبها، يستنطقها بشيء لم تره وانما

تصفه نقلا عن جدها

" هل تهتمين بنظافة والدي الشخصية آنستي"

إرتعش داخلها فاجابت بوهن

" نعم"

ثم أسرعت تقاطع إجابتها بصدق إعتادته

" لا"

وقف أمامها ليزداد رعبها

" من فعل!"

" جدي"

أعطاها ظهره يلامس مكتبه بأصابعه يرسم حركات متقطعة

على سطحه..ثم تلاها بخبطات أشبه بلحن رسمي ليصدر

صوت وترها أكثر

" لقد أخللتِ أوامري يا خلود"

يراقب إرتعاد فأرته..أردف

" لكن لا بأس طالما أنجزتِ مهمتكِ"

عاد لجلسته، يتلمس سيجارته، يمجها بعمق

" تغيب والدي عنا لفترة، لم نكن نعلم مكانه، وعندما عثر

عليه رجالي كان على تلك الحالة، التكتم مطلوب لحين معرفة

الفاعل"

يتفرس إنتفاخ صدرها وتلاحق أنفاسها..يرأف بحالها سائلا

" هل ترغبين في مناقشة شيء آخر يا خلود"

كانت قد وصلت لنهاية الإرتجاف ولم يعد لديها المزيد سوى

السقوط فاقدة لوعيها تحت سلطانه، لكنها تماسكت فقد

أوشكت على المغادرة، خرج صوتها ضعيف

" لا ، سيدي"

قال بحزم

" أشكري لي جدكِ، وامنحيه هذه، وأخبريه بأن له راتب

مثلكِ تماما"

أخذت منه المال الذي يقدمه، أشار لها بالمغادرة، وقبل أن

تغلق الباب منصرفة..وصلتها كلماته

" توخي الكتمان يا خلود، أنتِ، وجدكِ"

***

الفصل الرابع

وان اشتهيت الحب يوما فلتستجديه.. فإن الحب لمن هم

مثلك صعب المنال.

***

تغمض عينيها تتلقف وهج الشمس داخلهما، رغم حرارة

الطقس إلا إنها في هذا الوقت نافعة..تسترجع ما حدث

بالأمس القريب..رعبها منه ومن كلماته..خوفها من أوامره

ليست تدري أهو خوف على لقمة العيش ام خوف منه

هو..ولماذا تخافه!..شيء ما في قلبها لا يرتاح لما يحدث رغم

أن ما أخبرها به أقنعها...

إنه الشعور الذي بلا دليل..يحكمه القلب وكفى...

تستمع لأوراق الزرع حولها تستجيب لنسمات شحيحة من

الهواء تشبه شح عقلها في تفسير خوفها..

لقد أخبرت جدها بما قاله طارق..

لم يعلق..وإنما تجهم...وتبدلت ملامحه..

لم تحثه على الكلام..فهي تدرك بأنه لن يتحدث إلا وهناك

دليل ملموس لمخاوفه...

تلتقط شطيرتها لتبدأ فطارها حتى ينتهي جدها من صلاة

الضحى ويلحق بها...

شاهدت عاليا تركض نحوها بهلع، مسرعة تتوسلها بكلمات

متلاحقة مع أنفاسها الصعود معها إلى غرفة طارق

" خلود، أرجوكي، إصعدي معي الآن الى طارق، وجدته ملقى

على الأرض دون حراك"

رؤية عاليا بمنامتها وشعرها المشعث، ووجهها عديم اللون،

حث خلود على الإسراع معها نحو غرفته قلقة.

وصلتا راكضتين....دلفتا إليه، إحداهما تكاد أن تموت

خوفا...والأخرى تهدم جدار خشيتها ورعبها منه وهي تراه

يفترش الأرض بقميص مفتوح، ووجه شاحب بشفاه

جافة..ساكن لا يتحرك.

يبدو بأنه كان يهم للمغادرة إلى عمله، سقطت على ركبتيها

تتفحص نبضه.

وجهت كلماتها إلى عاليا بعملية

" إذهبي إلى غرفة والدكِ يا عاليا وأحضري جهازي الضغط

و السكر، بسرعة"

جرت تلبي طلبها والدموع تتقافز من عينيها، فلطالما كان

طارق قويا أمامها ولم تعهده يوما مريض، هل ستفقده هو

الآخر!

تتساقط دموعها حالما دخلت غرفة أبيها...

الأثنان في عالم آخر هو وطارق...ترى..هل يتواصلان

الآن..!

بينما خلود تكمل فحصه،حاجبيه معقودان حتى في عالم

اللاوعي، أنفاسه تبدو منتظمة وكأنه نائم، حاولت اغلاق

قميصه ففوجئت بجرح قديم أسفل صدره، تفحصته بعناية،

الجرح بدا سطحي لكنه ترك أثر على جلده.

وبقرصة أذن خبيرة حاولت إستعادته من عالمه

المؤقت..ليتململ بين يديها..

ضغطات مؤلمة على أذنه تجذبه من تلك الهوة التي سقط

فيها..

يرى والده، صرخاته المتألمة التي أشعرته يوما بالإنتشاء،

صوته المتحشرج الذي يتحدث إليه

" دائرة الانتقام ستهلكك، ستظل تدور بها ولن تجد ركن

تلملم به ذاتك، ما حدث لم أقصده، لم أكن بوعيي، أعترف

بجرمي وجرمه، لكني.."

لم يستطع وقتها سماع كلمات تزيد من عذابه، فما حدث له

في سنوات عمره الفتية يراه رأي العين ولا يغيب عن باله..

هو لا ينتظر كلمات معتذرة، ولا شفقة منه، هو فقط يريد

أن يرتاح..

إنهال علية ضربا بكل ما أوتي من قوة..

يسبه وينعته بالقاتل، فقد قتله وجرده من انسانيته لسنوات..

ولم يشعر إلا وقد سقط والده في غيبوبة طويلة من شدة ما

ناله.

ومهما طالت، هو بانتظاره من جديد.

قرصة أخرى قوية إستفاق على إثرها..وبرؤية مشوشة رآها..

تمتم بأسمها يمسك رأسه

" خلود!"

" خلود!"

حاول الحركة..أن يضبط جلسته، حاول القيام..

لم يستطع.. كشف قميصه عن أحد كتفيه..

علامات دائرية سوداء علي جلده..تحيط بها علامات حمراء

تدل على حداثتها.

حاولت كتمان شهقتها وهي ترى ذلك..وخوفها وهلعها

يزداد، يمسك رأسه متألما

" أشعر بالدوار.."

حاول إغلاق قميصه فلم يفلح، تغلبت على خوفها وفعلت

هي بأصابع مرتعشة، إضطراب صوت جدها وبكاء عاليا

جعلها تستدير إليهم..

إقترب الجد منه وهو ينهج، يمد كفه إليه..

" هيا بني، لننقلك إلى سريرك"

نظر طارق الى كف العجوز، يفكر بسخرية

" حقا أنت من سيسندني!"

لم تفت ابتسامته جدها فقال ممازحا

" سترى مدى قوتي، تعكز علي وسترى بنفسك"

نظر طارق إلى كفه طويلا، نظراته استرعت انتباهها، هو رجل لا يثق بأحد، كبرياءه يمنعه طلب المساعدة، كل ما يقوم به في يومه إلقاء الأوامر على هذا وذاك، والجميع ينفذ طمعا في رضاه .

بينما ما يفعله جدها الآن ليس له علاقة بالمال، بل بالاخلاق.

كان الله في عون العبد ما دام في عون أخيه..هي تعلم جدها جيدا، وتعي أفكاره.

أنهت طول الفترة الممتدة فيها يده إلى طارق

" لا بأس جدي، سأقيس ضغطه هنا وننصرف"

بدأت بفك الجهاز، فوجئت بالتحام كفه بكف جدها، ليلقي

بحمل جسده عليه غير متزن، بينما جدها يبدي صلابة وقوة

، كعادته في هذه المواقف..

يستند إلى رجل واهن سنا...قوي البنية...يشعر بكتفيه التي

تهتز بين قبضته...يسنده و أعصابه تنتفض بحكم سنوات

عمره..يدعي الصلابة وهو لا يملكها...

ربما هي نابعة من قلبه...

ساعده في الاستلقاء، وعاليا رتبت الوسائد خلفه، بينما خلود

تقوم بعملها.

" ضغطك منخفض سيدي"

أغمض عينيه، يزفر الهواء بيأس..

إندست عاليا في أحضانه تبتغي حنانا ودفئا يبدد برودة هلعها

عليه..

إحتضنها بقوة، يقبل رأسها

" أنا بخير"

قالت بخجل..

" لقد جئتكَ معتذرة"

بصوت متهالك أجابها

"وأنا قبلته"

ثم أشار نحو أحد الادراج قائلا

" إفتحي هذا، وخذي هديتكِ، لقد كنت آتِ اليكِ على أية

حال"

فعلت ما قال، أخرجت هاتف حديث، إنه الهاتف الذي

طلبته منه، قبلته بشدة ودموعها تتساقط

" هذا لأجلي"

" كما طلبتِ"

" لكني أغضبتك"

أمسك رأسه مجددا يعاني دوار مقيت رغم إستلقاءه

" لا بأس يا عاليا، أنا أيضا كثيرا ما أغضبكِ، ما رأيكِ في الذهاب إلى سلمى اليوم، لكن كوني على الوعد معي"

قبلته تشكره

" لن أتركك هكذا، سأجلس معك اليوم"

" ومن قال بأني سأجلس، أنا ذاهب إلى عملي"

تنحنحت خلود التي على ما يبدو تناسوا وجودها .. هي وجدها..

" سيدي، أقترح لك الراحة اليوم، أظن أن الأعمال لن

تتوقف من يوم واحد سأطلب دوائك بالهاتف واحضره على

الفور، ولا مانع في فنجان من القهوة قد يساعدنا قليلا"

لملمت جهازيها وهمت بالخروج بصحبة جدها الذي قال

" إن إحتجت لشيء أنا موجود"

ايماءة رأسه المسالمة وإغلاق عينيه بهدوء وافقا كلمات الجد..

أداروا ظهورهم للمغادرة.. وصوته المرهق يصلهم

" شكرا لكم.."

***

سخونة، حرارة، أوشكت مسامها على الإنفجار وهي تستقل

المصعد متوجهة الى سلمى..

سيارتها المكيفة وكذلك الفيلا، لم تشعر بهما بالاختناق يوما،

متى ينتهي هذا الصيف اللزج..

رنت الجرس ففتح والد سلمى .. مد يده مصافحا لها

يضغط على يديها الناعمة..يسحبها إلى الداخل برفق

تبادلوا التحية..وقبل وجنتيها ببطء ثم أشار إلى غرفة سلمى

"تفضلي ..هي بإنتظاركِ..كيف حال طارق الآن"

سعدت بإهتمامه..أجابته

"بخير.."

ينظر إلى عينيها البنية التي اقتسمتها مع والدتها..عينيها

الواسعة التي تجذبه..إستدارت على مهل..متوجهه نحو غرفة

سلمى..

دلفت إليها شاردة..تراها تلملم شعرها الطويل برابطة شعر

قبضته جله...فبدت كالصبية...

قبلت إحدى وجنتيها وسقطت جوارها صامته...

"ماذا بكِ تبدين شاحبة!"

" لا استطيع وصف احساسي عندما وجدته هكذا يا سلمى،

كدت أموت رعبا، لولا وجود خلود وانقاذها له، لما تمكنت

من مجيئي إلى هنا، بل لم أكن موجودة في الحياة من الاساس"

أجابت الأخرى بلا مبالاة

" لهذه الدرجة تحبينه، أليس هو من يعاقبكِ ويمنعكِ عني"

" ليس عنكِ بل عن شاهي، غضب مني المرة الفائتة بسبب

عرضها علي السجائر"

شهقت مريم برعب

" وهل أخبرته؟"

" أنا لا اخفي شئ عن طارق"

شهقت مجددا

" وهل تخبريه بما نشاهد؟"

شعرت بالذنب تجاه أخيها، هو يستأمنها على نفسها ويثق

بها..قالت تبرر لنفسها

" وما الذي نشاهده!"

" مسلسلات أجنبية لا تخلو من مشاهد ساخنة"

صححت عاليا لها قولها

" بل مشاهد رومانسية بين الأبطال يا سلمى، هيا"

ثم أخرجت هاتفها الحديث بشاشته النقية، ليبدأوا بعرض

المسلسل المشوق الذي اعتادوا مشاهدته..استغرقا فيه إلى

أن دلف والد سلمى إليهم

" سلمى، ألن تري ما أحضرته لكِ"

فزعوا فور رؤيته لتغلق عاليا هاتفها فورا.. وتهب سلمى إلى

الخارجِ دون كلام لتغطي على تسارعِ أنفاسها..

أقترب من عاليا، جلس جوارها على السرير، يملس على

شعرها يحدثها برقة

" هل أفزعتكِ؟"

سيطرت على خوفها لتقول

" لا .. لا أبدا"

إحتضن كفها بين يديه يلامسها بنعومة

" ولما نبضكِ متسارعِ؟"

تلجلجت في قولها ليضغط على كفها بنعومة

" لا تخافي من شيء يا صغيرة"

ثم جذبها إلى أحضانه..يمسح على ظهرها يهمس في أذنيها

" ألن تشاركي سلمى سعادتها بما أحضرته لها"

أبعدها عن صدره، لامس قدميها يخفضهما عن السرير في

محاولة باهته ليقوما معا من عليه.. يوجهها إلى الخارج، ويداه

لا تفارق جسدها، بينما هي مخدرة من لمساته..

ليتركها فور خروجه من الغرفة..

كانت سلمى ترقص فرحا بهاتفها الجديد، لا يشبه ما تملكه

عاليا إلا أنه جديد وأحضر خصيصا لها، أخبرها بأنه من

أحضره لها، بينما طارق من جلبه لها حتى ترقى قليلا

لمستوى اخته..

التقط سترته وتوجه نحو الباب..

" الى أين يا ابي؟"

يحمل ملفات بيده، يلتفت نحو عاليا

" سأذهب الى السيد طارق فيلته، يحتاج مراجعة بعض

الأوراق"

قالت عاليا على استحياء تتعلق بالخروج معه

" يمكنك الذهاب معي، أنا سأغادر يا سلمى، مبارك عليكِ

الهاتف"

قبلتها على عجل لتلتقط حقيبتها وهاتفها وتغادر بصحبته،

الى طارق.

***

انهت عملها مع والده لتذهب الى المطبخ.. تجالس مديرة

المنزل، تطلب مستلزمات الغداء

"ألن تأكلا معنا .. سأعد الباميا والدجاج المشوي لنا "

أمسكت خلود حبات الطماطم تضعها في كيس...

"لا .. سأعد أنا الطعام لجدي في الملحق، لا أريد ازعاجكِ

اليوم"

قالت السيدة بصدق

"اليوم بالذات عليكِ أن تحلمي وأنا البي، لم نكن لنتصرف

اليوم بدونكِ، السيد طارق هو من يفتح بيوتنا.. لقد خشينا

عليه اليوم كثيرا"

تشربت خلود صدقها..تشرد في عائلته.. ألا يملك قريبا

يخاف عليه بصدق هو وعاليا!...لفظت سؤالها علها تصل إلى

جواب

"أليس لهم أقرباء؟ .. اصدقاء .. منذ أتيت إلى هنا ولم يزورهم

أحد"

أشعلت مديرة المنزل الموقد تهم بصنع الطعام لسيدها..

"من جهة الأم .. لهم خال ويعيش بالخارج، مستقر هناك هو

وأسرته.. ومن جهة والده له عمة واحدة، لكننا سمعنا عن

مرضها وسفرها الى الخارج لتُعالج"

همهمت تبتلع الكلمات

"اذا هم لا يملكوا عائلة"

مصمصت شفتيها تجيب خلود

" لقد كانت هذه الفيلا تعج بالناس قديما، كلهم طامعين،

فمن يملك المال والسلطان تجدين الذباب حولهم هكذا"

تجمع أصابعها مفرودة حول ابهامها في اشارة على تجمع

الذباب..لتردف

" إلى أن تعب سيدي طارق وبعدها ابتعد والده ولم يعد يأتي

كما كان، وكانت سيدتي تعاني ألما نفسيا شديدا لم نعرف

سببه، وقتها سافر السيد طارق إلى خاله .. مكث عنده عام

واحد كان قد عاد والده في فترة غيابه وبعدها سمعنا بحمل

سيدتي بعاليا"

لم تشعر بجلستها وتركها الخضروات الا وهي تقول بأهتمام

" واين كان والده ..؟ "

"نحن الخدم لا نعرف .. ولا نتلصص .. الفيلا مزودة

بكاميرات تعد أنفاسنا .."

نظرت حولها بخوف

"لا تقلقي يا خلود .. ما عدا المطبخ هنا والحمامات طبعا "

شعرت بالقلق .. تتحدث إلى نفسها ..هل الملحق مراقب..؟

"والملحق أيضا غير مراقب .. لقد فسدت الكاميرا الخاصة به

منذ زمن"

اطمأنت قليلا .. يبدو أن عليها ارتداء حجابها طوال الوقت

بدلا من عريه الدائم وكأنها في بيتها.

أردفت مديرة المنزل تكمل القصة، لتعود خلود إلى اهتمامها

من جديد

"نحن لا نعلم لما غادر سيدي الكبير ولا لماذا عاد .. ولا نعلم

سببا لمزاج السيد طارق الحاد بعد عودتة من الخارج وانجاب

عاليا .. لقد تحسن كثيرا بعد هياجه إثر موت والدته"

"وعاليا، هل حظيت بعطف والدها"

"لا، لم يكن يتواجد كثيرا.. سيدي الكبير كان مدمنا للخمر،

في أواخر عهدي به قبل غيابه، كان لا يترك الكأس من يد..

مما دفع السيد طارق الى إدارة الاعمال مبكرا"

أكملت حشو مكونات أكلة اليوم في كيسها .. والألغاز

تزداد حول هذا البيت بمن فيه...

حملته نحو الملحق بعد ان إستأذنت من مديرة الفيلا المغادرة،

تستعد لطهو الغداء.

***

يسرح في ترقرق الماء امامه، لون المياة الزرقاء الرائقة التي لا

تشبه مزاجه على الإطلاق يشعره بالغيظ.

يرتشف قهوته أمام حمام السباحة بفيلته، ظن بأنه سيستمتع

ويعتدل مزاجه سريعا، إلا أنه ازداد سوءا..

أرسلت له خلود الدواء مع الخادمة بصحبة فنجان من

القهوة المركزة..صباحا

وفور إحساسه بالتحسن اللحظي أخذحماما باردا لينزل إلى

هنا فهو لم يعتاد المرض.

يقبض على فنجان القهوة بيده رغم سخونته الشديدة فهو لا

يشعر بها.

سخونة أفكاره وإشتعالها اشد وطأة من تلك.

" أرى أن الفنجان لازال ساخنا على مسكه هكذا"

إلتفت اليها تحمل جهاز الضغط

" كيف حالك الآن؟"

راقبها تجذب كرسيا وتجلس جواره، تثبت الجهاز على ذراعه،

تلمسه، ترتب قميصه.. تنتظر لحظات باهتمام لقراءة القياس

" لقد تحسن قليلا، لكنه لا زال منخفضا"

قال بسخرية، فهي لا تعلم مقدار أذاه لنفسه، فالدوار هو

أبسط الاشياء ألما..

" هل الأمر خطير!"

تجاهلت سخريته واجابت بجدية

" إن تكرر قد نبدأ فحص أعمق وقد نكون بحاجة لاستشارة طبيب، سأراقبك"

" ترغبين في زيادة أجركِ"

إبتسمت فبدت أسنانها عارية من ذلك التقويم.

أسنان بالكاد مستوية..

أشار الى أسنانه فقالت

" لقد أزلته بالأمس، فقد حان وقت إزالته منذ زمن"

أومأ برأسه متفهما.. يبتعد بنظره عنها..يرتشف قهوته في حين خلصته هي من جهازها..ليشعر بأنه كان محاصرا وقد فك للتو..

"من أين لكِ هذا التقويم وأنتِ بهذا الحال يا خلود؟"

تجاهلت سوء ظنه البادي في سؤاله..وأجابته بعملية تتبعها

دوما معه لتغطي على خوفها منه..

"كان مشروع تخرج لطبيبة أسنان..كانت تبحث عن

أشخاص تعالجهم و اختارتني..كما تعلم بحكم مهنتي اختلط

بالعديد من الأطباء بتخصصات مختلفة منهم المبتدىء

ومنهم الماهر...من يملك الرحمة ومن لا يملكها..عملي كان

يسهل علي أشياء كثيرة منها دواء جدي الذي بت احمل همه

بعدها.."

شعرت بخروجها عن النص وتشعبها لألم ظنت بأنه إنتهى يوما

فأردفت

"هي نالت درجتها..وانا نلت تحسن بسيط في اسناني..كان

لا بد من تغييره بعد فترة ولم أفعل..فقد أنهت دراستها..وانا

لا أملك المال"

أنهى قهوته..يدرك كلماتها جيدا...محملة بنبرة الظلم والهوان

"ولماذا لم تبدليه.."

قالت ببساطة..

"تعجبني هكذا"

لملمت أشيائها تنهي لأول مرة حديثا..أسقط حاجز الخوف

بآخر متخوف..من تساؤلاته حولها...قالت تشير إلى بداية

حديثهم

" راتبي كما هو، أنا لا اقبل زيادة على شيء إنساني سيدي"

" انها الشفقة اليس كذلك!"

سخريته اللاذعة أفقدتها خوفها عليه في الصباح..

هو يُخفي خلف قناعه هذا أسرارا يخشى انكشافها..

تشعر بالفضول نحوه إلا أنها لا ترغب في إجابات..

هذه الفيلا مليئة بأشياء يصعب على عقلها تحمله..

هي في عمل..وستؤديه كما يجب..

وليس لها شأن بأي شيء آخر..

" هل تحتاج الى شيء مني.."

ناولها فنجانه فقالت

" أنا ممرضة سيدي ولست خادمة، سأرسل خادمتك لحمله"

وقبل أن تغادر بصلابتها الوليدة تجاه امتهانه لها.. لاحظت

اقتراب أحدهم بصحبة عاليا..

أحدهم تعرفه جيدا.. قتامة وجهه وقوة جسده..

لم تنس العلامات التي خلفتها عصاه عليها..

وبصدمة وقوة شهقت

" كمال!"

***

الفصل الخامس

كالطفل أحبو إليكِ، أستند على كتفيكِ، أرنو إلى صدركِ،

أشتهي دلالاً قديما، يمزقني الحنين إليه.

***

غضب مسها ولم تستطع تفريغه في أحد، ولا تملك مكانا

تصرخ فيه، يصارعها الماضي من كل حدب وصوب.

ماضٍ قريب لم تنههِ بالحق كما وجب، تركت له المكان بدون

رادع ليعذب وينتهك الآخرين، كم جبُنت من سلطته

وتهديده، تناست ما رأته ونالته في الدار فور قدومها إلى

الفيلا، تلّهى عقلها في فضاء واسع وأسرار لا حصر

لها..لكن ..الآن تستطيع..

كمال لا يملك عليها سلطان الآن، هو يعمل مثلها تماما عند

السيد طارق.

رفعت هاتفها إلى أذنها تتصل باحدهم، وبكاء واحمرار وجه

السيدة منيرة يطاردها كالاشباح، تُرى.. هل لازالت على قيد

الحياة!.. هل لازالت تذكرها...هل لازال هذا المختل يعذبها؟

صوتها الشجي وهي تحكي لها عن ابن أخيها، فالطفل الذي

حرمت منه جعل إحساس الأمومة والعطاء لديها مضاعف،

لكم أحبت ابن أخيها ودللته.

سفر، سباحة، صيد، عاملته كأنه ابنها وعشقته حد الموت.

تستمع إلى صوت الجرس..وتستكمل ذكرياتها.

علمت منيرة بوفاة زوجها كالاغراب، بعد أن سافر وهجرها

بحثا عن الولد الذي لا يستطيع رحمها احتضانه.

وكذلك غاب عنها ابن اخيها لتعبه المفاجئ..

وظلت تعاني وحدتها القاتلة بمفردها، إلى أن أصابها المرض

ووجدت نفسها في دار العجائز..

طُردت خلود من عملها قبل معرفة من وضعها هناك..

هي لا تذكر أحد..ولم تذكر أمامها أسماء.. إلا أن المسميات

وإن تعددت في حالتها ستتحد في كلمة واحدة" الجحود" .

صوت أجابها عبر الهاتف..فردت مسرعة

" نسرين؟"

نالت التأكيد من محدثتها فقالت بجدية

" أريد إخباركِ عن دار للمسنين تنتهك معايير حقوق

الانسان، المسنين يتم تعذيبهم واهانتهم وحرمانهم من الطعام

ومصادرة كافة اشيائهم وزيارات ذويهم ..عليكِ إنقاذهم ..

العنوان.... ومدير الدار يدعى كمال فريد"

وقبل سؤالها عمن يحدثها أغلقت الهاتف وهي تراهن على

فضول تلك الصحفية.. وتأكدها من فضح أمره.

هي على الأقل أراحت ضميرها و...

" هل انتهيتِ؟ "

إلتفتت إلى محدثها مخضوضة من رؤيته، تلتقط نظراته إلى

هاتفها البالي..

" سيد طارق!"

يدور حول الطاولة ليجلس، يُشمِّر ساعدية ببطء، يشعل

سيجارته التي لا تفارقه..

الجو حار والعرق يشتد فوق جبينها، لماذا تتبعها إلى هنا،

ومنذ متى يخوض في تلك المنطقة الخاصة بها وجدها..تتنفس

بصعوبة...لقد افزعها وجوده القريب...

يتفحصها بدقة..

" مع من كنتِ تتحدثين؟"

تلجلجت ، مسحت جبينها، فقال ليرحمها قليلا من توترها

وهي تقف مبتلة أمامه

" هل كمال حقا يعمل مدير لدار مسنين يقوم بتعذيبهم،

هل ما سمعته حقيقي!"

زفرت غضبها في أنفاس ساخنة كادت أن تحرق صدرها

"أنت تتلصص علي؟"

سحب من سيجارته نفسا عميقا، يعلم أنها تماطل، وتحلو له

اللعبة.

" فاجئني معرفتكِ بكمال مدير مكتبي، والغضب الذي على

محياكِ كان دافعا لي بأن أنهي أعمالي لأعلم ما الذي يحدث"

قالت غاضبة، مستدعية أفعاله الحالكة جميعها لذهنها

" كمال هذا عديم الانسانية، لقد شاهدته يضرب امرأة مسنة

في الدار ، لقد كنت أعمل تحت سطلته، وعندما واجهته قام

بضربي وطردي من العمل"

إستياء، توتر، نفس أعمق و أعمق من سيجارته، وصمت.

" تخيل معي.. أحدهم بهذا الحجم، يحمل عصا ويضرب إمرأة

تعاني الزهايمر، تعاني جحود من وضعها هناك، لا أحد

يطعمهم سواي، لا أحد يهتم بمواعيد دوائهم الا انا"

تراقب انفعالاته البسيطة التي تتردد على وجهه لتكمل

"تكالبت عليهم الأمراض والوحدة، شعور اللفظ المقيت

الذي يرافقهم طوال ساعات صحوهم، لقد وجدت علامة

على وجه أحد النزلاء لكني كذّبت عيني وقلت ربما سقط،

لكن بعد رؤيتي له وهو يضرب السيدة منيرة تأكدت من

ساديته المرضية"

تشنج جسده فور سماع إسم منيرة، تظاهر بالهدوء وداخله

يحترق، خفقات قلبه وصلت أوجها، قد يسقط الآن كما

الصباح ولكن من ارتفاع ضغطه لا انخفاضه هذه المرة.

شعور لم يحدد ماهيته اقتحمه..

هل هو سعيد مما يسمع..

أم غاضب..لقد أوكل أمرها إلى كمال ولم يدرك بأنها تُعذب

بهذا الشكل..يمسح على شعره بكفه يُخفي إنزعاجه

عنها...يسألها

" كيف يعمل مدير مكتبي ومدير لدار المسنين في آن واحد"

قالت وهي تحرك رأسها يمينا ويسارا

" هل تكذبني!"

أطفأ سيجارته ليمسك رأسه بكلتا يديه ليقول

" لقد إزداد الدوار من حكاياتكِ يا خلود"

قالت قلقة

" سأعد لك القهوة حالا"

غابت داخل الملحق، بينما غاب هو في أفكاره..

منيرة.. عمته..

لم يتبادل التفاصيل مع كمال بشأن سوء معاملة عمته في

الدار، الا أنه كان دوما ما يسأله عن ضرورة امتهانها..

لماذا الآن التفاصيل تنهكه..

يتذكر دروس السباحة التي لطالما ذهبت معه فيها..

تشجيعها الدائم له.. وحبها الامومي الذي غمرته به..

لا.. ليس هناك من أحبه كأمه..

عاد بذاكرته إلى الوراء..

كرسي وثير يعانق جسده الفتي.. يشكو المه النفسي لطبيبته

أمام والدته وبحضورها..

كان يقص للطبيبة ما حدث له ووالدته تبكي، بل تلفظ جمر

عينيها فى هيئة دموع مستعرة..

كثيرا ما كان ينهكها سؤاله عن سبب تغيره وانطواءه وهو

ابن الخامسة عشر..

والآن علمته..فباتت تحمل هما مضاعف..

شفاء ابنها، وكرهها لوالده..لم يقتصر الأمر على الإهانات،

أو الضرب، بل تعدى كل الخطوط الحمراء التي قد توضع

للتحذير من اقتراب النهاية..

وقد وصل مع ابنه إلى خط النهاية..

" تفضل"

ناولته كوب القهوة وقد بدا عليه التعب..

نسمة الهواء الحائرة التي هدأت من حرارة الجو .. كانت

سببا في التقاطها أنفاسها وهي تجلس أمامه..يحثها على

الحديث

" أكملي.."

تنحنحت وهي تبتسم في خجل

" في وقت لاحق، أنت متعب الآن"

إرتشف من قهوته يشير إليها بأن تكمل

" الإنسان السادي هو ما يستمتع بألم الآخرين ومعاناتهم..

لم تشاهد لذته وهو يضربني ويطردني من عملي.."

" من أين لكِ بهذا المصطلح الكبير"

" أنا أقرأ كثيرا، في المجال الطبي وغيره"

" لماذا لم تصبحي طبيبة بدلا من ممرضة"

نظرت إليه لأول مرة منذ جاءت للعمل هنا، ترى ذلك

الجانب الذي يخفيه تحت قناع التكبر والحدة

" إنه الفقر المدقع سيدي"

شيئا ما وخزه في صدره..تلك التي تعاني الفقر تكفل يتيم..

لقد أخبره السائق بمكان خروجها بعد مغادرته الأخيرة

للسفر..

لم تفكر في تغيير تقويم أسنانها أو شراء ملابس غير تلك التي

ترتديها دوما..وانما ذهبت لتكفل يتيم.

لا يستطيع نسيان ملامحها وهي تقتحم غرفته لتضع

ملابسه..

نظرة البلاهة التي تمكنت من وجهها..

جلوسها ونسيانها لما أتت..

ضحك دون قصد فعبست

" ما المضحك.."

أسبل جفنيه بتعب حقيقي

" لا شيء"

" أريد أن أخبرك شيئا لكني أشعر بالاحراج"

هو قليل الكلام، شديد التفرس، تشعر أمامه أنها بعين واحده

لا ترى ولا تفهم جيدا

" أنت تعلم بأن كمال هذا سيء؟"

حك ذقنه، يفكر قليلا ليمنحها إجابة فضفاضة

" كلنا سيئون يا خلود.."

بحيرة تطالع وجهه المتعب

" لماذا تتركه يعمل لديك!"

أجابها سريعا كي لا يتسلل الشك إلى أعماقها...

" ذكي، محنك، كاتم للاسرار وهذا ما يحتاجه عملي"

تلك اللهجة الخبيثة التي اجابها بها جعلتها تغلي وتتهكم

بداخلها..أي عمل هذا الذي يحوي أسرار يكتمها شخص

ككمال...ثارت تقف بحدة

" أنا اشعر بشيء مريب في هذه الفيلا.."

ضيق عينية بحذر يترك لها مساحة للحديث، ليعلم إلى أين

وصلت بتفكيرها..

" والدك وما حدث له، كمال هذا..قذر الافعال والأخلاق

.. و .. أن .. أنت"

ضغط على أسنانه بغيظ

" أنا ماذا يا خلود..؟"

" لماذا تؤذي نفسك!"

***

لقد رآها اليوم..لم يفته إنزعاجها من رؤيته، وظلام ملامحها

المشرقة التي تستفزه ..

"خلود".. كما تخلد في ذاكرته..

يرغب في امتلاكها..لا ينكر غضبه من رؤيتها له وهو يضرب

منيرة، لكن غضبه تهالك وهو يستمع إلى صرخاتها..

لكم تمنى وقتها أن ينالها وهي تصرخ طلبا لرحمته..

تُسكِّن خلجاته منتشيا وصرخاتها لا تنقطع عن رأسه..

نحول جسدها وضعف بنيتها يثير حواسه..

لولا وجودها في فيلا الرشيد لقام باختطافها عنوة من بيتها..

ليته ما أعطى هاتفها إلى طارق..

إبتسامة تزامنت مع تذكُره طارق..الذي أنهى أعماله سريعا،

يتبادل معه نظرات قلقة حول معرفة خلود له..

يتذكر عاليا التي انسلت من بين أعينهم لتغادر إلى غرفتها،

تجذبه الرقة لا ينكر ذلك.. لكن الصرخات تلهب جسده

وتشعل فتيل شهوته..والاسترضاء وطلب الرحمة هي نشوته

ولذته..

" ااه"

أطلق آهته بقوة .. يصبر .. ويصبر.. حتى ينال الصيد.

"أبي"

مناداة سلمى له عقب دخولها غرفته..جعلته ينحي افكاره

جانبا..

هي من يفعل لأجلها كل شيء، لا يريد لها حياة مبتورة

كحياته..

يتمنى عيشها الهانيء كعاليا وافضل..

إحتضنها بحب حقيقي ينشد الكمال فيها..

" أمركِ يا أميرة"

جلست جواره تحتضنه

" أرغب في السفر مع عاليا يومين في رحلة ينظمها النادي"

" لا بأس، لكِ هذا"

ضمت اصبعيها في إشارة إلى المال، فضحك ليقول

" الدرج امامكِ خذي ما شئتِ"

هبت بسعادة تقفز خلفه على السرير..

" بابا يا .. يا .. يا.. عيش"

أسقطها يقبل وجنتيها..

" هيا الى غرفتكِ، واتركيني أنام قليلا "

إلتمعت عينية بفكرة لم يكن يخطط لها..

إلا إنها قد تكون البداية...

***

" لماذا تؤذي نفسك"

هذه الجملة الخاطفة التي انتزعتها من ترددها في مواجهته،

لطالما رجحت كفة تجاهل الفضول الذي يبتلعها، لماذا الآن

تفصح عن وجوده بل وتخرج من بوتقته لتسأله..

الخوف والقلق الذي يتملكها كلما تقدمت خطوة في هذا

العالم المتسع ،المختلف عنها..

سؤالها أجفله..

غير متوقع..

وفي غير وقته..

ربما لو بصحة جيدة لاجابها بما تستحق من حشو أنفها في

أموره..

ولكن لا مانع من قرصة أذن بسيطة كي تلزم حدودها ولا

تتدخل في أمور قد تهلكهم جميعا..

بهدوء حذر أجابها

" أؤذي نفسي.. كيف!"

إرتشعت وكأنها تسير فوق زجاج مكسور..تخشى التقدم أو

الرجوع..

أشارت نحو صدره

" هذا الجرح.."

يحني رأسه قليلا ينظر إلى موضع إشارتها وكأنه يراه

ثم أشارت نحو كتفيه..

" وهنا علامات ملتهبة وكأنك تحرق نفسك"

أمسك كتفه وكأنه يداريه عن عينيها، ثم أعطاها ظهره لاعنا

اليوم الذي قبلها فيه، لتعمل لديه..

توصلت لمجموعة من الحقائق في وقت قصير لم يكن ليكتشفها

كمال بذكاءه وحدة طبعه..

خلل شعره بيديه وقد تشارك الدوار مع الصداع ليزداد الأمر

سوءا..أردفت

" إنه جرح سطحي وليس حادثا.."

تؤكد على غباءه في اختيارها

" وتلك اللسعات حديثة.."

كصوت مجموعات النحل قبل أن تهجم على فريستها كانت

كلماتها المتتالية..المتتابعة..

" هل تعاني شيئا ما سيدي!"

أمك رأسه صارخا بها..

" توقفي"

إستدار إليها يحدثها بوحشية وقد أظلمت ملامحه..

" إعلمي قدركِ هنا جيدا..، أنتِ ممرضة والدي..أنتِ هنا

لتهتمي بشؤونة وتؤجرين على ذلك أنتِ وجدكِ، لا تسألي

أسئلة لا شأن لكِ بها.."

إلتقط انفاسه المتسارعة ليكمل بغضب

" إهتمي بنفسكِ، وكيف تحافظين على مهنتكِ والا ستطردين

كما سابقتهم، ولا تنسِ بأنكِ منبوذة من كافة الأعمال

بسبب خطأكِ الطبي الذي أودى بحياة أحدهم"

كانت تعلم بأنه على دراية بكافة خباياها ربما منذ ولدت،

رجل بسطوته لم يكن ليغفل أمر ممرضة ستسكن بيته.

لكن كلماته آلمتها..ضعضعت ذلك الأمان الذي ظلت

تتلحف بين طياته منذ سنوات..

عيب أُلصق بها وظلت تجره خلفها منذ زمن..

ذنب أرهقها وقيد تطورها ونموها في نطاق عملها فبحثت عن

عمل ردئ لتضمن لقمة العيش كما فعلت في دار كمال..

أحنت رأسها أمامه في ذل وهي تعي جيدا بأن بيته هو نهاية

آمالها..

إنحنت كرامتها أمام كلماته اللاذعة..

من ظنت نفسها..محققة..هي من ستصلح الكون..

يكفيها شرفا بأنها لا تعلم حتى لا تحاسب على صمتها..

ألا يكفيها تحررها من ذنب السيدة منيرة بإخبار تلك

الصحفية التي كانت سببا في فضيحتها هي نفسها بإذاعة

قضيتها..

تنفست بعمق ، وحزن، و ألم..

ثم قالت باذعان

" أمرك.. سيدي"

***

يتلقف إهانات طارق وكلماته التي تحط من قدر حفيدته وهو

يلتصق بالجدار يشد ظهره عليه من هول ما سمع...

لابد وأن كلمات خلود عن أذاه لنفسه حقيقي وإلا لماذا

تحول في معاملتها الى هذا الحد...

يذلها بماضيها ملوحا لها بقدرته على طردها من فيلته بطرفة

أصبع..ورمشة عين...

إرتعشت قدماه لايستطيعان تحمله...

يرتعد وترتجف أوصاله...يخاف طارق وتهوره...وأيضا لا

يضمن رد فعل خلود فيما بعد ...إن تكرر ما حدث الآن

مجددا...

شعور الأمان الذي ملأ قلبه الايام الفائتة تبدد ليسكن قلبه

الخوف...يستشعر ضعفه أمام جبروت طارق الذي بإشارة من

يده ينمحي وحفيدته من الوجود...

لابد وأنهم تخطوا أسلاكا شائكة..كان لا يجب عليهم

تجاوزها...

وضعت خصيصا للمنع من الاقتراب .. وهم اجتازوها

وأوشكوا قطعها...

يتنفس بعمق...لابد من أخذ خطوة للوراء والنظر لموضع

قدمهم...بدون تجاوز في التفكير أو الأسئلة...

إستمع إلى خطواتها تدنو منه..

تتعجب إغلاقه للتلفاز...لقد كان يعمل حين دلفت لتحضر

القهوة لسيدها...كان في غرفتها يصلي كعادته...

"لماذا لم تخبريني بما شاهدتِه صباحا؟"

تسند ذقنها على كفها بعد أن عقدت إحدى ذراعيها

لتستند بالاخرى عليها ..لن تحتال عليه وتراوغه...

هي في حال لا يسمح لها بذلك ..

"لم يكن الأمر مهما"

لازال على رزانته..يكتم نيران صدره وعجزه..

"ومتى أصبح الأمر هام!"

تلتفت إليه بكلها مشدودة الجسد والأعصاب كالوتر

"عندما شاهدت كمال"

ودون أن يسألها تحدثت بانفعال

"مدير الدار التي كنت أعمل بها...يبدو أنك استمعت إلى

آخر الحديث..وليس أوله"

تمكن الحزن من صوته..خرج منتفضا كمن يبكي

"خلود، نحن أضعف ما نكون في مواجهة هؤلاء"

"لقد اختارني بذنبي يا جدي..ليس لأني ممرضة..وليس لاني

ماهرة في عملي..هو يريدني أن اتستر على حالة والده..

أنت لم تصدق كذبته عن اعداءه الذين قاموا بذلك"

بنبرة كسيرة قال

"لكنكِ صدقته!"

ضاق حاجبيها بوهن

"أجل، قبل رؤيتي لآثار تعذيبه لنفسه...وقبل رؤيتي لكمال"

قامت تعطيه ظهرها تسيطر على حالة التوهان التي

أصابتها...

"علينا تصديقه...لازالت ظنون نتناقلها يا ابنتي ..علينا

الإمتثال لأوامره"

إلتفتت اليه مندهشة، تقول منفعلة

"كيف أصدقه بعد ما قلته لك، بل كيف ستصدقه بعد ما

سمعت..هو يهددني يا جدي..هل يجب أن أكون عمياء

..خرساء..لما يقول ويفعل"

"أجل"

تتعجب من ضعفه..

"أنت من علمتني كيف أقف في وجه الظلم وادافع عن

المظلومين، أنت من رممت روحي وبعثت بها الأمل وجعلتني

أُقبل على الحياة من جديد، الآن تأمرني بأن أجبُن"

قام يتوسلها...

"لا..لم اقل لكِ كوني جبانة يا خلود .. إنما كوني كالعود

اللين الذي يعلم متى ينثني ومتى يشتد"

تتشرب كلماته كعادتها فيسقيها بالمزيد

"لابد وأن نضمن مكان آخر للعيش...لن نظل هنا طويلا

ربما يُشفى والده .. أو يموت... أين سنذهب ..علينا تأمين

مسكن آخر لنا...اتركي لي هذا الأمر..."

جذبها ليجلسها جواره

"لا تتحدثي إليه هكذا مجددا ... ليس بهذه النبره الندية

الهجومية...واحمدي الله بأننا حقا لا نعلم شيء .. وابقي

الأسرار في طيها .. لا تحاولي فكها يا خلود، لن نستطيع

مجابهته هو أو كمال هذا إن كانت ظنوننا حقيقية "

وعلى سيرة هذا المتوحش ضاق تنفسها...ولم يصبرها إلا أنها

لن تتركه إلا وهو بالسجن عقابا لتعذيبه العجائز....

تجيب بخزي

"حاضر يا جدي...سأفعل ما تقوله لي .."

يقبل رأسها بحنانه المعهود وخوفه المستجد مما يحدث

"إحذري لنفسكِ، لا تفتحي صدركِ لهم فيطعنوكي دون أن

يهتزوا لموتك ..."

"ما يثير غيظي هو عمل شخص ككمال لدى طارق..هل

هو السبب في عملي هنا...هل طردني من الدار ليطلبني

طارق..؟"

تمسك رأسها وقد حاوطتها الاسئلة لتصيبها بالدوار..

"ها قد عدنا من جديد..."

"لن أسأله...لكني لا استطيع بأن امنع نفسي عن التفكير

سأموت يا جدي...أشعر وكأني شريكة معهم...طارق يؤذي

نفسه..ما الذي يمنعه عن أذية والده...او عاليا..او نحن"

تترجاه بعينيها تلمس كتفه بيديها...

"لقد وعدتك بأني لن اواجهه...لكني لم أعدك بوأد خوفي

..."

طوت خوفها بين أضلعه تتحسس الأمان داخل أحضانه..

"أنا خائفة يا جدي"

تستمع لخفقاته الهادرة التي يخفيها عنه برزانة وجهه...

تستمع إلى خوفه دون أن يُخبرها...

لا يخاف على نفسه فلم يعد في العمر الكثير...وإنما يخاف

عليها...

يملس على حجابها يطمأنها..

"يعلم الله ما نحن فيه، يعلم نياتنا، سرنا وجهرنا، سيلطف بنا

يا خلود، توكلي على الله...حسبنا الله سيؤتينا من فضله"

تذرف دموع الخوف علي قميصه....مرمما روحها بكلماته

الواثقة بالله...

تردد بداخلها "يا رب"ملجأها وناصرها...

"يا رب"

***

يذرع غرفته بخطواته القوية كالليث الغاضب، لقد أخرجت

خلود اليوم جل غضبه الذي يحاول السيطرة عليه أمام

الآخرين...

عينيها الثاقبة اقتحمت غرفته وجسده وسجلت كالكاميرا

كافة عيوبه وسقطاته...

فأرة صغيرة بهذا الذكاء، لم يرتب لتعبه ولا تهور عاليا في طلبها...

يلعب القدر دوره دون تدخل منه أو تخطيط...لو كان بيده لما سقط صباحا، ولا كانت هي بغرفته مجددا...

لم يكن ينوي التحدث إليها هكذا..يكفي ما فعلته لأجله غير طامعة في زيادة عرضها عليها...

شعر بالامتنان نحو جدها لمساندته له...لكن هي من استفزته حتى قطعت أوتار الصبر الواهنة التي تمسك بها وهي تتوالى عليه بأسئلتها...

يكاد يجتث شعره من منابته وهو يحاول للمرة العاشرة الاتصال بهذا الغبي الذي سيتسبب في قتله

جاءه صوته الناعس

" سيد طارق..مرحبا"

باغته بثورة عارمة ...فلم يعد يملك المزيد من الصبر

" هل تقوم بتعذيب النزلاء في الدار؟ "

يهادن صياحه فيجيبه وهو يتغلب على نومه

" سيد طارق أنا أسير وفق اوامرك"

قال بحدة

" أنا لم أطلب منك إهانة أحدهم، طلبت منك التعامل مع

منيرة بالشكل الذي ترتضيه..لكنك تماديت معها ومع غيرها"

سبّ كمال في سره.. إنها خلود، لابد وانها لاحظت عليه

شيئا آخر..

" قم بنقل منيرة إلى الفيلا حيث القبو من الجهة الخلفية

صباحا، وتوقف عن سلوكك السادي تجاه النزلاء، وخذ

حذرك جيدا"

ثم أنهى الاتصال..

أخذ يضرب الوسائد بقوة، لقد علم طارق بأمره..

خلود اللعينة.. ستسقطين بين يدي يوما و أقسم بألا أرحمكِ.

يتساقط عرقه وهو يغلق هاتفه...فنادرا ما يصيح به طارق

على هذا النحو...يبدو أنه أخطأ عندما أدخلها بيديه فيلا

الرشيد...ليته اتى بها لتخدمه كما طالبه طارق باحضار

خادمة لديه...ما كانت لتتمنع...

يجلس ليفكر في الخروج من هذا المأزق اللعين..

ينتظر الصباح فما عاد لديه رغبة في النوم بعد أن أثارت

خلود غضب طارق وقلقلت منزلته عنده...

وعند إشراق الصباح كان قد نفذ ما أمره سيده به..

نقل منيرة الى الفيلا بهدوء حيث لا أحد.

وهاتفه ليخبره بأن كل شيء على ما يرام.

لم يمنع نفسه من إهانتها قليلا..

صفعة هنا.. ودفعة هناك وهو في طريقه إلى القبو، ولاصق

قوي فوق شفتيها أدماها وهو ينزعه عنها بقوة، صرختها

كانت لتوقظ أحدهم لولا الأبواب العازلة.

" تبا لكِ، أقمتِ الدنيا وأقعدتها أيتها العجوز..ألا يخلصنا الله

من وجهكِ القبيح"

كانت تنتفض، لا تعلم من هذا ولا أين هي..

قبو متعفن، بضوء أصفر يبعث الرعب في النفس، وعينين

تقبض الراحة تنظر إليها..

جلس أمامها يجذب شعرها بعنف..

" أنتِ..! ما الذي فعلته ليرميكِ ذويك بهذه الطريقة، هل

قتلتِ أحدهم يا امرأة.."

" أتممت مهمتك يا كمال أخرج من هنا.."

إنتصب جسده ليقف، تلك الكلمات تزامنت مع خروجِ

طارق من جزء مظلم في الغرفة..

لم يكن كعهده به..

القوة..الصلابة..التماسك..

بل كان ضعيف.. طارق الرشيد بهذا الضعف

أمامه..والسبب تلك المرأة..

" الآن"

لم يدعه يكرر كلمته وفي لمح البصر كان عدما..

وكأنه لم يكن منذ لحظات..

***

الفصل السادس

انا المأسورة بقضبان العوز ... اعافر نتوءات الزمن في

روحي ... و اكسر يدي قبل ان امدها طلبا لحاجة ..

اقصر عيني و اكتفي بملاءة من ستر تدفئني ... اتوق

لسماء براح اطلق فيها روحي ... يمامة بلا اجنحة

... ارتجي رضا من روح تشابكت بي ... اخاف

عليه برودة الفقد ... و اضوع قوتي ضعفا و ارسمه

سندا بعيونه كي لا يحزن   ....

انا مفتاح و لغز

انا السؤال و الاجابة

انا دائك و دواء سقمك ...

يا سيدي و انا مليكتك

خاطرة بقلم ثروت الزعبي

***

يقف امامها يصارع صخب افكاره وعقله الذي يكاد أن

يفقده..

يشعر بالحنين فيقترب..

وسيف الانتقام يغرس في قلبه ليبتعد..

" لماذا .. لماذا.. لماذا ..؟"

يخبط الطاولة أمامه بقبضته بقوة ..

ترتعد من وجه القاتم، العروق الرفيعة حول عينيه الرمادية

تخيفها..

" لماذا زوجته..ولماذا أخته..؟"

وبصوت خافت..ورأس منكسة

" لماذا أنتِ؟"

بكت بشدة وهي تقول

" أرجوك لا تقتلني، أنا لا أعلم من أنت ولا لماذا أنا هنا..؟"

مسحت الدماء عن شفتيها، والضوء الأصفر يشعرها بفزع

لعين..

يتقاذفها خوفها، تترنح به ومعه..

إحمرار عينيه ينذر بسقوط دموع..

قلق، حب، شفقة.

مزيج من المشاعر التي يتخبط بها منذ رآها على هذا الحال..

يعطيها ظهره يحاول التمسك بهدوء واهٍ..

" اااه"

همسَهُ يزيد من ارتعادها..

"ااااه"

صرخاته المتأوهة أصمت أذنيها لتشهق بالبكاء تتوسله

" أرجوك، أرجوك، أنا لم أفعل شيئا"

يمسح رأسه ودموعه..بكفيه مترنحا مما يعاني من إرهاق وقلة

نوم..

ومن أين يأتيه النوم مع ضجيج قلبه الذي يصُمُه عن النوم

والصحو..

المكان حانق بحرارة الجو ، وثورة انتقامه..

ملتهب بخفقات قلبها التي لا تتوقف بل تزداد..

تجلس أمامه تتوسله على شيء هي لا تعلمه، لقد محى المرض

أفكارها وماضيها ..

هي من تغافلت عما فعل زوجها به..

هي من ظلت تبحث عنه حتى علمت بوفاته وقد تزوج من

غيرها كي ينجب..

وهي من أخبرها بنفسه بما فعله والده وزوجها به..

ما الذي فعله البكاء له..!

ما الذي فعله لطم خديها لقلبه..!

يوم .. إثنان .. شهر..

وعندما علمت بغياب زوجها ، قاتلت كي تجده تاركة وصمته

التي لطخت جسده منهما..

لم تعي قدر مهانته و أمله النفسي مما حدث..

ولا قدر الألم الذي عاناه بعد فقد زوجها وهو لم يثأر منه

بعد..

لقد رحمه الموت منه..

ينظر الى يديها التي طالما هدهدته، و أطعمته، وسندته في

سقطاته..

عينيها الرمادية التي ورثها عنها أيضا..

شفتيها المرتجفة التي طالما زرعت به ثقته بنفسه..

جثى على ركبتيه أمامها.. يضع رأسه على صدرها..

يلتمس دفء حرم منه بارادته..

يبكي .. ينتفض..

ثائرا..متأثرا..بقربها..

يجمح برد فعله غير آبه بما حدث، أو سيحدث وهي هنا

بقربه..

لطالما ابتعد..بل ركض بعيدا عنها يعاني تناقضه بين حبها

وغضبه..

ترتعش من فعلته..

خوفها يمنعها عن التجاوب مع ترددات وجهه الحزينة

المقبضة، هي لا تعلم هل هو مريض، هل تعرفه..؟

تجهل كل شيء حولها..

" ضميني"

صوته الباكي المتزامن مع يقينها بقدرته على أذيتها جعلاها

تفعل..

دفء استشرى في أوصاله..ما إن سكنت ذراعيها على كتفه..

يمسح وجنته في ملابسها الرديئة..

يمسك كفها.. يغمض عينيه..ويبكي..

يمزقه شوقه لتلك الضمات الحانية، واللمسات الدافئة التي حُرم منها، ينهره البرد في كل خلجاته...

ينتفض من الجفاء والقسوة التي غلفت كيانه..مبتعدا عن كل ما يذكره بانسانيته..

يغرق وجهه بين حنايا صدرها..يشتم الأمان..

يستجدي الدلال..منتشيا..

لا يهم أن تذكُره..المهم أن يحظى بالقليل مما فقده منذ سنوات..

لحظات مرت وهو على هذا الوضع..

غفت فسقطت يديها عنه..

إبتعد يتفرسها..

العين المغلقة والشفاة المتدلية، وارتخاء جسدها..

كيف ومتى وصلت الى هذا الحال..

يبكيها ويرثو ذاته..

يلمس يديها اللينة التي التحمت به يوما تقيه سقطة قد

تجرحه، ذراعها الذي توسده يوما تغني له كي ينام..

كان يزورها كثيرا...يبيت لياليه معها..ينعم بفراغها ..

ويتملك جميع أوقاتها...

لحظات الأمان التي استرقها من ضيق فيلته بما تحويها من

إهانات وتمزيق لطفولته...

يهرب إلى النعيم حيث لا تطاله يد والده المغيبة عن العطاء والحب...

ينزع حجابها فيطال قلبه الصقيع...ببياض شعرها...

طمَسها الزمن و انتهك شبابها فلم يعد له من الماضي سوى رفات...

"ستفوز في تلك البطولة يا طارق...لقد تمرنت كثيرا..لا تخذلني أرجوك"

كانت كلماتها فور عودته إليها من الفيلا بكدمة تعلو وجنته...وعندما سألته أجابها بانه اصطدم بالحائط "وليس والده من قذفه نحوه"

تذبذب في أفعاله وتراجع في أنشطته...جعلتها تسرف في التربيت على قلبه دون أن ترجئ ما يحدث له إلى خشونه

أبيه...

"سأفعل لأجلكِ عمتي"

وفاز بالبطولة لأجلها...

ما أجمل أن تنال إيمان احدهم بك...يمنحك بدون

مقابل...لا ينتظر سوى نجاحك وسعادتك...

قوتك سعادته

نموك بهجته

نجاحك نشوته...

وقد كانت هي...

يترك كفها وحجابها...متهالك من ذكريات كسبائك الذهب

غالية...لكنه استبدلها بألسنة النيران المشتعلة الحارقة...

يلملم أشلاءه، يمسح دموعه بكفه بقوة..

يرتب هيئته..

ليغادر

***

"أرسلي لي تقريره اليومي كي يراه الطبيب"

كانت رسالته التي رأتها فور استيقاظها، لم يحصل لقاء مباشر

بينهم منذ هددها و زجرها..

لم تقترب منه أو تسأل عنه، أو تطمئن على صحته..

فمن هم مثله ليسوا بحاجة إلى إهتمام أو شفقة..

في اليوم التالي لحضور كمال، وجدت عاليا تقترب منها

تعطيها هاتفها القديم

" أخبرني طارق بأن أهاديكِ به"

هل يشتري صمتها بهديته..ألا يكفيه وعيده لها..!

وكان يوما طويلا كي تتعلم كيف تتعامل معه.. بعضا من

نصائح عاليا–التي أهلكتها سخرية من جهلها في التكيف مع

الهاتف– وبعضا من تجربتها، إلى أن ألفته جيدا..

دلفت إلى غرفة والده تستعد لعملها..كي ترسل إليه التقرير

المطلوب، لذلك الطبيب الذي لم تراه يوما...

وتساؤل مقيت يشتت تركيزها..

" لماذا تقدم له العناية هنا عوضا عن غرفة العناية الفائقة

بمشفى"

هناك أجهزة لا يمكن توافرها في المنزل..

"ولماذا عودة والده للمنزل أمر غاية في السرية..كما أخبرتها

مديرة المنزل"

لولا الدواء الذي تعطيه للرجل بيديها، ومتابعتها الدورية له

وتلك التقارير ..

لظنت بأنه لا طبيب من الاساس .. وإنما يرغب طارق في

موت والده ليرث كل شيء..

حقنت الدواء في المحلول المتصل بجسده..

تحدث نفسها..

" لا لا ، هو ليس بهذا السوء..من قد يتسبب في مقتل والده

الذي لا يملك غيره بعد موت والدته"

سمعت همهمات خلفها..

إلتفتت الى جدها الذي لم تشعر بدخوله، تبتسم ، تقترب

لتقبل وجنتيه..

" لم تحضري لي الفطور"

" آسفة، لقد إستيقظت على رسالة من طارق تخص العمل"

" هكذا .. طارق بدون ألقاب"

تمسك هاتفها تكتب له رسالة

" لا تذكرني يا جدي به، فأنا لا أطيق هذا الرجل.."

تناول المناشف وهم بتجهيزها..ليقوم بتنظيف والد طارق

" أنتِ من حشرتِ أنفكِ في أموره"

إنتهت من إرسال الرسالة الدورية له..

ساعدت جدها في تعطير المناشف، وترتيب ملابس الرجل..

لا زالت حانقة عليه، التساؤلات لا تكاد أن تتوقف في

عقلها..منذ وعدت جدها بالصمت وهي تؤدي عملها

بصمت مطبق.

ولا تتحدث إليه كي لا تشغل باله وتقلقه عليها، يكفي ما

يحمله قلبه من خوف مستتر يخفيه عنها..

" لا أعلم لماذا لا يسمونه طارق البليد أو العربيد"

" تحكمي في غيظكِ قليلا يا خلود"

وكأنه يدافع عنه بعد ما حدث..تحدثت باندفاع

" أنت لم ترَ زجاجات الخمر في غرفته ياجدي، هو عربيد، أنا

أقول الحقيقة"

ترك ما بيده ليقول بحدة

" أنا لم أرها، هل دخلتِ غرفته من قبل يا خلود؟"

تلجلجت وهو تقول

" لقد ذهبت لأضع ملابسه في غرفته، لقد كان مسافرا

يا جدي"

إحمر وجهه ليقول بغيظ

" لا وهو موجود ولا وهو مسافر، لا تصعدي نحو الغرف

مجددا، عملكِ هنا، وحدودكِ هنا، الملحق والمطبخ فقط"

أومأت برأسها وقالت في خجل

" حاضر"

أعطاها ظهره غاضبا، يكمل مهمته، فكتفت خصره

" لا تغضب مني، أعدك بألا اكررها"

ثم لفته إليها تداعبه

" أنت لم ترَ إنتفاخ فتحتي أنفه وهو غاضب، وكأنه سيبتلعني بهما، لو تشعر بكم اختناقي وهو يقف معي لأمرتني بخنقه لا عدم الصعود إلى غرفته"

يمسك أنفه وهو يشاهد محادثتها وجدها عنه عبر حاسوبه المحمول..

يرصد أنفاس والده بكاميرا تمسح المكان بأكمله..

لقد نطقت أسمه مجردا تلك الحمقاء بل وتسخر من أنفه..

ألا يكفيها اثارة غضبه في آخر مرة التقاها..

لماذا لا تخرجه من رأسها وكفى..

أرسل إليها رسالة على تطبيق الواتس يراها تفتحها

" مخصوم من راتبكِ هذا الشهر.(..)بسبب نسيانكِ قياس

الضغط لوالدي، والسكر، والعبث مع أنفي، هي ليست

أكبر من أنف جدكِ بالمناسبة"

يشاهد إلتفاتاتها المثيرة للشفقة، تبحث عن موضع الكاميرا

الى أن رأتها، تجز على أسنانها بغضب..

تنظر إليه عبرها بغضب وحاجبان معقودان..

يرى تحرك شفتيها، ربما تسبه هامسة..

يستمتع بما يفعل، فهي تستحق بعد أن أزالت الالقاب..

وقصت على جدها ما حدث بينهم..

***

" كيف حالكِ يا عاليا"

صوته الخشن داعبها وهي ترقد على بطنها تنتظر مكالمته..

لقد توغل إلى عقلها وانساب بين عروقها ، داعما لها، متفرغا لتفاهة عقلها..

عاليا لا ينقصها هدايا، أو نزهات، ولا ينقصها رفاهية..

بل ينقصها الإستماع..

أن تُفضي بمشاعرها الوليدة لأحدهم، و أن تقابل هذه المشاعر بتوافق واهتمام..

وهو خير من يفعل، يفرّغ لها يومه بالكامل، وإن كان في عمله يختلس اللحظات ليحدثها برسالة كتابية، أو مكالمة مرئية، يجعلها تطمئن عليه وعلى شركتها و أموالها..

" هل نمتِ جيدا؟"

وبصوت لم يستفيق بعد أجابته

" نعم"

" هل دونتي أفكاركِ في المفكرة التي أعطيتها إياكِ؟"

همهمة مؤكدة صدرت عنها..

" ما رأيكِ في القدوم إلى سلمى اليوم، لنلعب الورق، تلك

اللعبة التي علمكِ إياها العجوز"

ضحكت وقالت

" سآتي ليلا، واستعد للخسارة يا سيد كمال"

يعجبه ذكائها في التعامل معه، قام بإزالة كافة الحواجز

بينهما، بالحديث..

الكثير من الأحاديث ..

يشاغلها فلا يتركها للحظة واحدة..

يرسل لها صوره وهو في البحر يسبح، وضوء الشمس يتلألأ

على جسده فيبرز عضلاته...وشعره الاسود المبتل الذي

يلامس جبينه يسحرها بجنون

صور له ولسلمى يحملها ويحتضنها..فيثير عاطفتها

وغيرتها...ليتها مكان سلمى تنعم بدفء احضانه...

وهي في المقابل تمنحه وقتها، واهتمامها، وتعلم جيدا وقت

دلالها عليه جيدا..

" أنا من سينكل بكِ خسارة يا عاليا"

كانت كلماته على قدر سخريتها، في حقيقتها وعيد لها..

وعند غروب الشمش وتشبث الليل بخيوطه، عم الظلام،

وتبدلت الأجواء، وتلطف الجو بهواء غاضب بعثر ثوبها

القصير، وهي في طريقها إلى المصعد..

فتح لها.. ملابس بيتية مريحة..

عطر قوي لا ينمحي بسهولة من الذاكرة..

طاولة متوسطة الحجم..وضعت خصيصا للعب..

ترتدي بنطال أسود صيفي ضيق..بلوزة عارية الكتفين..

وضعت حقيبتها الأنيقة أمامها..لتجلس على مقربة منه..

" أين سلمى؟"

" ستوافينا في الحال"

أمسك بالورق يرتبه إلى أن حضرت سلمى مرحبة بها..

جلست وبدأ اللعب..

مر الوقت، بدت مستمتعة وهو أيضا...بينما سلمى ملت

التكرار..تشاغلت بهاتفها يجذبها الحديث إلى إحداهن،

تواعدها للخروجِ...تقف وهي تكتب إلى من تحدثها بينما

تتبعثر حروفها قائلة بلا إهتمام

" أنا في غرفتي يا عاليا لقد مللت هذه اللعبة.. "

وذهبت.

" وأنا أيضا مللت، ما رأيك بلعبة جديدة"

ومن لعبة العجوز البريئة، الى لعبة القمار السامة.

تعددت الأدوار وتعالت القيمة، وخسر ما يملك حتي قال لها

بلؤم

" يكفيني خسارة اليوم"

وبحماس أجابت

" لالالا، إنها ممتعة ، هيا لنكمل"

أمسك يديها يدير اللعبة للعبة أخرى بطفولتها..

يلامس كتفيها العاريين

" ما هذا الجمال، كبرت الصغيرة وأصبحت فاتنة"

تتخدر من لمساته

" كمال.."

ألا يصح بأن يضغط قليلا، تصرخ قليلا بدلا من ذاك

الهمس..

لا توقفه بل تستزيد، تنظر إلى عينيه السوداء بوله ، فقد

أعطاها الكثير في تلك الفترة الفائتة،الحنان والإهتمام،

والأبوة..

مالت له بكل كيانها..

عمره المتقارب من أخيها، وعمرها المتقارب من ابنته جعلت

حنكته في التعامل معها كشاب و أب في آن واحد ...

خبثه ولؤمه...مكنوه من اللعب على أوتارها الضعيفة..

يدغدغ مشاعرها ويحنو ويحسم..بحنكة ..

طفلة تجرب مشاعر قد شاهدتها لتشعر بها..

مشاهد وصفتها بالرومانسية و أرادت لو تتذوقها..

مال نحوها..يقترب منها..

مغيبة فيلتقط شفتيها بقسوة.. لم تشعر الا ومذاق الدماء

بفمها..

يبتعد من تهوره..

تبتلع ريقها بقوة، وقد ظنته الحب..

لقد فقد سيطرته و أدمى شفتيها.. اللعنة على طباعه

يستدير عنها...

لامست ذراعاها ظهره..تتوسله بعتاب

" كمال، هل تحبني؟"

إستغل قربها مجددا وقد أتت إليه بطيب خاطرها..إلتفت

تحتويها ذراعه المتلونة بعشق مزيف

" كما لم أحب أحد من قبل"

إحتضنها بقوة، وقد هاجت رغبته السادية بها...

والدماء تعلو شفتيها..

يضغط على أسنانه.. أين ومتى، وابنته في الغرفة المقابلة..

لا بأس من الصبر..فهو دأب الفائزين..

***

"كأس آخر.."

يدفع طارق الخمر الى فم أبيه يحشوه حشوا، يعاني أمراضا

بالكبد لكنه لايهتم، فليذهب إلى الجحيم..

الألم الذي عانى منه يزول مع زوال عقله، فلا يترفق به طارق

ليلهب جسده من جديد بذاك السوط القاسي..حتى وهو

في لحظات سكره..

ينتشي، يستلذ، ويتمتع..

تذكره تلك الصرخات بصرخاته هو .. وهو بين يديه هو

وزوج أخته..

يجردانه من ثيابه..

يعبثان به.. حتى تخضب بالدماء ..ينتهكان سنوات عمره

الفتية، واحساسا جديدا برجولته قاما بكسره، ووأده قبل

البداية..

لقد إمتنع لفترة طويلة عن أذية نفسه بعد متابعة لا بأس بها

عند طبيبته النفسية بصحبة والدته..

لكن ما فعله والده بوالدته كانت القشة التي قصمت ظهره..

" طارق.. طارق.."

صوت يتسرب إلى أنسجة عقله يحثه على الاستيقاظ، إلا أنه

يأبى..

إنها متعته الوحيدة التي تصبره على الحياة..

لقد هرب منه الجميع ولم يتبقَ له سوى الاحلام ليتخدر بها..

ممن يطلب حقه..

من يرد له مظلمته..

يتصبب عرقا..يختض صدره منتفضا مع آخر وخزة من

يديها..

تدفعه في صدره وهي تراه ينتفض في نومه..

إستيقظ يدفع الماء عن وجهه ..تطالعه بعينيها..

يرجع إلى الوراء يستند إلى وسائده..

تجلس أمامه..معقودة الحاجبين ، قلقة

"هل أنت بخير!"

يلهث بأنفاسه، يطمئنها

" أجل.."

" أريد الذهاب إلى رحلة مع سلمى..نظمها النادي وتحدد

موعدها أخيرا.."

لمعة الحماسة ترقرقت في بؤبؤها تاركة ضوء ساطع ببنيتها

الرائقة، تدنو منه تتدلل بطفوليتها..

"أريد المال يا طارق، أود شراء مستلزمات للرحلة،

وملابس..و أحذية رياضية لأتمكن من الركض.."

ثم صمتت تلتقط أنفاسها مفكرة..

" هل يمكن أن أصطحب خلود معي؟"

إسمها وحده أثار حنقه.. لا ينكر أنها تسلي عالية وقت

وجودها في الفيلا هي وجدها.. لكنه لا يريد المزيد من

التداخل معها..وزيادة فضولها نحوه.

أعطاها بطاقته ..

" إشتري ما يلزمكِ ، وأعلمي..إن خالفتِ أوامري، لن أكرر

موافقتي على سفركِ"

قبلت وجنته، تختطف منه البطاقة..

تسرع إلى الخارج..شغوفة بتلك الرحلة التي سيسافر معهم

فيها ..كمال.

تنفس بعمق...يلتقط هاتفه ليجري مكالمة عاجلة

" لا تغيب عن عينك ولو للحظات..تسير خلفها و أريد

تقرير عن جميع تحركاتها..واستعد للرحيل معها ستسافر بعد

غد في رحلة نظمها النادي"

صمت يتلقى رد محدثه ليجيب

" لا، ستتبعها إلى هناك، هي ستسافر مع باقي الأعضاء

..انتبه إليها جيدا..."

أنهى المكالمة...

واستلقى مجددا..يعبث بهاتفه .. يتابع ما حدث في الفيلا

أثناء غفوته..

وبدأ بغرفة والده التي تسكنها كثيرا هذه الايام..

يبتسم من فعلها..

تقوم بحقن المحلول المغذي وهي تنظر إلى الكاميرا..

تدون كل شيء وتقربه من الكاميرا ليراه، وكأنها سلمته

التقارير هكذا.. تتحاشى مقابلته ولا تلقاه ولو مصادفة..

ويبدو أنها أخبرت جدها فبات يرتعش وهو يبدل ثياب والده والعناية به..

ليته ما كشف سره الصغير لها..

لكن سخريتها من أنفه.. أخرجته عن صمته..

***

تمشي جوار عاليا على إستحياء، لم تدخل هذه الأماكن ولم تشاهد فخامتها إلا على التلفاز، متجر كبير، ملابس و أحذية، لا تختلف كثيرا عن غرفة أخيها وربما غرفتها فهي لم ترها ولن تفعل بعد أن وعدت جدها بعدم الصعود إلى هناك..

أضواء ساطعة يزغلل بريقها عينيها..

ضوضاء محببة من علية القوم بأناقتهم..

لا أحد ينظر إليها وكأنها غير موجودة وهذا ما أراحها..

" ما هو الحب يا خلود ..؟"

أسقطتها عاليا من برج أفكارها المرتفع المسحور، إلى واقع

مرير..

طفلة لم تتجاوز الاثنى عشر عاما تتحدث عن الحب..

نظرت لها باهتمام لتقول بتعجب

" لازلتِ صغيرة على هذه الكلمات يا عاليا"

ضحكت عاليا من سذاجتها..

" سأتم عامي الثالث عشر الشهر المقبل يا خلود"

"هكذا إقتنعت اذا"

ضحكت بشدة من تفكير تلك الصغيرة، لكنها أجابت

" الحب هو الأمان يا عاليا، ألا تفلتيه.. وألا يفلتكِ ..تحلمان

سويا، تدعمان بعضكما البعض..الحب يعني الخوف.. أن

يخاف عليكِ ويحميكِ ويحافظ عليكِ من نفسه، أن يُسخر

الكون لأجلكِ، ويطوِع الحديد كي يسعدكِ"

توقفت عاليا وهي تستشعر كلماتها، كل ما تتحدث عنه

خلود يملكه كمال..

لا مانع في أن تعترف الآن بحبه..

أكملت خلود طريقها لتتتبعها عاليا، فتكمل خلود

" أن تشتاقي له، ألا تمضي اللحظات الا وهو يحدثكِ..،

ألا يمسكِ وتكوني غالية في نظره"

كمال يتحدث إليها طوال الوقت.. لكن.. يمسها.. بل

يتمادى في لمسها..

كانت تشاهد المحلات وهي شاردة.. تفكر في كلمات

خلود..

" عاليا، أنظري هذا"

أشارت إلى حذاء ناعم يلامس الارض..

" هذا سيكون عمليا على البحر، هيا لنبتاعه"

ومن متجر لآخر .. إنتهى يوما عامر بالنصائح..مليء

بالحقائب..

وقبل المغادرة، تعثرت عاليا في أحدهم وكادت أن تُسقِط ما

يحمله فاعتذرت بسرعة..الى أن رأت وجهه..

" مرحبا يا دكتور"

كانت خلود تسبقها بعدة خطوات، وعندما تأخرت عنها

التفتت لها لتجدها تقف ..مع ..مع آخر شخص قد تتوقع

رؤيته..

بعد أن أنهت عاليا حديثها مع الطبيب لحقت بخلود التي

سألتها

" من هذا؟"

" إنه الطبيب المسؤول عن حالة أبي"

وطوال طريق العودة .. وعاليا تفكر في لمس كمال

لجسدها...

بينما خلود تفكر، لماذا هذا الرجل بالذات .. يكون المسؤول

عن حالة والد عاليا، هو طبيب ماهر تشهد بذلك..

لكنها لا تنسى ما فعلته أخته بها....

و إصرارها على إرتكابها الخطأ الطبي ..

نفت أخته الجريمة عنها..لتلصقها بها..فهي الأضعف..

وكعادتنا في المقارنة ..ستكون النتيجة هي

" الهلاك للأضعف"

***

بعد سفر عاليا فرغت الفيلا من صخبها الدائم..

لم تكن تسأل عن والدها أو تزوره وكذلك طارق، لكن ما شفع له هو مراقبة غرفته طوال الوقت..بينما عاليا صخبها بعيدا عنه بشقاوتها التي تستفز الجميع.

تريد أن تعرف هل كاميرا الملحق تم اصلاحها ام ماذا..باتت تشعر بالأرق في نومها وتنام بحجابها خشية أن تكون هنا أو هناك..

وفي موعد دواء والده..

فور انتهائها..

نظرت إلى الكاميرا تتحدث إليه..

" هل هناك كاميرا في الملحق؟"

ثم أخفضت بصرها بخجل..، لا تعلم كيف ستحصل على

إجابة لكنها شعرت بالراحة بعد سؤالها..

وبعد الغروب..

وهواء الحديقة الصاخب الذي يثلج النفس بعد حرارة قاتلة..

تجلس جوار جدها.. الذي يتحدث إليها بضيق

" لقد حذرتها من تلك اللعبة يا خلود، هو القمار بعينه..،

ليتني ما علمتها إياها"

كانت تفكر بعمق تعطيه جل إهتمامها..

"لم يكن من الصواب أن تعلمها هذه اللعبة ياجدي، هي

جيل الايباد والحواسيب المحمولة..والمال المعبأ في بطاقات

الائتمان، وأنت تعلمها الكوتشينة"

" هي أخبرتني هذا أيضا"

" من علمها تلك اللعبة بهذا الخبث، إن كانت لم تكن

تعلمها من الأساس"

همهم الجد يهز رأسه بالنفي

" لا أعلم يابنتي"

تسلمت رسالة من طارق يدعوها إلى مكتبه بالفيلا ،

إستأذنت جدها الذي قال

" لا تغلقي الباب عليكما، وتوخي الحذر"

" الفيلا مليئة بالخدم ياعجوزي الغيور، وهل تظن بأن طارق،

العظيم، سينظر إلى خلود المسكينة"

" لم تعرفي نفوس البشر بعد يا خلود، إحذري وفقط"

هزت رأسها توافقه .. لتتوجه نحو الفيلا..

***

يضع يده فوق فمه في محاولة لكتم ضحكاته، لقد دخلت

الغرفة وترفض إغلاق بابها..

" إغلقي باب الغرفة يا خلود ، أود التحدث اليكِ"

ذهبت ناحية الباب، واربته..لتعود وقد إنفلتت ضحكاته

رغما عنه..

يقوم ليفتح الباب على مصراعية..

يسخر منها.. أجل، هي تعلم بأنه يسخر منها، فمن هي

لينظر إليها حقا،إستاءت من الفكرة.. ولماذا تريد نظره أو

أذنه..

لا.. بل أنفه..

ضحكت هي الأخرى..

كلا منهما يضحك على أفكاره..

تلاقت عيناه معها.. نظرة طويلة لا يعرف كيف يوصفها..

لقد إستدار قوامها.. ترتدي فستان أزرق.. يبدو جديدا، إنها

عاليا .. لقد أفلست بطاقة الائتمان، فعبئها من جديد..

" هيئة رائعة"

" إنها عاليا، أصرت على شراءه، لقد أهدتني إياه"

كان جوابها خجولا لملاحظته..

عيناه الثاقبة تتفرس بها على غير عادته معها..

مزاق رائق، بدأ مقابلته بالضحك، تخشى النهاية..التي ربما

تكون بالطرد كنهاية كل حديث معه..

" الملحق غير مراقب.. غرفتي وغرفة والدي.. غرفة

الاستقبال، عدا ذلك لا يوجد كاميرات"

تنفست براحة، ستصدقه..فهو لم يكذب عليها حتى الآن.

أشارت نحو أنفها لتقول بندم

" آسفة بشأن .."

إحمرار وجنتيها أنبأه بارتباكها، يستمتع بإستفزازها..

"وعلى ماذا أيضا؟"

يذكرها باستماعه إلى كلماتها جميعها

" وبشأن حشر أنفي مجددا، و إفشاء أسرارك"

جلس على كرسي أمام مكتبه، يدعوها للجلوس أمامه..

" لقد أخبرتني مديرة المنزل بأنك لا تراقب الغرف"

حك عنقه

" ليس كل الأمور تذاع، الخدم لا يعلموا كل شيء.."

" وهل هناك أسرار أخرى؟"

تجاهل فضولها المعتاد ليسألها..

" فيم تحدثت معكِ عاليا أثناء تسوقكم.."

إرتعدت ركبتيها، ها هو يهلكها بمهام جديدة، قد تفقدها

حبها الخالص لعاليا

" هل ترغب في افشائي لاسرارها، أبدا لن أفعل"

قال بهدوء، وهو يستدير ليعود إلى كرسيه ذو السلطة،

ليرتدي هالة سطوته من جديد

" حسنا، لقد نجحتِ في الاختبار"

هكذا، بسهولة، يرفعها ثم يُسقطها..يتلاعب بها..

لكن شعورا بالمسؤلية حثها على مصارحته

"عاليا تُقامر"

إلتفت اليها، يحاول السيطرة على صدمته يدعوها لتكمل

" جاءت إلى جدي تطلب منه اللعب معها، وعندما بدأوا

كعادتهم، وجدها تلعب لعبة من يقامر على المال، فنهرها

جدي و أخبرها بأن اللعب على المال لا يجوز"

مسح شفتيه بكفه ملتمسا الهدوء، ومن أين يأتي به وقد

هاجت أفكاره..

" من علمها؟"

" لا نعلم.. لم تخبر أحد.."

هي تأتمن الجد وخلود على أسرارها التي تخشى بأن يعلمها..

إذا لتكن خلود..حاول صياغة كلماته بحنكة يفتقدها معها..

" أعلم بأن ما سأطلبه الآن ليس من حقي، ويمكنكِ الرفض،

هو ليس بعمل، ولن أعطيكِ أجره، لكن.. هو طلب يخص

عاليا.."

رأى ملامح التركيز والاهتمام تكسو وجهها فأكمل

" هي صغيرة، مراهقة، قد يستميل أحدهم رأسها.. أنا أراقبها

طوال الوقت على قدر استطاعتي وأفرض عليها حمايتي، لكن

هناك أمور لا يمكنني الوصول إليها"

وبإقتضاب أنهى كلماته يرجوها خفية

" أرجو أن تهتمي بها"

لم تتوانَ عن فعل ما يريد، فلقد استدر عطفها، وعلم جيدا

كيف يصل إليها..

هي كانت ستفعل على كل حال..وكانت لتنصحها بما يمليه

عليها ضميرها..

" لقد سألتني بالأمس عن الحب"

لقد هوت على رأسه الآن بمطرقة ثقيلة، كان يعلم بأنها

كبرت، لكن .. ليس إلى هذا الحد..

هو نفسه، بعد مرور ثلاثين عاما على وجوده البائس في هذه

الحياة لم يسأل عن معنى الحب، أو تذوقه...

" وبماذا أجبتها!"

***

الفصل السابع

***

أصمد وأصمد وأعلم أنى بالنهاية سأفشل ..وعلى عتبات

الرحيل متاهة منها أعود لأرحل.... وبين الوعيد وطيب

الكلام أقاوم قلبى وبالمثل يفعل ....وأنى خلال المقاومة

سأضعف...وبين فصول الخزي سأُقتل

خاطرة بقلم شوشو حكايات فريدة

***

" وبماذا أجبتها"

تغض طرفها عنه، تنظر نحو الباب تنشد المغادرة..

هل يصح بأن تتحدث إليه عن الحب..!

حثها على الكلام

" خلود، أنا أسألكِ"

لا بأس من فلسفة الأمر فهي لن تخبره بالأمان والحنان

واللمس وما إلى ذلك..

لتكن معه أكثر تحديدا..

حاولت صياغة كلمات.. خجلت..

خفقات قلبها المتسارعة خوفا، وترقبا عقدت لسانها

و ألجمت أفكارها..

" لقد أعطيتها ما فيه النصيب"

رفع حاجبيه بمرح خفي..

خلود تخجل..

هذه نهاية العالم إذا..

أين كان خجلها وهي تقاتل كمال كما أخبرته..يوم عذّب عمته...!

ووقت واجهته بحقيقته يوم سقط متعريا لأفكاره وجسده أمامها..يوم تعبه..!

ينظر إليها بلا رحمة، ينتظر كلماتها التي قد تطمئنه، أو تقلقه على أخته..التي احتار في كيفية حمايتها..

هي كالعود من شجرة مائلة..تتفتح ولا تعي اتجاهاً سوياً تسلكه..

يؤنب نفسه، ويجلد ذاته..

ربما هو مقصر معها..ليته يستطيع منحها المزيد مما لا يملكه..

تفرك كفيها، ترفع نظرها إليه...

ليلتقيا في نقطة كقطرة الماء النديّ وسط البحر العذب مخلفة

دوامات تهز الكيان والروح..هو شارد..هي خائفة..

هو ينتظر..وهي مجحفة..أسيرة حيائها..

علقا سويا في نقطة ال ..المنتصف...لاعودة..لا رجوع

ترك عينيها لوهلة..يتذكر عمته..لماذا هي بالذات التي

خطرت على باله في ذات اللحظة!

عاد حاجبيه إلى جديتهما، تهتز حدقتيه، عمته التي يسجنها

خلسة في قبوه..

لا يعرف كيف يتعامل معها..

يحضر لها الطعام ..يراقبها..مشتت بين مشاعره.

بينما هو أفلت عينيها..هي لم تفعل..تراقب عقدة حاجبه

التي سرعان ما عادت لطبيعتها الحادة..

حيرة وجهه..هو..يتألم...

أو حائر في شيء ما..لابد و أن عاليا تشغل كل تفكيره..

لقد أقلقته بكلامها..

توقف عن التفكير ليعود إلى التي تلتهم وجهه، ربما يشغلها

سؤال ستقذفه به!

قطع تلك الحالة-مجتمعان وشاردان كلا منهم في الاخر-

بسؤال مكرر، هادىء

" أنا أسألكِ بماذا اجبتها يا خلود، وليس ماذا أعطيتها"

هدوءه ما حثها على الكلام، في محاولة منها لتخليصه من قيد

التوتر

" بأنه الأمان"

صمتت فقال

" و.."

" حنان"

" و.."

تصببت عرقا.. واحمرت خجلا ، لماذا يحرص على زيادة

خوفها وخجلها..!

فليتوقف الآن .. وإلا سقطت أمامه بحيائها..تباً، لقد

اجابته..!

إرتفاع في طبقة صوته، تحشرج نبراته

" أريد إجابة نموذجية محددة آنستي كي أقيم مستواكِ في

التعامل معها"

حسمت أمرها لتنهي هذا النزال الحارق المتردد

" بأن من سيحبها سيصونها ويحميها وتشعر معه بالأمان"

صمتَ.. إليه نظرت..

أغمض عينيه يقاوم الصراخ بوجهها..

تنظر إليه وتتنفس في إنتظار صرخته..

" حسنا، هي طفلة واستخدمت كلمات تناسب سنها، لن

أتفلسف عليها واخبرها بأن الحب هو " تسارع في النبضات،

تخبط في التصرفات، توقف للعقل، وانصياع للرغبات" "

استحسن قولها بايماءة رأسه، فنالت القوة التي أمدتها بالمزيد

من الكلمات فأردفت

" لازالت صغيرة على تلك الكلمات، الكبير قد يُحكِّم عقله

قليلا في الحب رغم إنسياق المعظم خلف سحره، لكن مع

عاليا وجهتها نحو اللمس، وأقحمت في عقلها بأنه لا يجب

مسها..،أنا لا أعلم من قد يستغلها"

هنا زفر بقوة، وعمق ..وراحة..

جلس يضع رأسه بين كفيه مستندا على مكتبه..

يهمس براحة..

" غادري الآن يا خلود.. شكرا لكِ"

وكعادته معها، وبكل بساطة أنهى حواره، بعد أن بعثرها، نفخ

بأنفاسه كي يمحوها ويصرفها.

غادرت ، أقفلت الباب خلفها..

تركته مطمئن ومستاء..

عاجز عن التوغل لعالم الصغيرة، وراجي الخير في خلود..

وينتظر منها المزيد..

يرى كل يوم منها جانبا لا يعرفه عنها..هي مقاتلة.. وإلا

كيف تكيفت مع قلة رزقها وحيلتها تجرجر بذيلها عجوز

متهالك..

يتذكر حديثها وجدها في غرفة والده..

هي لا تخفي عنه شيء..

تحتضنه..تحضر فطوره..

تتدلل عليه..

قد يكون هذا ضمن مفهوم الحب أيضا..!

يتملص من أفكاره..

يتناول هاتفه ليتحدث إلى السائق..

طمأنه بأن عاليا لم تخرج من غرفتها، و أنها بصحبة سلمى منذ وصلت..

شدد على مراقبتها، هذا كل ما يستطيع فعله..

إنقباضة في قلبه تشعره بأنه ليس بخير، ولا عاليا..

***

استيقظت وحيدة بغرفتها التي تجمعها مع سلمى..

تبحث عنها بعينيها ..لم تجدها..

لم تكلف نفسها عناء التفكير بها وهي تتنعم بنغمة وصول رسالة على تطبيق الواتس

"افتحي لي..أقف أمام غرفتكِ"

هو هنا منذ وصولهم في المساء، يترقب اللحظة الحاسمة للولوج اليها..

لم يشغل باله بابنته التي شاهدها تغادر في الصباح..

ما يشغله صيده..

يقف أمامها بوسامة زائدة..يستدر شوقها له..

ترك ذقنه بعبثية لمعرفته ما تفعل بالفتيات..

يفتح قميصه الى منتصف بطنه، يستند بذراعه إلى الباب،

فانكشف صدره مغطى بشعيرات سوداء دقيقة ...

حصن نفسه وسن أسلحته جميعها ليكون يوما تتحاكى به

الصغيرة..

وإقترب..

يحثها على معانقته، يستزيد من رغبتها به..

جسدها الذي تخطى أعتاب الأنوثة بكثير..

لم تكن تشبه سلمى ابنته النحيلة التي تشبه الصبية..

عاليا جسد مغوي..

مهلك..

تمنى بأن يقطف ثمارها ويخضعها لعشقه على رغبته وطريقته..

أغلق الباب خلفه..

يحاول لمس شعرها..بانفاس يصبغها بالعشق المزيف.. ورغبة في الدمار..

يمرر إصبعه على وجنتيها في رقة مستحدثه منه، بينما تستاء من فعله..

هي بين الرومانسية التي تشاهدها ومعنى الحب الذي أخبرتها عنه خلود..

هل يصح لكمال لمسها..

يدغدغ مشاعرها وهي بين أفكارها..

إلى أن وصل الأمر إلى أوجه بملامسة جسدها البريء..

حاولت دفعه ووله عينيه الماكرة ورغبته المستعرة بها تدنيه منها..

في حيرة بين ما تشعر وما ترى ..وما تسمع..

بينما هو يضغط على أحاسيسها الوليدة التي تمثل له كتاب مفتوح سيمحو كلماته ويغلقه بلا رجعة، حيرة تعلوها وهو خير قادر على حسمها..

تودد أكثر.. دللها أكثر..

ينزع وينزع، يلمس ويستلذ.. إلى أن صرخت عاليا..

في باديء الأمر ظنته خشن الطباع.. هي لا تعلم شيء عن ممارسة تلك الأمور وخبرتها فيها المشاهدة، ومن شدة لمساته لم تستطع منع صرختها..

وضع يديه على فمها

" هشش، أعلم بأني آلمتكِ ، أنا آسف، لا أستطيع السيطرة

على جموح مشاعري، أنتِ..، أنتِ لا تعلمين ما الذي

تفعلينه بي"

يستميلها برقة الكلمات، ليداهمها بقوة الأفعال..يكيد لها..

هدأ قليلا كي لا يخيفها أكثر، يستر عريها..بمكر خسيس

أوشك على الحصول على غنيمته..

يهمس باذنها

" أنا مجنون بكِ يا عاليا"

يقدم لها زجاجة صغيرة يقول

" ما رأيكِ برشفة من هذا؟"

أطاعته لتجرب معه كل ما هو جديد..

مذاق مر ..لا ذع، لم تتحمله..

" و أخرى..لأجلي"

لم يعطها المجال للرفض.. وهو يدس عنق الزجاجة في فمها ..

توالت الرشفات، حتى إرتشف هو الآخر كل رحيقها، وترك

بعضا من آثاره عليها..

نالها بصرخات طفيفة لم ترضه..الا أن نيلها الكامل

..أرضاه..كثيراا...هكذا سيخضعها لرغباته..ويربيها على

يديه..فتكون دميته المثابرة .. المتحملة لعنفه وساديته...

دنسها كما شاء .. كما خطط..بل أفضل مما حاك..

همهماتها و أنينها مغيبة، لا يشعرانه بالنشوة..

لا بأس..ربما في المرة القادمة..

رتب الغرفة فور فروغه منها، تركها لا تعي ما حولها..

تخفى عن عيني السائق جيدا كما فعل وقت مجيئه ليبتعد

مغادرا، فقد نال ما جاء لأجله..وزيادة..

***

" تلك أعمال غير مشروعة سيدي الطبيب إن لم تكن تعلم"

" إنها أبحاث يا طارق، لتطور الطب"

" وهل لديك تصريح من وزارة الصحة لممارسة تلك الأبحاث"

صمت أيمن الطبيب المعالج لوالده..

مقابلة عمل تجمعهم..فأموال طارق الرشيد تتشعب بين جميع الصناعات ومن بينها صناعة الادوية..

يضع يده في جيب سرواله والأخرى يشير بها إلى أيمن، وكأنه يكتب

"أرى ختم الوزارة، تنل توقيعي على تلك الصفقة"

يصمت أيمن، ينتظر المزيد بعد أن رأى إنفراجة شفتي طارق..

" أنا لا أعمل في الممنوع والغير مشروع، وما قد يؤذي غيري"

ضحكات أيمن الصاخبة هذه المرة بددت صمته ليتحدث

بخبث

" بل تؤذي، و أقرب الناس إليك"

شعر طارق بنبرة التهديد في صوته فقال

" أظن بأن خدمتك مدفوعة الأجر"

بملامح قاتمة ووجه عابس، أردف

" ومسبقا"

من هو ليقف أمام طارق الرشيد..

هو طبيب رماه القدر في طريقه ذات مرة، وقد كان في

أضعف حالاته، إهتم به إثر إعتداء قوي وقع على

جسده..فكانت البداية..

الى أن كبر طارق وذاع سيطه، و أوقعته اخته الطبيبة في مأزق.. لم تكن لتخرج منه لولاه" طارق الرشيد"...

حمل أيمن حقيبته ، يقف لينه الحوار، تشيعه عيني طارق الحادة..

وجه الطبيب الذي يذكره بمراحل تعافيه الجسمانية...يتطلع إلى الباب يرتطم برتاجه...ليعود للذكرى...

" لا تقاوم يا طارق.. سننتهي قريبا"

وضحكات ماجنة تنبعث من افواههم

يطمئنه والده بأنه أوشك على الإنتهاء منه..

وحقا فعل..

أنهى عمره وسلامه..زعزع عقله فبات الشتات هو ما يوجهه..

متخبطا بين انتقام وسلام..بين كره وعفو..

صراع دائم لا ينتهي بينه وبين نفسه يغشيه بدخان يعيقه عن

رؤية الأمور في نصابها..

يخبره بأن عليه الاستكانة بجسده حتى لا يتأذى..

أن يرتضي الهوان حتى ينتهي منه بعد أن انتهى زوج اخته...

يوزعان رزقهم لوليمة لم يحضِّروا لالتهامها وقد جائهم على

طبق من فضة يبحث عن والدته..

وهم في لحظة غياب عن العالم..

لذّة سكر..سكنّت والده..وجندت زوج أخته..ليقدما على

تلك الجريمة الخرقاء..

بينما هو ينازعهم، يحاول الخلاص..

أذرعهم القوية التي تحيط به ولمساتهم المنفرة تركت وشما على

جسده مهما زال آثاره، بقيت في روحه..

صوت والده ورائحة الكحول تفوح من فيه..

" حتى لا تتنمر مجددا، وتضع حدودا لجموحك"

ما يفعله عقابا لجموحه...

هل يعاقبه علي ركلة غاضبة من قدمه للارض..

على إشاحة ساخطة من يده..

فيكون عاقبته هتك روحه وتمزيق كيانه..

اللعنة..

منذ متى والقوي يخشى الضعيف..!

يفرك رأسه ويرتعش وجهه وهو يتذكر معاناته

تبدلوا عليه وحوله، كلا بأفعاله المريضة..

من يضع يدا علي فمه، ويد أخرى تهين رجولته، ويد أخري

تعذبه..

حتى إنتهى الأمر بأغتصابه بطريقة شاذة منفرة..

" اااااه"

خرج من أفكاره بتلك الآهة الهامسة..ملتهبة بما يغلي داخله،

لطالما صرخ..

حقا لقد فعل..

وكلما فعل إزداد الألم.. لم يزل، أو يتلاشي..

ويزيده أكثر بيديه بالأذى لجسده وروحه..

متى سيستفيق والده ليتوقف عن ايذاء نفسه..

يعذبه هو ليثأر له ولأمه..

ولعاليا..

ذكريات .. ذكريات..

متى سيعيش للغد..!

متى سيرتاح وينتظر القادم بمتعة وشغف..!

رنة رسالة من هاتفه..خلود..

" لا أعلم هل أتوهم أم ماذا.. لكن والدك قد استفاق"

دفقات هائلة من الدماء صعدت إلى رأسه..هكذا تحقق حلمه

بأمنية..

ابتسم بجانب فمه..

يكتب ببطء مستلذ..كمن وجد الفرج في أشد لحظاته

ضيقا..

" أنا في الطريق إليكِ"

إلتقط سترته يرتديها على عجل.. يمر على مكتب كمال

الذي انتصب لتحيته..

تجاهله طارق يكمل طريقه بخطوات واسعة..

وكالغريق الذي أوشك على الموت، فأعطاه أحدهم قبلة

الحياة..غادر الى فيلته.

***

شيء حديث تغير في جسدها، لقد أصبحت امرأة..

إمرأة قبل الأوان، بكدمات تملأ جسدها..

بعد أن استفاقت من سكرها بدوار عنيف، قامت لتأخذ

حماما باردا..ليعدل ما اماله كمال فيها، ويطبطب على

جروحها..

شعرها المرتب على الدوام، مبعثر متقصف، لا تعلم ما الذي

فعله بها، كانت تشعر بإقتلاعه من منابته، وخشونة يده التي

استباحتها عن آخرها تخمش جسدها..

هكذا هو شعور الاغتصاب ..

كلمة سمعتها قديما من أمها..

أهكذا كان شعورها حالما أغتُصِبت ..

تحدثت بها أمها إلى إحدى صديقاتها يوما وهي تبكي..

لم تكن سوى نتاج خطيئة من أمها..

لم يكن وجودها هاما في الحياة فهي والعدم سواء..

كلمات والدتها التي تذكرها الآن..لتقارن ما حدث لأمها

ولها، وهل تعد هي مغتصبة..

لقد أعطته ما طمع به برغبتها، وسلمته نفسها وهي بكامل

وعيها، غير عابئة بكلمات خلود المحذرة..

غير عابئة بعقلها الذي حثها على التوقف في لحظة ما..

الاغتصاب انتهاك وكمال لم ينتهكها، فلقد حدث كل شيء

بموافقتها ورغبتها..

تضع بعض المساحيق على وجهها..غير مكترثة بأي هوة سقطت..

ولا أي مصيبة جلبت..

تخفي ندوبا خلفتها قبلاته..

بينما ندوب القلب لن تمحَ ككأس ماء مسكوب..

بل كالصوف المتشابك بالحديد..

ترتب شعرها بيديها..وخفقات قلبها المحتارة تتقاذفها..

لا تعلم هل سعدت بما حدث، أم غضِبت..

أغمضت عينيها تضغط على كدمة بجانب فمها..

تتأوه..

شعور يخدر أطرافها وقد تعرضت للصدام بجسده الصلب..

الألم الذي خلفه فوق جسدها..

هو فقط ما كانت تحتاجه..

أغلقت زر أخير في ثوبها، يغطي كتفيها..

طويل يصل إلى كعبيها..تتلفت حولها تتسائل عن مكان

سلمى حتى الآن..

لم تأتِ، لم تتحدث..

إقتربت من هاتفها تفتحه..لتجد رسالة منه..

" أشتاقكِ..مدللتي"

ابتسمت فكلماته أرضتها..على الأقل هو لم يتنصل من

فعلته..

لترى رسالة أخرى علي هاتفها..يطمئنها بخبث الثعالب

" لقد أصبحتِ زوجتي ولن أترك حقي فيكِ"

وقلوب كثيرة..ووجوه ترسل قبلاته لها..

" هل عادت سلمى، هاتفها مغلق منذ غادرت"

" لم تعد بعد، والقائمين على الرحلة يدعوننا الآن إلى الخروج

لا أعلم أين ذهبت"

أغلق تطبيقه، ليشعر بقلق حقيقي تجاه فتاته..

تلاعبت به الظنون قلق، إنها المرة الأولى التي تغلق هاتفها

هكذا..

ولماذا غادرت صباحا قبل استيقاظ الجميع!

لقد ظنها قامت لتسبح بعيدا عن الزحام والاختلاط..

لقد تأخر الوقت..جدا..لماذا لم تعد؟

يمر الوقت سريعا ليراسل عاليا مجددا..لتجيبه بالنفي..

وحالما أغلقت معه..تلقت إتصالاً من طارق يخبرها..

" السائق ينتظركِ بالاسفل..سيعيدكِ إلى الفيلا..والدكِ قد

استفاق.."

تغلق الهاتف..مصدومة..

الآن..اليوم..

كيف ستعود وهي بهذا الحال..

تلف الغرفة تكاد تنزع شعرها من شدة توترها..

السائق..هل أرسله طارق خلفها..

هذا اللعين الذي يقص أخبارها له..

جاسوسه المطيع..

شهقت بجنون..تفكر في.." ماذا لو رأى كمال"...

***

وفي مكان تتلاعب فيه الاضواء وتتبدل، ترقص على موسيقى ماجنة، تهز رأسها بجنون، وجسدها بقوة..بعد أن تواعدت مع

احداهن عبر الهاتف..قررت اليوم رؤيتها..

لطالما تبادلوا الكلمات الفظة..المغوية..

لعبت الكاميرا دورا هاما في تبادلهم المشاعر الجافة..

أما الآن فالبث حي..

تناظرها تلك الفتاة التي في مثل عمرها.. تشاركها الجنون

بمثله..

يقتربن ويبتعدن بتناغم مع الموسيقى..

تتمايل الخُصُر بخلاعة واغواء في عرض رخيص للاجساد

والرغبات..

غير عابئين بما حولهم فالكل مشغول كلا مع بني جنسه..

في حفل خارج الحياة ، وخارج الزمن..

المجون بجنون، والضوضاء باثارة، والغريزة بمثيلتها..

والعلاقة بالتبادل والانحلال والفحش..

وفي مكان بعيد عن الأنظار، تبادلن العبث، واختلت

الموازين، ولعبت كلتاهما في طبيعة نظمها الخالق، فكان

النتاج..لهاث قبيح، وتجمع مثير للشفقة يناظرهم ويصورهم

بهياج وفجور.

الفصل الثامن

***

أنا صورتك، أشبهك، متمرد .. حانق..لكني أشد حدة

يسيرني الانتقام.

***

يضرب المقود بغضب، وقوة، خطأ.. ما رأته خطأ، هيأ لها ..

هل فتح عينيه أم لا..!!

يتأرجح بين الاجابتين وكأن إحداهما سوف تحييه.. والأخرى ستذبحه..

أغلق اتصاله معها وهو في طريقه إلى الفيلا ليرى بنفسه..

سيثقل على نفسه ويدخل ليراه نائما على حالته فقط ليتأكد بينما تثير رقدته حنقه..تغيظه بأنه لا يستطيع أذيته حفاظا على حياته التي يتوعدها بالعذاب فور عودته ..

صف سيارته في مكانها..

ترجل منها والكون بأكمله لونا واحدا معتما..

توجه إلى غرفته الخالية إلا منه ، وعيونه المغلقة التي تحجبه عنه تثير حنقه..

يريد أن يرى بها الخزي والندم والخوف..

أن يسعد بأنينه وتوسله للرحمة كما كان يفعل– هو –حين

باغت رجولته.. وانتزعها..

" لماذا الآن!"

كانت همسة..

" لقد بدأت أتأقلم مع ألمي وصب غضبي على جسدي كي

أرتاح"

كانت حادة..

" أخبرني لماذا؟!"

كانت صرخة..

إرتعدت مكانها وهي في الحمام الملحق بالغرفة..تصلب

جسدها وهي تستمع لكلماته المعذَبة لأبيه..

لا تقو على الخروج ومواجهته بعد أن بشَّرته، ثم نزعت

بشارتها لتتركه في هوة الخزلان..

" لماذا انتهكتني و آلمتني، لقد صرخت مرارا ومرارا والألم لا يحتمل، أحرقت نفسي ولم يهدأ غضبي، عذبتك ولم يبرد انتقامي، أخبرني ماذا أفعل، في أي درك سحيق أسقطتني"

نظرت من خلال الباب تراقبه يدور حول والده، بل حول نفسه، صريعا لهواجسه وكلماته التي يظن بأن والده سيسمعها..

لماذا يلقي عليه هذه الأسئلة وهو يعلم بأنه لن يجيبه..

" دمائك بدمائي، كلما جرحت جسدي وددت لو تخلصت منها، وتبرأت منك، لماذا لا تستفيق وأفرغ جم غضبي عليك، تستحقه، انت تستحق الموت.."

يمسك رأسه ولا زال يحوم حوله بإعياء

" لالالا ، بل القتل، التعذيب، لا يليق بك الموت والراحة،

أفق لأريك العذاب الحقيقي، أفق.."

صرخاته الممزوجة بدموعه شلت حركتها..

يضرب أدويته بكفه فيسقطها أرضا..

ينزع عنه المحاليل ويصرخ بكلمات لا تفهمها..

ينازع ألما استنفر كل حواسه ليبدو في عالم آخر يصارع

وحوشا برية توشك على قتله...

جسده المشدود وكأنه على قياس الطول..متحفزا للقتل..

صوت تكسرت نبراته فأصدرت لحنا شاذا على كلماته...

"اللعنة عليك، وعلى كل ما يخصك، خسئت حيا ومغيبا"

أوشك على تكسير سريره..

لحظات هياجه وصلت أوجها، لقد حان وقت تدخلها،

سيؤذي نفسه ووالده..

خرجت مسرعة في محاولة للسيطرة عليه..، صرخاته أثارت حفيظة الخدم و جدها..الذي تدخل مخضوضا من صياحه يرى خلود تحاول تكبيله فينزعها عنه بذراعا واحدة لتسقط أرضا متألمة وقد إلتوى كاحلها تحتها..

إقترب مسرعا يحاول تهدئته بشتى الكلمات، هو لا يعلم ما يحدث ولا يزعجه إلا خلود وهي مكومة على الأرض تبكي ألما، بينما طارق تغشي عينيه الدموع.. يصرخ بألم..

كانت عاليا قد وصلت إلى الفيلا، ومعها السائق..

دلفا سويا ليشاهدوا طارق على هذا الحال..

تكاتف الجد والسائق عليه، ليحملوه إلى الخارج، بعيدا عن الغرفة..

إنحنت عاليا إلى خلود تساعدها على الوقوف..

بدت متألمة تمسك ساقها...تحاول الضغط عليه لمعرفة مدى

إصابتها..

حاولت خلود الإتكاء عليها لتصل حيث والدها..

شرعت في إعادة كل شيء حيث كان، علقت المحاليل،

ورتبت السليم من الدواء الذي لم يهشم..

" ماذا حدث؟"

عضت خلود على شفتيها..تخبرها

" لقد هيأ لي أن والدكِ إستفاق.. يبدو غاضبا لان والدكِ

مازال في غيبوبته"

تعلم عاليا بأنها ليست الحقيقة، إنهيار طارق بهذا الشكل ليس

بسبب غيبوبة والدها..

لطالما كان يخفي سرا لا تعلمه..

لازال صوت ضجيجه المنهك بالخارج فقالت خلود

" إذهبي إليه يا عاليا، اهتمي به"

وعندما خرجت إليه وجدته على حالته، طارق منهار كما لم تراه من قبل..

وقت موت أمه لم يكن بهذا الشكل..

الجميع يشاهد باهتمام، ومعظم المشاعر بين تعاطف وشفقة على الابن المكلوم في أبيه..

يحاول السائق السيطرة عليه

"سيد طارق، إهدأ"

فيهتاج أكثر، ليحاول دفعه إلى غرفته عنوة، يعلم أنه غير مدرك لما حوله، وإلا تماسك أمام الجميع...

قذفه نحو غرفته وأغلق الباب خلفه وغادر..

وحيدا في غرفته تسجنه بجدرانها.. ألا يكفيه روحه المقيدة ..

غرفته التي أسقط عليها اضطرابه..

هشمها..

لم يبقِ على شيء، ما عدا زجاجة خمر..

نزع سترته، رابطة عنقه، قميصه..

كأس..و آخر..

سيجارة وشمعة ..يسقط قطراتها برفق فوق كفه..

لا لا ، لم تعد مؤلمة..

على ظهر كفه..تلسع قليلا.. سيجارة يطفئها بين اصبعيه..

يستمتع بلسعاتها، يعاقب جسده على جرح لن يندمل، علي

صمت وتهاون، على خزي طاله..ولازال مستمر..

يقوم ويجلس في تضارب، لا يعرف أيا منهما يريحه..

خبطات فوق بابه.. وصوت عاليا يأتيه ..

" طارق، إفتح أرجوك"

بصوت بالغ الانهاك

" ليس الآن يا عاليا، ليس الآن.."

كأس آخر..

قطع من الثلج يمررها فوق رأسه وصدره.. يرجو برودة توقف

نزف حرارته..

والتهاب غضبته..

وبتقلب لا يستطيع السيطرة عليه ..أنهى زجاجة الخمر ثم

قذف بها نحو النافذة لتسقط شظاياها، ويسقط هو الآخر

صريع الانهاك والصراخ..فوق سريره

***

تبكي في غرفتها في الملحق

" لم أكن أقصد، أقسم لك ياجدي لم أكن أقصد أن أُمَنيه

بعودة والده ...لقد فتح عينيه للحظات ثم أغلقهم وكأن

شيئا لم يكن، لا أعلم إن كنت أتوهم أم ماذا، لم أكن أعلم

بأن هذا سيجعله كالثور الهائج هكذا"

مسح على شعرها

" أصدقكِ يا خلود، لم يكن خطأكِ"

مسحت آخر دموعها تتماسك أمامه، هي الآن تعلم جزء من

الحقيقة....

علمت بأن والده انتهكه...

يرغب في الإنتقام..

يؤذي جسده لأنه لم يستطع منع الضرر عنه..

ناقم على والده لدرجة أنه لا يرغب في إرث دمائه..

تشعر بالشفقة تجاهه.. طارق مظلوم.. يتألم، وهي تعلم جيدا

عذاب الروحِ من ظلم أحدهم..

لم ينفعه مال.. ولم يسعده سلطانه..

لن تنسَ مظهره اليوم وقد بدا تائها يلف في الفراغِ وكأنه

لايرى سوى ماضيه و إكتئابه..

ولن تنسَ هموما رُسمت في عينيه الباكية، ترغب في إبعاد الظلم

عنها..

ولا في إشارات يده الغاضبة الثائرة في رغبة حارقة لإنتقامه..

كيف يحتمل حرق ، أو جرح .. إلا ووجع روحه أشد بكثير

ليشتت ذاك الألم..

ليس بداخلها ذرة رحمة أو شفقة تجاه الراقد بغرفته، وإنما

إهتمامها كله في ذاك المنتقم الذي لم ولن يبرد إلا

بالقصاص..

وكيف يقتص من والده..!!

بل كيف آذاه والده..!!

وهل هناك أحن من الأبوان..!

" خلود، ما بكِ؟"

اندست في السرير

" لا شيء يا جدي.. لقد كان يوما عصيبا..دعني أرتاح

قليلا"

" كيف حال كاحلكِ"

تغمض عينيها فتقول

" الحمد لله، لم يحدث شيء.."

غادر جدها وبعد ساعات عاد إليها بطلبه الذي اعتادته

مؤخرا

" خلود، خلود، أنا جائع"

أجابته ناعسة

" ليس البيض بالبسطرمة من جديد، حضر لي العشاء

وايقظني يا جدي"

" حسنا، طالما أنا من سيحضر، فما أفضل من الجبن

والزيتون"

لم تجبه فغادر..يدعي المرح بينما باله مكتظ بالعديد من

الأسئلة المتخبطة..التي لا تنتهي وجميعها حول..طارق..

وظلت هي طوال ليلها، تفكر فيه، كيف يقضي ليلته الآن،

هل نام، أم مازال يرثو حاله، هل يؤذي نفسه...

وتلك الفكرة تصيبها بوجع في قلبها..

كم هي خادعة تلك المظاهر التي تخفي أنين وعلل تشرخ

القلوب وجعا!

من يرى وسامته.. أناقته..عطوره..سيارته...

قطعا لن يصدق بأنه بائس، غير قادر على إسعاد نفسه.

انزوت أفكارها إثر خبطات متتالية على بابها .. وصوت عاليا

تتحدث إلى جدها، تخبره بحاجتها إلى خلود..وكأن القدر

يخبرها...يطمئنها أنه ليس بخير...

وفي لحظات تجهزت..لتخرج وكأن علامات الأرق لم تزين

وجهها..وكأن قلقها عليه ليس له وجود...

" ما الامر؟"

" طارق، أخشى أن يكون اصابه مكروه، لا يرد علي طرقاتي"

توجهت وجدها بصحبة عاليا الى غرفته..

نادته عاليا فلم يجيب..

حاول الجد مع الباب لكن جسده لم يساعده على فتحه..

وبعد تفكير إقتحم الغرفة عنوة بطريقة بدائية لفتح الأبواب

كالسارقين..

ظلام..

جو مشحون..

وروائح مختلطة زكمت أنفاسهم..

أوقدت عاليا النور..ليشاهدوا نافذته المكسورة، والغرفة التي

انقلب اثاثها رأسا على عقب..

يستلقى علي سريره بنصفه العلوي بينما النصف الآخر

يلامس الأرض..

لسعات على كتفيه الاثنين، حرق آخر بين اصبعيه..

وجرح آخر بدا بجانب ظهره..

تنفست بعمق وهي تشاهد جدها يقترب منه يضبط نومته،

يدثره بالغطاء..

بينما تحت رأسه مياة لم تجف بعد، وبنظرة عابرة على الغرفة،

وجدت حاوية الثلج فارغة..

هكذا يعذب ويؤلم جسده..

إقتربت تفحصه..

فاحت رائحة الخمر من فمه.. مما أظهر استيائها..

همت بالمغادرة فاستوقفتها عاليا..

"خلود، إنتظري، إلى أين تذهبين!"

" أخيكِ مخمور، هو ليس بحاجة لأحد، هو بحاجة لأن

يستفيق..هيا يا جدي"

وبعد مغادرتها طلبت بالهاتف مراهم لحالته، لتداوي جراحه..

لتقوم عاليا بمعالجته..

هي مشفقة عليه مما ناله، حانقة عليه مما يفعل، منذ متى وهو

على هذا الحال..

لمتى سيظل يرثو حاله ولا يتقدم نحو علاجه..

هو أسير لماض ولى ولن يعود..

سيظل مقيدا بحياة والده لعذابه..

وسيظل مقيدا إن مات بتفريغ غضبه على جسده..

لهذا السبب كان يرتدي ملابس لا تلائم حرارة الطقس،

اوعزت ذلك للمكيفات التي تملا الفيلا والسيارة وقطعا

شركاته..

لهذا لم تره ولو لمرة واحدة على حمام السباحة..

يداري جسده المنهك عن العيون بعيدا عن التساؤلات..

يحترم جدها صمتها..لقد استنزفت اليوم، هو ايضا استنزف..

لم يتوقع شاب مثل طارق الرشيد صاحب كاس، لقد نبهته

خلود من قبل، لكن رؤيته وهو على هذا الحال لأمر مؤلم،

هو مستاء كثيرا مما رأى، ينازع غضبه وحلمه..

" أنا حزين لحاله"

سحبت نفس متالم

"أكره الضعفاء جدي، طارق ضعيف، يصب غضبه على

نفسه"

" أم الخبائث..أتعجب ممن يبارز الله بالمعاصي، الخمر!"

" هؤلاء القوم لا يقدرون نعم الله عليهم، طوال الوقت

حانقون، يلومون غيرهم وهم أهل اللوم"

لم تشأ فضحه أمام جدها، تقاوم ثرثره تدغدغ لسانها..فقالت

" لماذا لا يتوب ويدعو الله ببساطة"

" طارق يعاني أمرا ما يا خلود، وضعه ووالده غير مريح"

أرادت صرف تفكيره مع سماع الأذان فقالت

"هل نصلي الفجر سويا؟"

اومأ برأسه..

شارد بفكره..

لازالت التساؤلات تعبث برأسه، يحجبها عنها، حتى لا تبدأ

في قلقها..ويزيد من حنقها...

صلى بها إماما...ثم توجه لاريكته ليردد أذكاره...

وحالما فرغت هي من صلاتها ..جلست أمام نافذتها.. تردد

" اللهم برد قلبه، أقسم له الرضا، إشغله بطاعتك، ورد

الظلم عنه"

كانت آخر كلماتها وعيناها تلتحم إرهاقا وتعبا لتغط في نوم

سحيق..

***

توالت اتصالاته..

ورسائله عليها طوال الليل يسأل عن أخيها، ظاهرها اطمئنان

وباطنها لا تعلمه

" هل آتي اليكِ؟"

كتبت له

" لا.."

" أريد أن اطمأن عليكِ حبيبتي"

" أنا بخير يا كمال"

" إشتقت اليكِ"

تندمج مع كلماته رغم مزاجها الحاد، ترغب نسيانا لا يدنيها

من الواقع..

" أريد رؤيتكِ "

" أين، لقد بدأت أقلق من نظرة سلمى لنا"

" قابليني في .."

وذكر لها مكانا تلقاه فيه ليذهبا إلى وجهتهم سويا، وقبل أن

يغلق تطبيقه كتب لها

" تخفي من السائق، هو يتبعكِ وينقل تحركاتكِ لطارق"

ردت باقتضاب

" أعلم"

تبدل ثيابها..بين ملابس عمليه...وفساتين نهارية رقيقة...حتى

انتهت إلي بنطال من القماش الخفيف..يعلوه بلوزة انيقة ..

مرت على طارق في طريقها، لم تجده، وعلمت من الخادمة

بأنه سافر صباحا..

توجهت إلى مطعم..بصحبة السائق..ومن باب خلفي خرجت

لتواعده..

وفي مكان مقفر، يبعث الانقباض في القلب كان في إنتظارها،

سحبها من يديها يلصقها به، ليصعد بها إلى شقة فارغة، إلا

من سرير...

" لحظات واعود"

تجلس على أحد الكراسي، تمشط الغرفة بعينيها..

سرير وثير، شراشف وردية..لحاف ثقيل..

لا يوجد أي مبعث للهواء والراحة في هذا المكان..

سقطت بعينيها على شيء من الجلد رفيع..فأر..شهقت

مرتعدة..

أصدرت صوت ولم يتحرك.. إنخفضت تضع يدها لتجذبه..

" سوط"

تزامن همسها مع عودته، وقد تخفف كثيرا من ثيابه.. يبتسم..

أمسك السوط من يديها هامسا باذنها

" ما رأيكِ بتجربة الحب، على طريقتي هذه المرة ياعاليا"

عقدت حاجبيها لا تعي ما يقول..

لف السوط حول خصرها بقوة فصرخت..ليقول

" هكذا"

شدد منه أكثر ..فأكثر مع ازدياد حدة ملامحه..وصخب

أنفاسه يزعجها، حتى باتت تختنق

" أرجوك كمال"

" استغيثي، أكثر"

صرخت..

" كمااال، أرجوك، أكاد أن أموت"

" أقوى يا جميلة"

صرخاتها باتت أشد.. كلما أحكم، كلما إزدادت..

فكها ليستمتع بلعبته الجديدة..وساديته تلمع بعينيه بشره

وككل مرة يجيد جذبها، يروضها كما يحب خطوة خطوة

" أنا أعشقكِ يا عاليا"

حاولت أن تبتعد عن أنفاسه تلتقط الهواء في هذا الجو

الخانق، فجذبها إلى سريره، يدثرها بهذا الغطاء الثقيل، ويبدأ

ما نوى، وتعطيه ما أراد..

تشعر وكأن روحها تلتهب مع كل صفعة او جلدة حارقة

على جلدها...مع كل كتمة لانفاسها تحت ذاك الغطاء...

تنازع الحرارة المضاعفة محاصرة..عرقها يبلل جسده..

ألم جسدها يشعرها بالانتشاء...اختناقها يمزق روحها فيحيلها

الى جحيم مستعر .. كما تستحق..

منذ البداية..حيث كانت نطفة..هي خطيئة لعينة..من امها

وابيها...منذ وضعت صرختها في هذه الدنيا وهي المستغنى

عنها...أب لاتراه..أم تحاول العطاء وهي ممتصة فلم يتبقَ من

رحيقها شيء لتمنحها إياه..طارق ونبذه لها في صغرها ونفوره

منها...

"ااااه"

صرخة أنهى بها تقطيع جسدها بسوطه...وانتشاءه..متنعما

بحياة غابت عنه كثيرا، متعته دوما ما كانت مبتورة مع

اكتشاف ضحاياه ميوله في التعذيب...فلم يجد من تشاركه

لحظات نشوته كعاليا...

اليغور الصغير، الذي يخفي المه..

فماذا لو أظهره ليستمتع هو...

عاليا الصيد السهل...تملك نفس مقيدة كأخيها...

لا يهتم بالاسباب طالما وجعها في النهاية سيكون صداه

صرخاتها في صدره.

***

يسبح في الفراغ، مكان واسع..

شمس ساطعة، حرارة مرتفعة، وبحر..وهواء يدغدغ وجنتيه،

يعبث بقميصه..

حالة من اللاشيء..

يفكر في اللا شيء..

رموشه تمتزج في هدوء ثم تفترق، يخفي عينيه قليلا تحاشيا

لبريق الشمس..

يغمضها لثوانٍ ويفتحها، ليعاود الفعل مرات ومرات..

يستمع لأنفاسه بملل..

وصوت المياة والهواء يأخذان عقله حيث الأمان..

أمه..

يتذكر جيدا الأيام التي تبعت انتهاكه، انزواءه، انطوائيته،

وعصبيته المفتعلة معها..

لاحظت إيذاءه لنفسه..

إحتوت غضبه ولم تكن تعرف مصابه..

مرة بالتدليل، مرة باحتواء صرخاته في صدرها، ومرة بالحوار الذي كان يكرهه، فهو لن يبوح بما حدث، يكفيه خزي واحد..

جاهدت في معرفة ما يحدث لوحيدها..

وعندما سد الطرق في وجهها، دعته للسفر، تغيير الأجواء قد يفيده..

كان بعمره الفتي، وظنت بأنها قد تكون تغيرات وتقلبات، مراهقة..

موجة عاصفة من الهواء، أوشكت على تحريكه وزعزعة ثباته وهو يجلس أمام الماء..

لا يستطيع الضغط على أسنانه حتى..

حالة من البؤس يصحبها خدر في أطرافه غير قادر على فعل

أي شيء..

عاد بذاكرته إلى يوم لن يمحى من ذاكرته، بعد عودته من

بيت خاله خارج البلاد..في رحلة علاجيه صحبته فيها

لأسابيع .. لتعود الى الفيلا بدونه..تطمئن عليه عبر الهاتف..

وجدها تبكي..

شاحبة اللون هزيلة الجسد تخبره بأنها

" حامل"...

الآن، حامل الآن، بعد ما علمته في جلسات الاستماع

النفسي عنه...

بعد معرفتها بما أحدثه والده فيه..

ألا يفترض غضبها على والده لا مشاركته الفراش الناتج عنه

حمل..

ثارت ثورته..وتعالت صرخاته التي كان يكتمها في بداية

علاجه..

حاولت تهدئته فدفعها عنه ليهرب الى غرفته..

أيام من العذاب النفسي.. والافكار السوداء باتت لا

تفارقه..

وهو يتخيل أخته، أو أخيه.. يحدث معه كما حدث له..

إحتقنت ملامحه، وتشنج جسده..وتصادم في مواجهة مصيريه

معها لتخبره بعد أن كادت تفقده..

" لقد إغتصبني يا طارق"

كلمات محددة، بهمس مؤلم..

لم تكن لتفصح له عن تفاصيل ما حدث فقد رُسمت الصورة

بمخيلته، فقد فعل أبيه معها ما قام به معه..

قيدها..

ثبتها ليبث بها غرائزه التي لا يعي وقتا لإفراغها...

ترنحت أمامه، أوشكت على الوقوع، فسندتها ذراعه القوية،

ولا تعلم كيف اشتدت هكذا، ولا متى قويت..

" ااه"

يلمس شعره، يمسح على ذقنه، لقد مرت ثلاثة أيام وهو في

هذا المكان، يبحث عن صفاء الذهن، ويرتجي السكينه

يشبع صدره من الهواء حتى زفره فقد بات غير قادر على

أخذ المزيد..

رن هاتفه..عاليا.. لم تتوقف عن الاتصال منذ غادر..

" مرحبا عاليا.. أنا بخير..كيف أنتِ"

" أنا لست بخير يا طارق..أنت تتركني وحدي طوال الوقت،

أنا حقا غاضبة"

ابتسم لدلالها..فقال يراضيها

" ماذا تريدين؟"

حماسة، و شقاوة طفولتها ملئت صوتها

" يوم ميلادي غدا، وانت نسيتني كالعادة.."

مسح وجهه، هي تريد زحام وهو يربأ بنفسه عن العالم

أجمع..

" حسنا، لكن يكفيكي أنا"

كانت تعلم بأنه لا يحب الصخب، فقالت تهادنه

" وخلود.."

صمتت فسكت هو الآخر لتكمل

" وسلمى، والدها لن يتركها تأتي بمفردها فسيكون معها،

والعجوز وفقط"

تنهد بملل، هو يعلم ألاعيبها..

" حسنا، موافق، أخبري مديرة المنزل بما تريدي وستفعل

اللازم، و أنا سآتي في الصباح.."

أغلق الهاتف بعد شكرها وسعادتها اللامحدودة..

وكيف لا يسعدها وقد تعامل معها في أول سنوات عمرها

بأنها خطيئة وجب التخلص منها

***

يغادر سيارته..نظارته الشمسية تحجبه عن العالم..وتطلي ما

حوله بالسواد المناسب لمزاجه الدائم...

ينظر أرضا الى أن وصل إلى البهو الكبير..

تحمل أوراق المتابعة الخاصة بحالة أبيه تراجعها وتدون باقي

ملاحظاتها...

إرتطمت بكتفه الصلب...أسقطت أوراقها...ولم تهتم بجلبها

من شدة تألمها من اصطدامها به...

ينزع نظارته عن عينه...يسألها بقلق

"هل أنتِ بخير؟"

يتغضن جبينها..تنظر إلى الأوراق تكابد ألمها...

هي رقيقة البنية والجسد...

استدارة جسدها النحيل قليلا ليس دليلا على قوتها... إنما

دليل على تناولها المزيد من الطعام بصحبة جدها.

تنظر إلى عينيه...المجردة من نظارته الشمسية...التي تركت

أثرا فوق أنفه...لا .. لا ...

إنها أنفه مجددا...

إبتسمت تترك كتفها..تنحني لالتقاط الاوراق...

ما الذي يدعوه لإرتداء تلك النظارة لوقت طويل ويدلف بها

إلى فيلته حيث لا شمس ولا حرارة ..

هو لا يستطيع تخطي ما حدث ذلك اليوم أمام الجميع إذا...

"كيف حالك انت؟"

تنفس الصعداء لأنه لم يمزقها باندفاع خطواته وارتطامه بها

"أنا آسف بشأن كاحلكِ، لقد أخبرتني عاليا بأني آذيتكِ"

تبتسم برقة

"لا بأس، لم تكن بوعيك على كل حال"

تنويه بسيط عن حالته في ذلك اليوم..كان سببا في تقلب

مزاجه ومراعاته لها...

عينيه تجذبها بحزنهما..معبأة بالحزن حتى فاض الكيل بهما...

يستشرفها بقامته المديدة وجسده الذي يغطيها كظلال

حامية..

وجه متألم ناقم، يسألها بخزي

"هل كنتِ هناك"

تسقط بنظرها أرضا، تترفع عن إلحاق الخزي به

"نعم"

يضغط على أسنانه يسالها بتعب، يطمأن على سره الكبير

"ما الذي سمعته ؟"

"ليس الكثير، صوت تهشم زجاجات الدواء..صخبك..لكني

لم أستمع إلى شيء..كنت أُشغل صنبور المياة في الحمام فلم

أسمع الكثير"

ترتب الأوراق، تستعد للرحيل..استوقفها

"يوم ميلاد عاليا غدا، استعدي وجدكِ للحفل، لن يحضر

أغراب، أنا اكره الصخب على كل حال، حاولي اسعادها

يا خلود"

استدارت، تتوسله الإيضاح

"ولماذا لا تسعدها أنت يا سيدي، عاليا تحتاجك أنت،

وليس أنا"

خطى نحو الدرج، يصعد أوله..

"إستمعي لما اقوله، نفذي دون نقاش، أنتِ تنهكيني بالحديث

معكِ، لماذا لا آمر فأطاع وفقط، مزاجي غير رائق للتحدث

اليكِ اليوم يا خلود"

على صوتها ليصله وهو قرب غرفته...

"لانها ليست مهامي سيد طارق"

إنتفضت من قسوة غلقه لباب غرفته ...

تكرمش وجهها بغضب متمتمة..

"اللعنة عليك طارق رشيد"

تقترب نحو باب الفيلا الكبير..تهم بفتحه..حتى أتاها صوته

البعيد

"إنتظري"

تشاهده يقترب منها على مهل، يدس يده في جيبه يخرج

حافظته، يناولها المال..تكف يديها عن الإمتداد له حتى قال

"لم أجد الوقت لإحضار هدية مناسبة لها، هل تساعديني؟"

اتسعت عينيها تنظر اليه، وقد باتت نظراتها رفيقته..

مدت يدها تقبل المال

"هل تريد باقي، أم أنسفه لك"

زوى حاجبيه لأعلى..يزم جانب شفتيه

"احضري هدية تليق بعاليا"

أعطاها ظهره مجددا

"لا أريد باقي، أحسني الإختيار"

قالت تستوقفه

"أنت أخوها وخير من تعرفها، اقترح علي ما الذي يسعدها

ويتناسب مع هذا المال الوفير"

تمزح معه، هي بالفعل تمزح وهو بمزاج أسود قادر على إشعال

ما حوله...

لو أنه يعلم لأحضر الهدية بالهاتف.. إلا أنه لا يعلم ولا يريد

شغل باله بأمور كهذه..قواه خارت من إدعاء الصلابة...

وحان وقت منحها هدنة...

ليست تدري سببا مقنعا لايقافه ومحاولة الحديث معه...

تستقطبه..ترغب في النفاذ إليه لكنه كالزجاج المضاد

للرصاص لا ينكسر وليس به ثغرات للمرور عبرها...

"هل جدي مدعو!"

"نعم، إلا إذا كان مشغول بشيءٍ ما"

حسنا لقد عاود السخرية.. إذا هو بخير...

حثت خطاها لتعود إلى الملحق...

"هل كنتِ تتحدثين بشيء بعد إغلاقي باب غرفتي"

ليست سخرية فقط...لقد حلت عقدته على ما يبدو على

يديها ويرغب بمسح كرامتها...

"أنا...لا...لم أقل شيء"

حرك عينه ناحية اليسار..يتجاهل ردها ليقول

"اين عاليا؟"

"مع جدي بالخارج"

شعر بالإطمئنان التام عليها بصحبته، ربما أكثر كثيرا من

صحبة سلمى...

همهم مستحسنا قولها...

يراوغ ويماطل في الكلمات، لقد سمعها تسبه...

سمعها بأذنه ولم يخبره أحد...جبنت من مواجهته...

لماذا لم يشعر بالإهانة تجاه كلماتها...

أو أنها اساءت إليه....

لقد سبته، في بهو فيلته التي يملكها وتعلم أن المكان يحوي

كاميرا....

تحني رأسها بخجل واحترام تنتظر صرفها، أو انصرافه لكنه لم

يفعل...

"هل من جديد بشأن عاليا"

تود لو تخبره هل من جديد في حالتك انت، لكنها لا تستطيع

البوح بأي شيء في تلك المسألة ولا حتى لجدها...

تشعر تجاهه بالشفقة...هو أكثر من عاليا...

فقد نشأت عاليا واعتادت على غياب والديها...

اما طارق فلم يغب والده بل آذاه....

رمشت بعينيها تطالعه يفرك عينه

"لا، لا جديد، هل أنصرف؟"

أشار لها فاتحا اكفه...

"على راحتكِ، لا تنسي الهدية"

ابتسمت تودعه...

وكان آخر ما يراه منها ضيق عينيها أكثر..وابتسامة أظفرت

عن ثغر ناعم... أسنان غير مستوية تجذبه...

وآخر كلماتها تدغدغ أذنه بوعد ...لا يتناسب مع هدية

"لن أنسى"

***

الفصل التاسع

تناقض يضربني، يطال حصوني، فيزلزل قلبي ويبدل سمتي.

***

" هل صحيح بأن السيد طارق يشارك في أعمال خيرية في هذا المكان"

تحدثت الى سائقه، ترغب في التأكد من كلمات العاملة هنا، التي تبادلت معها الحديث قائلة

" لديكِ مهارات رائعة في التعامل مع الأطفال، ما رأيكِ في الإنضام إلينا"

أجابتها

" أنا اعمل بالفعل لدى طارق الرشيد"

كانت إجابتها محدده، هي تعلم بأنها لو ذهبت إليهم طالبة العمل، سيرفضوها، فمصيبتها لاكها الجمع لفترة لا بأس بها، ربما غفلت عنها تلك العاملة البسيطة.

تشعر بالفخر لعملها لديه، فقد أعطاها هذا العمل قدر من الثقة بالنفس للتعامل مع الناس بوجهها الحقيقي، بلا ذل يكسوه، ولا إستجداء ترجوه..

أدار السائق السيارة متوجها إلى الفيلا

" نعم، أنا أقوم بذلك بنفسي"

كلمات محددة بدون مماطلة أو ثرثرة معها، ولاءه لسيده على كل حال ولن يفصح عن المزيد الذي تعلمه هي..

"يا لكِ من محظوظة، السيد طارق الرشيد يرسل لنا الأموال والدواء، يشارك في أنشطة متعددة من أنشطة الدار، وأحيانا ما يحضر حفلات الأطفال، لكن من بعيد، يسعد بالمراقبة لا المشاركة"

تحدثت إلى نفسها

" تبا لداء المراقبة الذي يسري في دمه، وسحقا لكافة الكاميرات"

" يأتي إلينا على فترات متباعدة، يجلس في غرفة المدير يراقب سعادة الاطفال ويستمع لضجيجهم ومشاجراتهم.. "

حدثت نفسها

" حسنا، لقد ظلمته هذه المرة، لا كاميرات، يكفي عيونه الرمادية الحادة التي تقتنص كل شيء وترى الضمائر والنفوس"

وصلت إلى الفيلا ، لم تشعر بالطريق..وهي تفكر في الجانب الاخر له..لقد ظلمته عندما ظنت بأنه لا يملك من القلب لينه..

ها هو يبهرها بالجزء المضيء داخله...

وللمرة الثانية تلعن غبائها في فهمه، وسوء حكمها عليه..

وقد ظنت لوهلة بأن العطاء مقصور على من تذوق الفقر..

لتعي أخيرا بأن العطاء لا يحدده غنى او فقر..وانما حاجتنا له..

فمن يظن بأن من يأخذ هو الفائز مخطىء..

فالعاطي هو من يربح السعادة ذهبا..والراحة فضة وحريرا.

***

تتبارى عيناه لملاحقة الحلوى المرتبة فوق طاولة كبيرة..معدة

للحفل، خطفت لبه فور دخوله إلى الفيلا

"خلود، انظري"

تنظر لأعلى، ألوان متداخلة لبالونات، بين الأبيض والوردي،

يتدلي من منتصفها حروف اسم عاليا بانسيابية ورقة...

تتبع إشارته..

لترى ما يريد..تضحك

"نعم، لقد شاهدتها وأنا في طريقي لعملي"

تشير لأعلى

"لكن هذه لم تكن موجودة وقتها"

"طبعا، فاعداد تلك الحلوي وترتيبها سيأخذ وقت أكبر بكثير

من تعليق عدة بالونات، عديمة الفائدة"

تضحك برقة

" بل هذا الطعام عديم الفائدة، أنت لا تعلم مدى سعادة

عاليا برؤيته تلك البالونات...سترى"

يبتلع ريقه بتمهل

"المهم سعادتي أنا"

بعد لحظات حضر كمال بصحبة ابنته، فانقبض قلب خلود

حينما التفتت لترى تلك السحنة الوسيمة التي تبغضها، لا

تطيق قربه ولا رائحته العفنة.

وفي التفاتة أخرى، نزلت عاليا إليهم بفستان قصير، يعلو

ركبتيها يلامس فخذيها بنعومة وهي تحرك قدميها تنزل

الدرج، مفتوح يبرز مفاتنها ، مقفل من الخلف يداري آثار

جلدها– الذي تتعافى منه بتناول كورس علاجي اوصاها به

كمال–باكمام طويلة..

مشبك شعر لامع يحتوي شعرها ليرفعه ويسقط منه خصلتان

زادوا من فتنتها، قرط طويل ناسب وجهها، ليزيد عمرها..

خاتم براق لمع وهي تلامس خصلات شعرها برقة، من

الألماس على ما يبدو..وطلاء أظافر..كل إصبع بلون

مختلف..

عاليا للوهلة الأولى من نظرة خلود إليها استشعرت بأن شيئا

فيها غير المعتاد..

"كمال هذا لا يعجبني"

"تراه للمرة الأولى وهذا هو انطباعك..مابالي أنا التي

عاشرت قذارته"

"انظري كيف يتودد لعاليا"

"ترى..بماذا يهمس لها يا جدي!"

من يرى سلمى الهزيلة، أمام عاليا بانوثتها، وثورتها، لن يصدق بأن الأولى تكبرها بعامين..كفه يعلو كتف ابنته..يتابع بخبث سيقان عاليا، واهتزاز صدرها..

يرى من مكانه خفقات قلبها التي ترتعد دوما تحت يديه..

لقد باتت الصغيرة محبة للالم، وابهرته في تقبل ايذاءه لها كما لم تتقبل أخريات..يعترف بأن متعته غير مشبعة فهو يتعامل معها بحرص شديد ..تُرضي ساديته بسماع صرخاتها..بينما متعته الجسدية منقوصة بقيد حرصه على عدم افتضاح امره.

يضغط على أسنانه بعد أن أذهب عطرها برأسه عندما

اقتربت تقبله وسلمى..فهمس لها

" كل عام وانا امتلكِ عاليا"

إقتربت عاليا تقبل العجوز، فابتعد..

حاولت مرة أخرى، فوضع كفيه أمامها بخجل، يغض بصره عنها..

فضحك الجميع .. بينما خلود تقف بحاجبين معقودان مستاءة مما يحدث..

يراقب الجمع من غرفته..

كل شيء يبدو طبيعيا، تقبيلها لسلمى، وكمال، فهو كأبيها، يكبرها بعشرون عاما او يزيد، ابتعاد جد خلود أيضا شيء طبيعي فالرجل يخاف الله..

لكن ما يراه شاذا وغريبا على المشهد..

هو .. نظرات كمال الى عاليا..

ينظر اليها كرجل، يريد إمرأة..

وليس كأب، نظرة رجل تخطى الثلاثين ولا زال مراهقا..

وغزة آلمته..وهو ينتبه الى كمال..وشذوذه الدائم عن المعتاد..

يتوعد بالحزم بشأن خروجها وذهابها الى سلمى في منزلها..

يتابع انعقاد حاجبي خلود عبر كاميرته وهي تنظر إلى كمال..

هي حقا تبغضه..

يشرد بذهنه..يتذكر امه..فرحتها الأخيرة وهي تحضر ليوم ميلاد عاليا الأخير..فور اتمامها تسع سنوات..

ويمر على ذكرى اخرى تناقضها...يستند برأسه إلى كرسيه..و..

"كيف تتحدثين إليّ هكذا يا أمي"

تواجه ثورة أخرى من ثوراته منذ علم بفعلة أبيه معها، يمسك

كتفيها يهزها بقوة

"تطلبين مني الهروب.."

تركها يهيم في غرفتها، عينيه تحرقه من شدة الغضب

"بل عليه هو الهرب مني"

"لقد واجهته يا طارق، لن تراه، لقد أقسم لي على ابتعاده

عنا، طلبت منه الطلاق..نفرت منه..."

تعثرها في إختيار الكلمات جعله يثور أكثر، هو ليس طفل

سيلهو بقطعة حلوى وينسى...

صرخ بحدة..يستوقفها

"كفى، أمي كفي عن تهدأتي فأنا لن اهدأ، لقد إغتصبكِ،

أتشعرين بألمي وأنا أرى صورتكِ كل يوم في احلامي وانتِ

تصرخين طلبا للنجدة ولا أحد يغيثك"

ينتفض جسده بغضب ويردف

"خوفك منه، كرهكِ لانفاسه المزكومة بالخمر، مصارعتكِ له

بيديكِ وقدمكِ وهو يستقوى عليكِ بجسده.."

تسقط عبراته من عينيه المتسعة يتخيل ما حدث..

تضع يديها على أذنيها تتوسله التوقف

"تذكرين شعور نزع الملابس..كنزع الستر عن احدهم ليصبح

عارٍ وسط طريق مكتظ"

تقسم أنه يتحدث عن نفسه...

لو عنها لكانت تألمت..اما عنه...فهي تكاد تسقط من هول

ما تسمع...

تصارع دموعها..يديها تتسابق لسد أذنيها..تبعثر شعرها من

كثرة العبث به...

حفرت الدموع وجنتيها وتكومت كالتلال فوقها...ابن قلبها

ينعي حظه العاثر...كلماته تجلدها بسوط قلة الحيلة...كيف

تنجو به...

ليتها وحدها في هذا الجحيم...

"سافِر الى أخي يا طارق..ابتعد عنه..اهتم بعلاجك بني

نفث عن غضبك كما شئت واخضع للعلاج...أتوسل إليك

لا تؤذي نفسك...أرجوك يا طارق، أنا أخاف عليك

انتقامك سيدمرك قبله... أرجوك... أرجوك"

تحاول التماسك، تبتلع غصتها...لقد انتهت واحترقت روحها

وما بقي منها إلا ذرات تنثرها فوق روحه...عله يهدأ

"طارق...انظر الي"

تضع يدها على كتفه، تحثه على النظر إليها، عيونهم الباكية

التقت لتثور بحار الدموع..وتهتاج أمواجها وتزداد قوتها

لتعلم بأن قناع التماسك واهي في تلك اللحظة..لم يكونوا

بحاجة لمسحها او اخفائها..فكلاهما يعلم ما يعانيه الآخر

"انا قادر على فضحه واخذ حقي منه وذلك لن يزيدني إلا

خزيا فوق خزيي، أملي ونجاتي في انتقامي.. أقسم بأني

سأعود... أقوى وأكبر وأكثر غضبا... أقسم بأن غضبي

عليه ورغبتي في الانتقام منه سيزداد ..لن يزيدني بعد الأيام

الا غضبا ولؤما وخبثا في تحقيق انتقامي..انا سأغادر البلاد

لن امكث عند خالي..سأكون وحدي ..لست بحاجة

لكلمات تزيد من غضبي عن عفو وصفح وشفاء...سيكون

كل يوم يمر علي اشعالا جديدا لجحيمي الذي لن ينطفء

اعدكِ أمي بأن حقوقنا سوف ترد . وأن لهذا الظالم نهاية"

وبتلك النبرة الغاضبة أكمل بعد ان التقط أنفاسه

"لابد أن تسقطي هذا الجنين"

شهقت..فقال

"هل تريدين معاناة جديدة تضميها إلينا"

كلماته المتوسلة تشرخ قلبها

"لا، لن أفعل..سيكون طفلي سندك..قد يكون بقعة الضوء

لعودتك إلي..عدني يا طارق بأن تكون له نعم الأخ، قل لي

بأننا لسنا وحيدين وأنك ستكون معي"

عويل..شهقات..كلمات متزاحمة في وقت عاثر...

نفوس ضائقة لا تتحمل ما يلقى على عاتقها...

تركها تسقط ارضا..تنتحب خوفا من القادم ...تدعو الله

بخلاصها من تلك الحياة التي باتت كالقبر المظلم..يضيق

ويضيق..

يعود لواقعه..يمسح وجهه وقد اصابت تلك الذكرى قلبه في

مقتل.. يقوم ليرتدي سترته..ليكون بينهم في لحظات..

مقابلة جادة، وجهه لا يلائم المناسبة السعيدة..

رغم حدة ملامحه الا انه يبدو بأفضل حال من الأمس..

ذقن مهذبة، عين ثابتة، جسد منتصب بحلة سوداء أفخم من

قدر المناسبة..

رحب بالجميع.. ليبدأ الحفل..

صوت كمال الذي ينغص عليها وجودها موجها حديثه إلى

عاليا..

" قالب حلوى رائع، صورتكِ، عمركِ، مليئة بصوص

الفراولة"

ثم خفض بصره عنها في وجود طارق ليردف

" كل عام وانت بخير يا صغيرة"

صوت سلمى الباهت يكرر مثل ابيها

" كل عام وانتِ بخير يا عاليا"

تقدم إليها هديتها التي كانت، سلسلة ذهبية تنتهي بمفتاح

الحياة اقترضت ثمنها من أبيها..ولا تعلم بأن أبيها افقدها لذة

ومعنى الحياة.

إقترب الجد يقدم هو الآخر هديته، التي كانت في علبة

فخمة، انتقاها على ذوقه، ودفع أجرها من راتبه..ولأول مرة

يشعر بوجوده وقيمته، لم يعد عالة على خلود التي تفعل

براتبها ما تشاء ولا يقتص منه شيئا لدواءه كما اعتاد في

السنوات السابقة..

لقد شعر بأهميته وقدره، وجودا من عدم كان مطمورا تحت

انقاضه لسنوات..

أخرجت عاليا الهدية، التي كانت عبارة عن وشاح

وللمصادفة، كان يليق كثيرا بلون ثوبها..

فاتخذته وشاحا يغطي نهديها ..

إقتربت منها خلود..تمسكه عنها

" هذا لا يوضع هنا، بل هنا"

وضعته على رأسها وسط تذمر عاليا..

" لقد كبرتِ يا عاليا، تحشمي قليلا.."

كلمات جدها ، جعلت عاليا تقترب منه في مشاكسة

"اعطني قبلة أيها العجوز"

ينتفض بصخب

" أستغفر الله"

هل إبتسم..لا، لقد ضحك..

شردت خلود قليلا في ضحكته، التي لم تكن من ضمن عاداته، ذلك الوجه الجاد، الذي حفرت ملامحه خطوط القسوة والتجهم..

طارق ليس وسيم ككمال، لكن وجهه المتجهم يقص آلاف الحكايا، يجعلك تفكر كثيرا، ما الذي أدى بشخص مثله مرفه من المفترض انه لا يحمل للدنيا هما إلى هذا الحال..

شعيرات بيضاء تزاحم مثيلاتها السوداء في ذقنه..يمر به العمر في غضب ووجع.

لقد عانى، تعلم بمعاناته، وتعيها جيدا، وتبغض والده لأنه المتسبب فيها..

وتحب وجهه الجديد هذا، المبتسم..

لماذا لا نتناسى الألم للحظات ..

لقد كانت في عز تعبها وارهاقها وافلاسها تتبادل النكات مع جدها..

لماذا لا يخرج من بوتقة الحزن ويتخطى الوجع فكل لحظة آتية بالنسبة إليه ألم لا ينتهي.

ضم شفتيه لينهي ضحكته التي بدلت ملامحه تماما..

مهلا..هل صغر أنفه..

هل تغيب لثلاثة ايام عن الفيلا ليجمل انفه..

لا، لم يفعل..

بل هي من تجمله بعينيها، ربما اعجبت قليلا بضحكته

فتناست أنفه الكبير..

لا، ليس كبير، طويل، قليلا..

" هل تعجبكِ لهذا الحد؟"

لم تلحظ اقترابه منها وهي شاردة..

" ماذا تقصد؟"

" أنفي..! "

" أنفي..! "

تلعثمت تبتلع ريقها، هل لاحظ بحلقتها فيه..

لابد أنها أطالت النظر اليه..فقالت تبدل الحديث

" كيف حالك؟"

يقف جوارها يراقب الحفل الفقير

" بخير"

قال بتساؤل

" أين هدية عاليا..؟"

تقف امامه تحجب نفسها عن الجميع..تخرج من جيب

فستانها علبة صغيرة تحتضن ميداليا فضية رقيقة بداخلها

يتدلى منها اسم الله، بكتابة مزخرفة تأسر القلب..

تراقب دهشته..

" هذه هديتي لعاليا!"

تحد من دهشته..

" هذا ما تحتاجه عاليا"

تكمل كلماتها بداخلها

" كما تحتاجه أنت"

لكن عينيها اكملا ما بدات، وهي تأسر نظراته ولا تفلتها..

تتحرك يمينا ويسارا على رماديتيه..يخفق قلبه النائم بضربات

غريبة عنه ..ينفرج فمه..يضغط على قواطعه..

يزحف اليه شيء..يزيد من انفاسه..

يغلف قلبه برفق مطمئن...

ما..ما الذي يحدث..!!

خفضت نظراتها عنه برقة..تستدير لتمنحه ظهرها..تسير

بخطى بطيئة نحو عاليا..تقاطع رقصها..ليرى الأخيرة تقترب

منه.. يراقب ما يحدث وكأنه جالس خلف حاسوبه..وليس

فردا من الحفل المباشر..

تختطف هديتها من يده..تفتحها..تقبله..

يطالع خلود البعيدة ومشاعر مختلطة تضج بقلبه...

انزوى بعيدا عن الصخب..يشعل سيجارته، يحك

ذقنه..ينفث سمها عبر نافذة البهو..

أخرج من جيبه مفتاح فخم لسيارة أفخم كانت لتنتظر عاليا

في حال فشل خلود في مهمتها..

المفتاح يعلوه طراز السيارة، رأته وهي تقبل عليه تناوله

مشروبا مثلجا... فشهقت وهي تقول

" سيارة!"

رفع حاجبية يلتفت إليها

" هل كنت ستهاديها بسيارة، صدقا!"

تضغط على أسنانها وهي تتحدث من بينهم

" أنت تفسد هذه الفتاة، سيارة وهي في هذا السن.. لديها

سيارة بالخارج وسائق رهن إشارتها، أنت تسهب في إفسادها،

يكفي عدم تواجدك في محيطها، ما فائدة تلك الكاميرات

عديمة الروح في مراقبتها، عاليا تحتاجك"

هل تؤنبه..لماذا يشعر برغبة في الضحك..

ما الذي يحدث معه اليوم، هو لم يتناول الخمر، فعقله سليم

وواعي لما يحدث،لم يجيبها متفاجئا من حميتها نحو عاليا،

ورغبتها في تأديبه

" أين كنت ..؟"

عقد حاجبيه مستفهما، كيف تجرؤ على سؤاله عن مكان

تغيبه..

هل اتسعت عينيها المتسائلة..

تبدل لونهما..، كانت سوداء..بلون ايامه..ما الذي بدلها

للبني..

لون بشرتها الخمرية الرائقة جعلت عيناه تتعلق بها، يتفرس

فيها..

فستانها المحتشم، البسيط..يترك أثرا من الحالمية والرقة علي

وجهها..

انضم إليهم جدها..قبل أن تنال إجابة فقالت

" أسألك لأن عاليا كانت بحال سئ خلال تلك الايام.. لم

تخرج من غرفتها ناقمة على الحياة..أنت بالنسبة لها أخيها،

وفارسها التي لا تراه في أب راقد بين الحياة والموت"

إنقبضت ملامحه على ذكر والده..

لعنت نفسها لأنها ذكرته..

هي لم تره مبتهج كما اليوم، وكأنها تستكثر عليه سعادته..

التفت بوجهه يمينا ويسارا يحاول السيطرة واستيعاب

كلماتها..

انسلت من مواجهته..

لتتركه بصحبة جدها الذي ربت على كتفه..

" حماك الله يا بني، وامد في عمرك لاسعادها"

عم يتحدث هذا العجوز..هل يبدو كأبله يتبادلان اللعب

عليه، هل يعتقد بأن عاليا سعيدة بما يحدث..

" أتعتقد بأنها سعيدة حقا!"

لم يتخيل الجد بأن تكون تلك ردة فعله..

"لديها اخ يلبي أحلامها..صديقتها معها..صخب حفل معد

خصيصا لها..لماذا تحزن اذا"

نفس عميق وكلمات فاقدة للروح

" لأنها في الغد ستكون وحيدة "

" نحن حولها..نساعدها على قدر الامكان.."

دوما يرى التناقض في عينيه..وجع وِحدة..

صخب ووحدة..

عينيه مصوبة تجاه عاليا التي ترقص بجنون..

يراقب كمال عن بعد..

" لا أعلم شيئا عما تعانيه، لكن ..ايا ما كان، إقترب من الله

يا بني"

تربيته رجوليه أخرى على ظهره وغادر خلف خلود..

اشتعلت الشموع..

التف الجمع حولها..

عيونها البنية اشتد لهيبها وهي تتأرجح بين أنوار الشموع..

ظلال رموشه تسقط فوق عينيه لتزيده قوة ومهابة..

إبتسامتها الرائقة التي لا تشبه مِزاجه، تترقرق فوق صفحة وجهها ليهتز شيء ما في قلبه مجددا...

عينيه التي تضحك، بددت القتامة عن وجهه..لتشعر بالخجل والسعادة وهي بصحبته..

تلتف يدي كمال حول عاليا بتملك، يحجبها عن الجميع، وهو يرى تللك الشرارات المشتعلة بين طارق وخلود تشغلهم عنه.. يتحدث اليها

" هديتكِ تنتظركِ في بيتنا يا صغيرة"

ترجع رأسها الى الوراء تضحك بدلال..وعين العجوز لا تفارقهم..

انسحب على الفور بهدوء إلى الملحق..مخلفا انقباضة صدره في الحفل..

سلمى تحمل هاتفها تتلهى به مع فتاتها، وعاليا ترقص

ضحكاتها تعلو وتعلو.. إلى أن رن هاتف كمال .. لتتبدل

ملامحة .. ويعتذر ويغادر بصحبة ابنته..

لم تدرك عاليا بأي مصيبة سقط فيها كمال، ولا اين ومتى

اختفى العجوز..

لم يتبقَ سوى خلود، وطارق..

لاحظت شرودهم وهي تتناول حلوى الحفل..تنحنحت لينظر

إليها طارق..يسبل جفنيه، ينتبه لخلو المكان..

وهنا شعرت خلود بأن هذا وقت هديتها، أخرجت من

الكيس الكبير الذي احضرته..قبعات لعيد الميلاد..إرتدت

واحدة واعطت كلاهما واحدة..

أخرجت صفارات تنقبض وتنبسط بالنفخ..لتوزعها عليهم..

فعلوا كما فعلت..

جذبت عاليا نحو كعكة ميلادها.. تغني وتمرح باغاني تعلمتها من مناسبات جيرانها في حيها القديم.. بينما طارق يستمع لتلك الكلمات ويضحك..

كلمات واغاني مجمعة لا تشبه تلك التي تتلوها الطبقات الراقية..

صخبها لا يشبه موسيقاهم العالمية الهادئة..

من أي مكان هبطت عليه تلك الخلود..!

تمسك يد عاليا تلف بها وتدور..لتتركها تسقط بين يديه ليحملها في سعادة حقيقية ليلف بها وكأنها ابنته..لم يجرب تلك الأحاسيس من قبل..

فعيد ميلادها الأخير الذي اقامته والدته في شقته بالخارج،

كان كارثي بكل المقاييس،وهو يراها تلطخ يديها بالحلوى،

وتعبث بغرفته، وتلوث ثيابه الرسمية..

لقد تشاجر معها ونهرها حتى بكت إلى أن نامت..

مفسدا عليها يومها الذي ظنته سيكون مختلفا بصحبة أخيها

الذي لا تراه إلا في المناسبات..

أشرق وجهه.. تقسم بأنه ليس طارق الذي سلمها العمل

ولا من جعلها تقترب من عاليا، وليس هو ذاته من ثار منذ

أيام ورأته بعينيها على ذاك الحال..

عروق رقبته مشدودة من حمل عاليا.. تفاحته تتحرك وهو

يرفعها ويرفع رأسه عالياً يدور بها بعد أن سقطت القبعة عن

راسه..

يضحك وهو يتحدث إليها بينما عيني خلود تراقبه..

ولاول مرة هي من تراقبه لا هو..

مراقبة حية، من لحم ودم، صورة حقيقية تراها بعينيها لا

عدسات كاميرا مستحدثة كالتي يملكها..

أنزلها.. يمسك بيدها ليرقصا سويا..

يضمها اليه بحنان غريب على طباعه..وضحكة عاليا

بشقاوتها..تسدل الستار على حفل..مبهج.. أسعد قلبها..

***

وحيدة بصحبته، تبحث عن جدها بعد ان تركتهم عاليا

لترتب ثوبها..البهو يتسع عليهما..

أضواء خافته، وكأنه حفل عرس..

حاولت المغادرة، فأمسك ذراعها..

انتفضت تبتعد عنه فقال عنها

" استغفر الله العظيم"

تبعها بابتسامة زحفت إلى قلبها فخدرته..

" هل تسخر مني..!"

نفى برأسه كلامها..فتحدثت بعملية

" أشعر بشيء غير سوي بينها وبين كمال"

إستشعر خطورة كلامها، فاسقط عنه المرح، وان احتفظ

بالعبث قليلا

" هل تحدثت اليكِ بشيء؟"

" لا، ولكني لاحظت نظراته اليها، هو مريض يا طارق قد

يفعل بها أي شيء"

لقد اعتادت الدعاء له باسمه مجردا، تتحدث مع جدها عنه

باسمه.. هذه السقطة الغير مقصودة منها..

مختلفة.. نكهة اسمه بهذا الإهتمام مجردا أشعرته بالاختلاف..

تجاوزت عن سقطتها واردفت

" اهتم بالامر.."

قالت باستجداء

" لا تتركها هكذا مجددا، تشعر بالتيه بدونك"

لا يعلم أتتحدث عن عاليا أم عن نفسها..

لماذا يتخبط هكذا أمام كلماتها..

تستجديه اهتماما لها، ام لعاليا..

عيونها المتعقله بعيونه.. المتشبثة بسعادته..

تطوقه باهتمام بالغ وحنان لا يسعهما فانسكب ليصل إلى

قلبه..

قال مطمئنا

"لن أبتعد مجددا"

وهكذا نالت وعده..وهو لا يعلم هل وعده لها أم لعاليا

تشوشت أفكاره، واختلطت وعوده..

لم يعد يفهم نفسه..، ما بال هذه الليلة ، تكشف له عن هيئة

جديدة بداخله لم يكن يعي بامتلاكها..

" جدي.. سأذهب.."

" ابقي قليلا، عاليا ستعود.."

" لدي عمل في الصباح"

" أليس هناك يوم أجازة!"

" رب عملي حاد الطباع، لا يمنحني أجازات"

تلعب، تراوغ، تأسر..

لولا معرفته لتاريخها الطويل لظنها تغويه..

لكن ليس إلى جسدها الذي لم يظهر منه شيء منذ قدومها

إلى موطنه..

انما تغويه ليستزيد من صحبتها ولو بالقليل من الوقت..

" منحتكِ أجازة في الغد..ابقي قليلا يا خلود"

هل رق صوته وهو يناديها باسمها، هل ذاقت حلاوة" خلود "

هكذا من قبل..

جدها ليل نهار يناديها

" يا خلود، يا خلود"

ولم تستلذ اسمها إلا من بين شفتيه..

حسنا لقد تطور الأمر..ووجبت المغادرة، قبل أن تقبله على

مرأى من الجميع..

استدارت، وكالاميرة غادرت الحفل..

بينما بقيت عيناه عالقة عليها وهي تغادر.

***

أراد بمزاجه الرائق هذا أن يواجه عمته في القبو، ليرى أثر

خلود عليه..

دلف إلى القبو..الذي لم يدخله منذ ثلاثة ايام، تاركا

لها..الفتات من الطعام تقتات عليه..

تنام على الارض، يوقظها فتقوم من فورها..

تبادره بسؤال مل منه.. فلطالما سألته إياه فور رؤيته منذ

احضرها الى هنا

" من أنت؟"

لكن السؤال هذه المرة، جعله يفكر قليلا..

من هو حقا، أهو المنتقم الذي يرغب في نيل حقه..

أم رجل نال قدر يسير من السعادة منذ قليل..

أم طفل فر إلى أمه ليقص عليها ما حدث في يومه..

لطالما مثلت له تلك الجالسة أمامه ، أما ثانية له..

منذ هرب إليها من صغره، من قسوة والده..واستئمان

والدته لها..

سفر زوجها الدائم جعل من بيتها ملاذ آمن له..يهرب به من

قسوة عيشه..

أعطاها الطعام فالتهمته، جوعا ونهما..

كم مرة اطعمته في بيتها، من يديها، كم مرة تألم وارتفعت

حرارته لتخفضها بكمادات أيقظتها طوال الليل..

لماذا يعاقبها ولأجل من..

عمته لم تسيء لحقه، أو سلبته شيئا..

ما الذي كان ينتظره فور معرفتها بما حدث له..

ان تقتل اباه..

أن تطلب الطلاق من زوجها..كما فعلت أمه..

ليس ذنبها وفاة زوجها قبلا فيصب جم غضبه عليها هي..

أمسك رأسه.. يصارِع فكره الجديد..

هو لم يستطع تعذيبها على كل حال .. فأوكل الأمر

لكمال..

حنانها على مدار سنوات عمره لم يشفع لها في انتقامه..

لكن شفع لها بأن لا يكون بيده..

" استغفر الله العظيم"

ضحك، ضحك وبشدة..

يستغفر على ماذا وماذا؟

يتذكر كلمات العجوز

" اقترب من الله"

لقد ابتعد، وكثيرا، حتى اختلط عليه الحق بالباطل..

خلود وجدها..

جعلاه يستغفر مرتين في ليلة واحدة..

يضحك ثلاث مرات في ليلة واحدة..

يشعر برغبة حقيقية بعدم الانتقام من عمته..

هي كالأطفال، لا تعي ما حولها من الأساس..

يعاقبها على ذنب ليس لها يد فيه..

ويعاقبها وهي لا تعي انتقامه، لا تفهمه، لا تعرفه، ولا يستلذ

به..

ظل ينظر إلى وجهها..كدمات.. جرح شفتيها..يتذكر وصف

خلود لضرب كمال لها بقسوة..

تنهد مؤنبا ذاته ..

إلى أن خرج له كمال من أفكاره لهاتفه..

أجابه يستمع إليه..

" لقد افتضح أمرنا، مقاطع مصورة من الدار، تحمل آثار تعذيب على أجساد النزلاء، والعنوان" انتهاكات داخل دار المسنين، التي يملكها طارق الرشيد""

الفصل العاشر

**

تتعلق بي وكأنك طفل يجتث منابت الألم ليستبدلها بالفرح

والدفء من خفقاتي..بحبورٍ تنتظر وتترقب...وتشتاق.

***

تتقلب في فراشها، تشعر بالأرق الشديد، تفكر فيه، شتت

كل أفكارها لتظل أسيرة رقته اليوم..

لقد كان رقيق، لا ، لا يليق به لفظ رقيق.. بل حاني..

لقد كان حنون مع عاليا، هادئ معها..مراقب لباقي الأجواء..

لقد سباها اليوم بأفعاله، طارق العظيم نزل من علياءه، ليتحدث إليها، ويرتدي قبعة طفوليه فوق رأسه، كانت رخيصة، لا تتفق مع زيه الثمين، ولا تشبه فخامة فستان عاليا أيضا، لكن بساطة هديتها سكبت السعادة فوق رؤوسهم ...

وضعت وسادة فوق رأسها.. تستجلب النوم وما من ملبي..

مكوثها في السرير لأكثر من هذا سيكون سببا في زيادة أرقها..

قامت لتخرج الى جدها، تتأفف من عجزها عن النوم، تربط حجابها، فلازالت تخشى الكاميرات ولا بأس في الحيطة..

" أشعر بالارق..سأتمشى بالخارج يا جدي "

يتوقف عن تلاوته، يرفع رأسه إليها

"الآن!"

"نعم، لقد حاولت النوم لم أستطع، عل نسمات الهواء

بالخارج تضربني على رأسي لأسقط صريعة النوم"

يترك المصحف من يده يستعد لضربها

"ولماذا تحتاجين ضربات الهواء، أنا موجود"

تحاول الركض بعيدا عنه، تغلق الباب خلفها، تدفس فمها في

إطار الباب المغلق لتقول

"لن اتأخر"

يضرب كفا بكف..مستسلما لمشاغبتها..

تلعب في الزهور، تتلمس الحشائش بقدميها الحافية..

تفرد ذراعيها، تحتضن الهواء، تعانق السماء المظلمة بعينيها..

اليوم مزاجها رائق تماما، مستمتع، متحمس..

تود لو تراه مجددا، تتبادل معه الحديث، يلاطفها بالكلمات، تستمع إلى صوته الحاد الذي يسكرها..

تلتف حول الفيلا في بقعة بعيدة عن الأنظار لا يذهب إليها أحد، جذبت أنتباهها لإفتقارها العناية، جرداء، تختلف عن باقي الحديقة الغنّاء..

باب كئيب يحجبها عما بالداخل، تحسسته تفكر في أنه ربما مخزن لأثاثهم البالي، أو ربما مخزن لأدوات الجنايني الذي يهتم بالزرع..

تعثرت أفكارها وهي تراه يخرج من أفكارها ومن هذا المكان، بكامل أناقته التي تركته بها منذ ساعات.. لكن علامات

الغضب تكسوه..

ترى، ما سبب وجوده هنا في هذا الوقت!

تلاقت كلماتهم في سؤال مشابه منهما معا

" ما الذي تفعله/يه هنا؟"

كانت لجلجتها وارتداداتها للوراء اقرب للمنطق فهو في ملكه

على كل حال..

" هل تتلصصين علي؟"

طارق الرقيق، الآن كالقط البري الذي يوشك على التهام

طريدته، جفونه حمراء وكأنه كان يبكي حتى جفت عيونه

والتهبت، لا تعلم ما سبب تبدل حاله هكذا، الا أنها رغبت

في تهدئته

" أبدا، لقد.. شعرت بالقلق"

أشاح بيده في وجهها قائلا بصرامة..يقاطعها

" هذا المكان ليس للنزهة، إنه محل عملك يا آنسة، إلى

الملحق في الحال، ولا تتعدي حدودكِ يا خلود"

ضحكت بسخرية، أليس هو نفسه ذلك الشخص الذي

توسلها البقاء منذ لحظات في الحفل..

لم يتفوه بشيء آخر، مضى في طريقه..مخلفا ثورة من الأفكار،

وفيضان من الإنفعالات لا تنتهي بداخلها ..

" ما الذي أتى بكِ الى هنا؟"

ألن تنتهي هذه الاسئلة، التفتت منتفضة إلى جدها تجيب

بنزق

" أقسم بالله كنت أتمشى"

قال بحذر وهو ينظر يمينا ويسارا

" المكان قابض يا خلود، تتصرفين كالأطفال، هذا ليس بيتنا كي تقومي بهذه الأفعال"

يبدو أنها تمادت، عيون جدها القلقة تخبرها بذلك..

لقد تبعها..لم يطمئن قلبه إلا برؤيتها...يحاوط كتفها..يضرب رأسها

"أظن بأنه حان وقت النوم"

وبعد أن خزلها طارق، وتحدث إليها بحدة...

فالأفضل لها الآن.. النوم...

***

يقف أمامه بثقة تتنافى مع تلك المصيبة التي اقترفها..

بينما طارق يكاد يتميز غيظا من جريرته..

" لقد حذرتك من أفعالك، ونهيتك عما تفعل ضد النزلاء..،

لماذا، لماذا؟"

ينهي تساؤله بنبرة حادة أشبه بالصياح ..ليجيبه كمال ببرود

" أنت تعلم لماذا، أنت خير من يعلم شعور الألم وتسكينه

بايذاء الغير"

قال بقوة

" لا تشبّه نفسك بي، أنا غيرك"

" لا نختلف كثيرا عن بعضنا البعض يا طارق"

أعطاه ظهره يتنفس بقوة، وغصة مؤلمة تتشبث بحلقه، تغرز

اشواكها تمنعه الحديث..

كمال، الذي تدرب على يديه، كي يتخلص من غضبه..

فانعكست الغايات والوسائل ليصبح كمال الآن هو السبب

في جل غضبه..

" ستترك العمل"

عقد كمال حاجبية، لم ينتظر هذا، ظن بأنه سيطرد خلود

التي حتما من تسببت في زرع تلك الصحفيه التي صورت

فيديوهات خبيثة لتعذيبه للنزلاء، هم كبار في السن، ليس

هناك أحد بحاجتهم، فلماذا لا يستغلهم في نشوته، وسفهه.

" هنا، وهناك"

إزدادت انعقادة حاجبية بتساؤل فأوضح طارق

" ستترك العمل في الدار هناك، أنت بالكاد كنت تتواجد،

وستترك العمل عندي، فسمعتك باتت ملتصقة بي، فلابد

من قطع كل الخيوط"

ثار كمال، يصرخ بصوت حاد

" ومن أين أعيش، سأترك أعمالي كلها وأجلس في البيت

كالنساء"

حدثه طارق بسخرية

" تقصد، من سأعذب"

ثم أضاف بجدية

" لقد حذرتك يوم تعرفت عليك خلود"

حك أنفه بغضب ليردد

" خلود، هي تلك الأفعى، هي السبب فيما يحدث"

ثم صمت، يفكر، بينما طارق يزيح رابطة عنقه تماما عنه..

يتجرع كوب قهوته بحنق، يُخبِّط بالقلم على سطح مكتبه..

" تزوجها يا طارق.."

توقف قلمه، وانتبهت حواسه، ضاقت عينيه

" هل جننت! "

" تزوجها، أو اتزوجها أنا"

خفقة شاردة من بين خفقاته اشتدت، حتى انقطعت، كيف يتزوجها كمال ولمَ..

وضع يده أسفل ذقنه ليستمع، حتى ينتهي هذا الأحمق من خرافاته

" لا تقنعني بأنها لم تعلم بأمر والدك حتى الآن، تتقرب من عاليا وتعلم خباياها، تعيش معك في بيت واحد، ألم تلاحظ شيء عليك، ألم تعلم بأمر عمتك الملقاة في القبو"

لازال طارق على حاله، يستمع بعمق لتلك الكلمات التي لا شك في صحتها..سيمرر الشق الخاص بعمته فلاشك بأن كمال استقصى عنها جيدا بعد وضعه لها في الدار بدون أوراق تخصها..

لطالما كان ذراعه لتنفيذ انتقامه من والده على مدار سنواته

التي قضاها خارج البلاد..

كان يخطط، ويرسل لكمال كافة الاحتياجات لينال من

أبيه...ليتعثر الأخير في اموال ...صفقة خاسرة...

صفعات بليدة كانت تصبره على انتقامه الأكبر الذي كان

بيديه ..لكنه لا يستطيع تمرير الشق الخاص بعاليا

" كيف عرفت بأمر تودد خلود إلى عاليا؟"

وكأنه كان يعد الإجابة مسبقا قال كمال

" سلمى أخبرتني، لقد كانت تنتظرها ليتسوقا سويا قبل

الرحلة، وفوجئت بها تخبرها بأنها ستصحب خلود"

لحظات مرت وعيون طارق مثبته على وجهه يتحرى صدقه

ليقول

" لسنا بحاجة للزواج منها، هي بين قبضتي على كل حال"

" لا ، ليست كذلك، إن ظننت بأن فضيحتها السابقة ستقيدها ان أمسكت دليل ضدنا، فاسمح لي أنت أحمق"

ضغط على أسنانه..فالذي بينه وبين كمال ليس علاقة رئيس بمرؤوسه، بل علاقة متبادلة من المصالح.. بدءا من تسهيل اقامة الاخير في بلاد الغربة...مقابل تنفيذه لما يخطط له طارق..

لطالما عجزا عن فهم بعضهما البعض..لقاء عابر في طائرة جعل منهم شركاء في وجع لا يعلمه كلا منهما عن الآخر... وحّدهم الالم..وفرقتهم طريقة تفريغ كلا منهما له..

" خلود يا طارق، قوية، أن تتهجم علي وتحاول الاستقواء على رجل مثلي، لقوية، لقد حاولت جذب العصا مني

للدفاع عن عمتك، وشت بي عند تلك الصحفية، تزحف

ببطء نحو عائلتك.. ستعلم كل ثغراتك ولن تقدر على سد

ايا منها"

" شهادة خبرة من طارق الرشيد ستحسن مستواها

الاجتماعي عندما تغادرني"

"ومن اين لك بالكتمان حتى تغادر، لقد تمكنت منا يا طارق،

استمع الي..تزوجها، هي لن تستطع الإضرار بزوجها، ابو

اولادها، ستحتفظ بكل أسرارك خوفا عليك، لا منك"

" هكذا زوجتني منها، وجعلت لي منها اولاد.."

دار طارق حول مكتبه ليقف امام النافذة بشرود..

داخله يغلي من تصرفات كمال المشينة التي أدت به

لفضيحة ستتناقلها الصحف لفترة طويلة..

" هل ستتركني اتعرض للمسائلة القانونية"

" ليس بيدي شيء يا كمال، ان لم أفعل سأسائل أنا، وهل

يرضيك بأن احاسب على خطأ ليس لي"

ثم اقترب منه ليربت على كتفه.. ينهي اللقاء..وسط تذمر

كمال.. وحنقه..

***

مساءً

كان على موعد مع تلك الصحفية التي نشرت الخبر،

وتسببت في الفضيحة، يهندم مظهره..يرتب هيئته..يستقبلها

قبالة بابه..

يصافحها بحرارة..يشير إلى مقعدها يسألها

" ماذا تشربين؟"

" قهوة"

جلس أمامها، بمهابته المعهودة .. يرفع حاجبا دون الآخر

يتأملها..وكأنه رآها من قبل..يرفعِ أصبعه ناحيتها مستذكرا

" أنتِ.."

" نعم أنا، وأنت مجددا، يبدو بأن لقاءاتنا لم تنتهِ بعد"

إنقبضت ملامحه..يسألها وقد تبدل ترحابه إلى ضيق

" ماذا تريدين؟"

" أنت من أرسلت في طلبي.."

يسترخي على كرسيه المريح في زاوية أكثر دفئا في مكتبه

بعيدا عن طاولة الاجتماعات..والعمل..

" كمال، الذي صورته في هذا الموقف المشين، تم فصله.."

تصنعت التفكير لتقول

" من إدارته لدار المسنين، أم إدارة مكتبك"

أشار باصبعية قائلا

" الاتنين"

هبت واقفة

" لا اصدقك طارق الرشيد، أنت تدوس على الجميع، المكان باسمك، أنت من ستحاسب، وهذه الحركات الدبلوماسية لن تنفع معي، كما حدث سابقا، لقد توسطت سابقا لتنال قاتلة برائتها"

وقف مثلها ، يتحدث إليها بهدوء، جاهد بان يبقى

" لقد كان قتل خطأ"

تساقطت دموعها، وكأن أحدهم نكأ جرحها

" كانت لتنل جزائها لولا تدخلك"

ثار في وجهها، وقد انقطع حبل صبره

" أنا لم انقذها، لقد اعترفت بأنها من فعلت، ولكن عن طريق الخطأ"

" وتلك الفتاة التي كادت بأن تدفع ثمن خطأها، ولم يهتم أحد بها، وحتى الآن على حسب علمي، لم تجد عمل"

تنفس الصعداء، حاول السيطرة على غضبه، فكل الخيوط تتشابك وتسقط عندها، هي..

" خلود تعمل عندي، ممرضة دائمة، لحالة والدي الغير مستقرة"

" اذا طارق العظيم يكفر عن ذنوبه"

" أستغفر الله العظيم"

يمسح على شعره..

تتفرسه، تجاهد نفسها كي ترى الحقيقة في وجهه..

" تلك الطبيبة، لم تقتل أباكِ..."

همت بالمغادرة لتلقي آخر كلماتها

" هي قناعات"

استوقفها بهيمنة لم تخطئها عينيها..

" كمال تم فصله لانتهاكه القوانين ، وهو مسؤول عن أفعاله

التي لا علم لي بها، وسأقاضيه، رغبت بأن تعلمي، وتتوقفي

عن نشر الفزع عن مؤسستي لرعاية المسنين، فهم بحاجة

للمأوى والرعاية.."

مد يده يصافحها، يعقد اتفاقا جديدا معها

" سأحرص على ذلك بنفسي"

تجاهلت كفه، لتغادر سريعا، مخلفة غاضبا ، هائجا خلفها،

يخبط بكفه فوق الباب الذي اغلقته للتو عدة ضربات،

جعلت كفه يتشنج بقوة...

كل غضبه كان نحو كمال، لا يرى خلود سببا لما يحدث،

هي في النهاية تدافع عن أناس مستضعفين، بينما كمال يجور

عليهم بسادية مؤلمة، تهدد حياتهم.

يحك مؤخرة رأسه، يتنفس دخان سيجارته، يضع طرف إبهامه

في فمه، يضغط عليه باسنانه..يردد

" أتزوجها!"

رغم حنقه عليه إلا أنه يملك الحق في كلماته، خلود لو

علمت حقيقته، لن تتوانَ عن سجنه، وفضيحته..

وهذه المرة ستكون الثالثة، والقاصمة..

طارق الرشيد يجلد والده ويتسبب في غيبوبته..

يعذب عمته ويحبسها في قبو مقفر بلا طعام..

حيوان بائس جائع الى التعذيب.. ووقتها ستلبسه تهمة دار

المسنين وليس كمال..

وهكذا تفتح أبواب النار عليه، بسببها..

أطفأ سيجارته.. يدير صراع من نوع آخر برأسه..صراع

يسمى

" خلود"

***

تلقت رسالة منه بأن تلحق به في بهو الفيلا..

ذهبت لملاقاته، وتقبل تقلباته، والاستماع لأوامره..

وجهه على ذات الحال منذ الأمس، يزداد انهاكا وحدة،

لحيته لازالت على طولها، لقد كان حريصا دوما على ازالتها،

لاتنكر وسامته بها..لكنها تكره غضبه..يتقلب بين الفينة

والاخري من حال إلى حال.

يتماسك كي لا ينفجر ضحكا من مظهرها الغاضب،

وحذرها المقترب معها بتؤدة..

ونظراتها المؤنبة التي توجهها نحوه..

شفتيها تتحرك بما يشبه الهمهمات، تقترب ببطء يماثل حركة

السلحفاة لملاقاته..

وقفت أمامه.. قصر قامتها انعكس الآن وهو جالس أمامها،

رأسه في مستوى صدرها

" اجلسي"

تخاصمه بكلماتها

" هل تأمر بشيء"

" اجلسي يا خلود ، لا تتعاملي كالاطفال"

" لست طفلة، حينا غاضبة، وبعدها عابسة، ومن ثم ثائرة"

هي تضربه بالكلمات، تظن بأنها كالسياط ، بينما طريقتها تضحكه

رفعت حاجبيها بدهشة، تنتظر سكونه، ليتحدث

" حسنا، لقد أثرتِ غضبي بالامس، ما شأنكِ وتلك المنطقة من الفيلا، هي بلا حياة، مظلمة، ليست مكانا لكِ، ولن تأنسي بها"

تتحدث إليه وكأنه حبيبا تلاقيه ويسترضيها..

" كنت أشعر بالارق"

" لماذا!"

بساطة سؤاله، تنحيه عن جديته، بل ومحاولة اعتذاره الخفيه

لها.. اربكتها..

هل تخبره بأنها كانت تفكر به..

" ما الذي أرّق نومكِ يا خلود؟"

ربما تجيبه بشيء ينتظره، أو باجابات يرغب في معرفة هل

تملكها أم ما زالت خفية عنها..ففاجئته بخجلها

" في الحفل..رقصك مع عاليا كان ممتع، تلك القبعة التي

كنت ترتديها، كانت مضحكة"

" لم يبدُ عليك"

" كنت اكتمها"

" لماذا"

" وهل بامكاني أن أضحك أمامك"

قام لتستصغر نفسها في حضرته.. يلف حولها بحلم وعينيه

لا تفلتها

" إجلسي يا خلود"

لفة أخرى، مع كلماته

" واضحكِ"

وقف قبالتها

" إفعلي ماشئتِ..أمامي"

إرتفعت خفقات هذا الملتهب بين أضلعها..

أنفاس حارة زفرتها كتنين ينفث ناره للحماية..حفاظا على

سلامتها امام رقة كلماته

هبوط صدرها وارتفاعه، يراقبه..

يستشعر نظرات خجولة منها نحوه، نظرات أنثى تخجل من

كلمات رقيقة تخشى توهجها ليصير واضحا للعيان بريقها.

يكمل قاطعا شرودهما..باشارة من يده .. ليجلسا معا..

" كيف حال جدكِ؟"

" بخير"

" هل يمكن أن يعمل معي.."

مستفهمة قالت

" أين؟"

مجيبا لها

" دار المسنين التي أملكها.."

تبدلت ملامحها

" لم أكن أعلم بأنك تملكها"

نظر أرضا..يستمع إلى توبيخها..

"لقد أخبرتك عن كمال، وسألتني وقتها كيف له ان يدير

عملين..كنت تعلم"

تبدل العبث..والتمعت شرارات الغضب..فأردفت

"هل كنت تعلم بتعذيبه للنزلاء"

"لا"

اجابة قاطعة بصوته الأجش، تبعتها بسؤال آخر

"لماذا تخفي أمر امتلاكك لها؟"

"وهل يجب علي عمل دعاية لما أفعله من خير؟"

ألجمها، سدد كلماته بحسم لا يمت للجدل الذي كانت

تنتويه..ليعاجلها

" هل يمكن لجدكِ إدارتها.."

بهتت من كلماته

" جدي!"

أومأ برأسه

" لن أئتمن أحد سواه، هو مثلهم، ويعلم جيدا كيفية التعامل

معهم.."

صمت وهي كذلك.. علامات التفكير تعلو وجهها، ليقول

" أنا أثق به.."

نظرت إليه منهكة

" يكفيه الاهتمام بأبيك"

بدت الحيرة على وجهه

" جدي لن يستطع الموازنة بين الأمرين، هو يتحامل على

نفسه مع ابيك يرتجي الثواب من الله، لا يمكنه الإتيان

بعملين"

حسم أمره..

" سأفعل أنا.."

بامكانه الإهتمام بابيه، فلا يجوز معرفة أحد عما ألم به سواه

.. لا ينقصه أغراب آخرين يخشى حديثهم..

وايضا لا يمكنه ترك أعماله ليدير تلك الدار..

استغراب، ما نال منها هو الاستغراب التام..

تباغته بسؤال آخر

" وماذا عن كمال، يستحق الشنق، هذا الغبي عديم

الرحمة.."

يضع ساقا فوق الأخرى يجيبها

" لقد فصلته عن العمل، وسيتم التحقيق معه"

" أذله الله وشتته، اللهم لا راحة له، يشقى في دنياه دوما"

تدعو على كمال..

ماذا لو علمت بأمره هو، ستصعقه حيا..

سينال الصعق من تلك القزمة الصغيرة..

تهللت أساريرها وهي تقول

" هناك حفل غدا، في مؤسسة الأطفال التي تتبرع لها ، هل ستأتي"

انبسطت ملامحه بسعادة اكتنفته، لم يغضب لمعرفتها بعمله الصالح..الذي يخفيه عن الجميع..يستمتع بذاك البريق الخلاب بعينيها..

" متى؟"

" ليلا، هل ستذهب؟"

"ان كان معكِ، فأجل"..

يرقق صوته لها، بعين يشوبها المرح والمزاج الطيب يتفرسها..

وبعين يملؤها الفرح من قربه منها تناظره..

همت بالمغادرة فقال

" ابقي قليلا"

" لقد بدأت أتشائم من هذا القول، وعندما تراني لاحقا

تنهرني، وتصرخ بي..، لا .. لن أبقى.. سيد طارق"

لماذا تضع الحدود بعد سقطتها المثيرة بالأمس ومناداته بأسمه

مجردا..

غادرت وعينيه تتعلق بها، كيف تثير احترامه وحنانه الذي

اندثر منذ زمن مع رغبته في الانتقام..

هي تثير به مشاعر متضاربة متخبطة متصارعة، بين الطيب

والخبيث..هو في منطقة زيتيه لا مكان لها من الاعراب بين

الابيض والاسود..

***

يسير في طريقه إلى السيارة..

تعثرت أذنيه بصوت عواء ، لم يكترث في باديء الأمر

وأكمل طريقه إلا أن العواء قل ..اصبح كالأنين..وكأن هذا

الكلب يصارِع الموت...

إلتفت برأسه يمينا ويسارا يبحث بعينيه عن مصدر الصوت..

فلم يصل لشيء.

تخطى البوابة الكبيرة..ليغادر إلى عمله...

ترافقه عينيها تودعه..

لقد مس شيئا ما في قلبها...

هذا البائس..القاتم..الذي ينعي ذاته على الدوام..

تتتبع خطواته الواسعة..كتفيه العريضين من الخلف في زيه

الرسمي الأنيق...

سريع الخطوة.. مخيف الطلة..

إلتفاتة جسده وهو يبحث عن شيء لا تعلم ماهيته..ربما

سقط منه جنيها فيبحث عنه...

ضحكت من بلاهة تفكيرها..طارق يحمل جنيها..ربما يحمل

الورقة التي لم يتم اختراعها بعد بألف جنيه مجمدة بورقة

واحدة...

هل تحسده!..فكانت ضحكة أخرى..

تغلق عينيها..وهي تسير نحو البوابة هي الأخرى في محاولة

لتتبع خطواته...

تستمتع بملمس الشمس على وجهها..رغم حرارة الجو إلا أن

هناك نسمات تأرجح أفكارها..فتجعلها كالمنومة لا تشعر

بلسعات الحر...

"هل تبحثين عن شيءٍ ما!"

شهقت..تضع يديها على صدرها.. تحاول التقاط أنفاسها..

"لماذا عدت...أ..أقصد..هل نسيت شيئا!"

تفصد العرق فوق جبينها..ولوهلة توقفت النسمات..وبقيت

حرقة قربه...

يراقب تبدل حالها منذ رأته..يكاد يسمع خافقها من

مكانه...

إرتجاف يديها..ربما لأنه أفزعها...وربما لأنه يقترب منها..

هو لا يفهم ما الذي يفعله معها..

هل ينفذ ما طلبه كمال..

أم هذا ما يميل إليه بنفسه ..

صوت العواء مجددا..ضيق عينيه يضع أصبعه أمام شفتيه

يحثها الصمت...

ودار بعينه مجددا..تتبع الصوت هذه المرة بإصرار...

كلب صغير.. صوته أثقل من حجمه..

ينام أرضا بين حشائش حديقته...

"يا إلهي..قدمه مكسورة.."

كانت كلمات خلود الحانية...

"أحضري ضمادة يا خلود.."

عبست..متسائلة في نفسها..هل سيضمد قدمه المكسورة

هو لا يعرف شيئا عن الطب على كل حال..

حثها بهدوء

"هيا"

وفي لحظات غيابها لتنفيذ أمره..كان قد أمسك قطعة خشبية

صغيرة ملقاه أرضا..قلص حجمها بيديه..وضعها أسفل

ساق الكلب الصغيرة، في ذات الوقت الذي وصلت اليه

خلود...

فأمسك الضمادة يلفها على قدمه...في محاولة بدائية

لاسعافه...

تتابعه بعينيها..

حركات يديه في مداواة الكلب..

سرعته ومهارته...

رقة قلبه التي لا توائم ما يفعله بنفسه...

"لماذا عدت؟"

أيخبرها بأنه منذ شاهدها في حفل الأمس الخيري وهي تشغل

باله بطفوليتها...

كان يراقبها من مكتب المدير، حيث جلسته المفضلة في كل حفل، كان ليتسلى مع سيجارته وهو يشاهدها، إلا أنه يتبع سلامة الصغار ولا يدخن في المكان..

تلك السعادة المحفورة على وجهها تنبثق مع عينيها..

ماذا فعلت في حياتكِ يا خلود لتنالي تلك الراحة والسعادة..

كان ينظر ليديها المجنونة وانقلاب وجهها وهي تقلد أرنب، أو فأر..

قام وقتها متجهما ..متحفزا ..بعد أن سقطت وهي مغيبة ضحكا فوق الحشائش متألمة..

لقد سقطت أمامه منذ قابلها كثيرا، تعاني عدم اتزان وبلاهة لا نهاية لها..

أم يخبرها برغبته في استكشافها كما لم يفعل مع إمرأة من

قبل...

بدأ الكلب يعوي من جديد..

"ألن تأخذه الى طبيب..!"

عقد حاجبيه، يجيب بخشونة

"إهتمي لأمره"

"أنا لست ممن تهتم بالحيوانات"

قام من جثيانه..ينفض كفيه وقد بلغ منه الحر مبلغه...

"إنه مريض.."

"ليس هذا مجال عملي"

قال وقد أوشك على الصياح بها

"إهتمي به يا خلود لأجلي..هل إرتحتِ الآن"

ما باله يضغط على قلبها، ألا يكفيها شفقتها عليه،

يستجدي قلبها المنهك طلبا للرحمة لأجل كلب...

ألا رفقا بقلبها...

لأجله...هي كلمة من حروف قليلة تسببت في هياج

نبضها...

لأجله تفعل أي شيء..

"حسنا، سأهتم به، هل أسقيه لبن، أم أبتاع له اللحم، ربما

أتسوق له وأجلب له طعاما خاصا بالكلاب"

"ما الذي تهزين به، ما الذي أصابكِ؟"

تتلجلج في قولها، هل تغار...

من كلب، مريض، هزيل، عديم الفائدة...

تبتغي اهتماما منه، تتمنى لو كانت كلب ليشعر بها...

تنحنحت تغطي على خيبتها...

"أنا آسفة سيدي، سأهتم به"

بكلمات مقتضبة انهت الحديث، تغطي على إحراجها..هل

تتوسله الحب، كيف سيفهم حركاتها الغبية تلك...أتغويه؟

لا يفهم ما الذي تفعله، هل جنت، يشاهدها تمسح عرق

جبينها تخبره بأنها ستهتم بالكلب...

ستسقيه..وتطعمه..و.....

هل ستفعل معه كذلك لو تزوج بها..تزوج..من جديد

كلمات كمال...

هو لا يشعر بالتهديد منها..خلود لن تستطيع تهديده...

للحظة تذكر خباياه اللعينة...وللحظة يثق بنزاهتها وعدم

تسترها على الخطأ...

يحتار هو فيها .. بكل بساطتها معقدة بالنسبة إليه...

"أنا..سأغادر.."

تكرر سؤالها عن سبب عودته..تعلم بأنها لا يتوجب عليها

السؤال..وبأنه لن يجيبها...

"لقد عدت من أجله.."

تنظر اليه باتساع عينيها...وكعادة الشمس عندما تسقط على

اي عين مهما بدت حالكة السواد تجعلها تتلون ببريقها

الذهبي...

وكأن شعاعا ما..إخترق جسده بتلك النظرة...

يسير بخطى عكسية إلى الخلف..وجهه لها وظهره بإتجاه

البوابة...

الى أن صعد سيارته..وغادر...

***

هدوء خادع يكتنف جلستهم حول الطاولة خارج الملحق،

يفتتح كلماته معه، يحثه على القبول بتلك المهنة الجديدة التي

يلصقها به

"لا يجب عليك التواجد طوال الوقت هناك"

يقدم له قهوته التي أعدها خصيصا له بيده

"كمال كان يذهب في أوقات متفرقة، كلما سمح وقته"

يرتشف من كوب العصير المثلج أمامه فهو لن يجلس براحة

فارغة يشاهد طارق وهو يرتشف قهوته

"الأهم هو اختيارك لمن ترأسهم، تحفيزك لهم، الإستماع

لمشكلاتهم وحلها"

يخبره بأن تواجده في الدار ليس بالكم،انما بالكيف...ليس

بكثرة تواجده بقدر ما يكون مؤثر...

كما كان يفعل كمال بالضبط...

يذهب إلى الدار ساعات معدودة...

يدميهم ويعود إلى نمط حياته الطبيعية بدون ذرة تأنيب لذاك

الراكد في قلبه..

يبسط يده على الطاولة في انتظار رده، قال العجوز

"لقد أخبرتك خلود بسادية كمال"

ضغطة بسيطة على أسنانه فضحت صدمته من حديثه...

رفع وجهه قليلا اليه، ينتظر باقي تأنيبه

"لماذا لم تمنعه عن الدار وأنت مالكها؟"

يعقد ذراعيه حول صدره، يتنفس ببطء، نظرات العجوز

الثاقبة، وكلماته المتهمة المؤنبة، لا تساعده على اختلاق

كذبة ستفضحها بصيرته النافذة...

يكسو صوته بنبرة عملية

"ظننت بأنها شكوى كيدية من خلود بسبب طردها من

عملها، لم يكن لدي دليل ولم يشكُ ايا من ذوي المسنين من

سوء المعاملة"

يفك عقدة ذراعه، يقف ليواجه العجوز بظهره...

يرفع يده على جذع شجرة منتصب بقوة، ربما يسانده...

ينهر نفسه على لجوءه له...لماذا يختاره هو بالأخص!

لماذا لا يصيح به ويخبره بأن هذا ليس من شأنه...

"انا أثق بك، وائتمنك عليهم، علّ حسن اختياري هذه المرة

يشفع لي"

"أنا موافق سيد طارق، هذا شرف أن أنال ثقتك، وايا كان

جوابك على أسئلتي، فيكفيني بأنك عدلت عن اي شيء قد يخالف ضميرك"

يربت على كتفه، يحمل كوبه إلى داخل الملحق...يتركه في صراع عميق مع ذاته، التي بدأت من ركام سنواته البائسة في جلده...

لقد برر له افعاله، ولازالت سطوة ذلك العجوز تنفذ الى روحه، ما الذي أخبرته به خلود أيضا.

***

تشتت من نوعٍ آخر أصابها وهي ترى غضبه الآن، ليست تدري سببا واحدا لهذا الغضب والإنفعال الزائد لمجرد أنها تخبره بحاجتها لبعض الدواء الذي نفذ لوالده...

"أنت المهتم بأمر دواءه..لم يقم بشراءه احد منذ مجيئي الى

هنا..وقبل نفاذه كنت تحضر غيره..ما الذي يغضبك

هكذا..لم أخطيء فيما فعلت سيد طارق"

نظرات غضبه أوشكت على اصابتها بضيق الشرايين...

لازال متكيء على مكتبه، يقبض على كفيه، يعتصرهما

.يجاهد شعورا ينمو داخله لم يختبره من قبل..ذلك الشعور

الذي تسلل اليه يسحقه وهي تتحدث الى سائقه فور عودتها

من الخارج..

"أنتِ لم تنتظري عودتي وهممتِ بشراءه بنفسكِ"

لو تصل لما يريد..فقط لو تفهم سبب ثورته...لاجابته

واراحته واراحت نفسها..

"وماذا في ذلك!"

يختنق بصمته، ومشاعر يجهلها تتمكن منه، ولجاما لكلماته

بعد قولها...وماذا يقول..وهو نفسه لا يفهم...

أمسك حاسوبه يدعي عدم الاكتراث...

تحيرت من أمره...لن تقف لدقيقة واحدة أمام هذا المختل

الذي يغضب على لا شيء...مالها هي وتحمل مزاجه

المتقلب...اللعنة عليك طارق رشيد.

"هل تأمر بشيء"

تتحرك أصابعه على حاسوبه بسرعة وخفة...

"لم انهِ كلامي بعد"

تنفست بنزق، تحاول السيطرة على صراخها الداخلي بلعناتها

له...

وبذات التجاهل بعد الغضب..تستمع لاصوات أزرار

الحاسوب..حدثها

"لا يعجبني التساهل مع العاملين هنا، المسافات الفاصلة

تعطي لكلٍ قدره"

سحقا...لازالت لا تفهم..

"ماذا تقصد سيدي، هل أخطأت في شيء؟"

إلتفت اليها بعض الشيء

"السائق وحديثكِ معه"

"لقد أسقطت الدواء دون قصد فنبهني"

"ومعرفتكِ بأمر دار الأيتام..ألم يخبركِ هو؟"

توترها لم يزد الطين الا بلة...

تود نفي التهمة عنه...لكنها ان فعلت ستضر العاملة هناك

التي اخبرتها..وإن كان هذا او ذاك لن تطيل الحديث معه

ففي الحالتين احدهما سيساء اليه

"أنا آسفة سيدي، السائق لم يخبرني بشيء، لقد علمت

بالصدفة من الدار هناك، وملاحظة صغيرة لنضع النقاط فوق

الحروف حتى لا تتهمني بشيء مرة أخرى..أنا لا أتساهل مع

أحدهم..كان من الأولى فعلي لذلك وأنا لا أملك قوت

يومي، فما بالي بعد عن ستريني الله في منزل وكفاني المال

والطعام.."

وبنظرة مظلمة غريبة على ملامحها السخية رمقته..تردف

"عذرا، علي المغادرة"

شبح إبتسامة ترددت على جانب فمه الذي لا تراه...

لقد أعجبه كلامها، حادة هي كالسيف..لا يستطيع أحد

الإقتراب منها..

ترك ما بيده ليقف..

"لم أقصد ما فهمتهِ"

"حديثك لا يفهم إلا هكذا"

نبرتها الغاضبة المتغلغلة الكبرياء الغير مناسبة لوضعها الفقير

أيضا أعجبته...

"يعجبني تفكيركِ، لكن ليس الجميع يفكر هكذا"

"السائق شخص أمين، خجول، ولا يتحدث الي من الاساس"

عاد اليه الشعور بالثورة والغضب، ولكن هذه المرة حاول

السيطرة والتمعن فيه...

لماذا يثير اثنائها على السائق غضبه...

من تلك الخلود التي تجعله يحتار في نفسه لهذه الدرجة،

وتللك المشاعر التي لم يكن لها وجود، مشاعر..وهل كان

يملك مشاعر سوى الغضب...

أما مشاعر الآن..هي...هي غضب ايضا...

سار إليها، يتفحصها بتمهل شديد، ليست خلود الخجولة

التي تنتفض أمامه، بل هي أقرب للقنفذ..الذي سن أشواكه

للمحاربة..ووخذ من يطعنه في شرفه وكبرياءه.

"خلود، هل يمكنني الزواج منكِ"

عادت خلود المنتفضة أمامه، المرتعدة، الخجول، بشدة...

إرتعشت ساقاها فجلست في حضرته...

تمسك كوب ماء كان بجوار قهوته ترتشفه بنهم...

تنظر الى غضبه، هل يمكن لطلب زواج أن يكون هكذا،

غرفة مكتبه، تأنيبه لها، إنفعاله...

طعنه فيها...هل...هل كانت كلماته نابعة من غيرته...

طارق يغار عليها هي .. انه التفسير الوحيد بعد عرض

الزواج الغريب هذا...

تضحك، عالياً...يجلس أمامها..وتضحك أعلى ..

يتفرس ضحكها المفرط...الذي لا يهدأ ..بل يزداد..هل

تسخر منه أم ماذا!

لحظات وسكنت..

تنظر إليه عن قرب، تساؤلات وجهه جميعها كان جوابها

"لا.."

تساؤل آخر لم يلفظه فأردفت

"لا..لا يمكنك"

همت بالوقوف فقام مثلها..لم يتوقع في أسوأ كوابيسه رفضها

له، هو الذي لا يعلم سببا لطلبها للزواج في هذا الوقت...

متناسيا كلمات كمال..

لم يحضر شيء في ذهنه في تلك اللحظة الا انه يرغب في

استكشاف تلك الصلبة التي تقف امامه...

"لماذا ؟"

"لماذا أنت؟،لماذا تريد الزواج مني، أنا فقيرة، أعمل لديك

وجدي، من المستضعفين في الأرض، أيمكنك الخوف مني!"

تقريرها لما ينوي أبهره..ليس خوفه سببا رئيسيا في طلبه

للزواج منها الان..إلا أن صراحتها سجلت هدفا ثالثا في

مراحل إعجابه بها...

أجاب ينفي تهمتها عنه

"ولماذا اخاف منكِ يا خلود؟انا لا ارتكب الأخطاء"

وماذا يعد ايذاءه لنفسه...أليس خطأ...

ماذا عن عمل شخص ككمال لديه..أليس خطأ..

تعذيب والده.. أليس خطأ..

لازالت على دهشتها من طلبه..

"انا وجدي كالذباب تسحقنا بحذاءك، لماذا تريد الزواج مني

إذا!"

ضربة أمغصت قلبه، هل هكذا ترى قدر نفسها...

كيف ترى نفسها ذبابة تستحق السحق ان أخطأت...

هل يجيبها بأنه لا يعرف لماذا يطلبها للزواج..

"لماذا ستتنازل بالزواج مني وانت من طبقة إجتماعية رفيعة

وثري..يمكنك مصاهرة اغنى الاغنياء، لماذا تتزوج بممرضة

فقيرة تحط من قدر إسمك جوار إسمها...أنا لا أملك من

الجمال ما يفتنك...ولا من الجاه ما يجعلك أسيرا لهيبتي،

كيف أرضى وأنت لا تملك جوابا"

يتنفس هواءً مشحونا يجمعهم..

كلماتها محقة، غير رؤوفة بحاله..ربما توقع الموافقة العمياء

منها...لم يعد إجابات لتساؤلاتها لانه لم يحسب للرفض

حسبانا...

"لا أعرف..لا أملك جوابا ..أنا أريد الزواج بكِ وفقط"

تمالكت نفسها لتقف بثبات أمامه، يتنازع داخلها رغبتها في

التعلق بطلبه، فقد تتوسد ذراعه عند نومها، أو تحظى بقرب

أنفاسه، وتتحسس كل إنش في وجهه و هو زوجها...

ونزاع آخر حول سبب زواجه منها...هل يتزوجها لتحفظ

اسراره ويضمن ولاءها...ام يحبها...

يمسح رأسه..يغطي وجهه بكفيه...يتنفس بصوت عال...

يتخصر..يجلس...

أفعال متسارعة..متوالية .. لا تفهمها...

لأول مرة يسقط عنه رداء القوة فيبقى أمامها عاري

الوفاض...

"أردت إهتمام...شخص..اقصد..أنتِ..أ..."

جلست أمامه تعطيه الامان بنظراتها الدافئة ليكمل...عله

يثلج صدرها..

"أنا..أريد..إهتمامكِ يا خلود...مثلما تفعلين مع

أبي...وجدكِ...عاليا.."

هل تحتاج الى المزيد، نعم تحتاج وبشدة، مع تلك النظرات

الصافية التي تصيب قلبها بخدر العشق...

هل تنتظر المزيد، لا، فقد إنفلتت تلك الكلمات منه..بتلك

اللحظات..ولا تنتظر من سيدها الكتوم الصامت المزيد،

يكفي ما جاد به عليها.

إبتسمت..وقفت..همت بالمغادرة...

"إنتظري...لم أستمع الى ردكِ"

ومن وراء ظهرها ارسلت كلماتها بحياء

"تحدث الى جدي"

الفصل الحادي عشر

***

لم آتِ لأعطيك شيئًا جديدًا......

لقد أتيت لأخرج جمالاً لم تكن تعرف أنه موجود فيك !

خاطرة ثروت الزعبي

***

تتلمس وجهها الصغير باصابعها، تمرر يديها فوق صورة

والدتها، فستان وردي، شعر قصير، كانت في الثالثة من

عمرها تحتضن ذراعيها، تتذكر يوما..كانت به طفلة..لا تعي،

ولا تملك من كذبات الحياة واحدة.

تحتوي وسادتها بعد أن أصبح مكوثها في البيت لساعات

أطول بحكم من طارق، منذ يوم ميلادها وهو يعاملها بحسم

زائد..

ليته يقلل حسمه أو يستبدله بجرعة حنان زائدة كالتي

تشربتها يوم ميلادها..

وهي بين ذراعيه شعرت بالامان، شغف عينيه بها واعطائها

مساحة من وقته كان جل ما كانت تتمناه..

تقلب في الصور، وكلمات والدتها تنبض بعقلها

" هذه لأخيكِ طارق، ربما لا ترينه كثيرا، إلا أنه كثير السؤال

عنكِ، اختلاف توقيت بلده يجعل مكالمته في وقت

نومكِ..لكنه دوما ما يسأل عنكِ"

إبتسامة حانية علت شفتيها وهي تشاهد صورة لها وهي تحمل

طارق في عمر الخمس سنوات..يرتدي ثوب السباحة

خاصته

"إنه طارق، في أول تدريب للسباحه..انظري إلى يديه المكتفة

حول جسده..لقد كان يرتجف بردا ونحن في منتصف

أغسطس"

تشرد في إتساع غرفتها..تتذكر والدتها وضحكها في هذا

اليوم..

تحملها..وتقص لها عن طارق، لتتعلق به وتشتاقه كما لم

تشتاق لأبيها يوما.

أغلقت حاوية الصور، تنام على ظهرها..

لتمر على نوعٍ آخر من الذكريات..

طارق..ونفوره منها وقتما سافرت إليه بصحبة امها..

انطواءه الدائم فضح كذبات امها وقصصها الدائمة عن

حبه لها..

تجنبه للعب معها..ونهرها عندما تعبث بأيٍ من أشياء..كشف

جانبه الغير لطيف الذي على العكس تماما من الوجه الذي

حرصت امها على رسمه بداخلها..

الى أن..ماتت..

دمعات حالكة تساقطت من عينيها الحزينة..

ترغب وبشدة في أحضانها..في ذراعيها اللذان يحجبان قسوة

العالم عنها..

"عاليا..هل أنتِ مستيقظة؟"

هبت من استلقائها تمسح عينيها..فلا يحق له رؤيتها

ضعيفة..وهي التي تشتد قامتها وتواسي نفسها بنفسها

"نعم يا طارق..تفضل"

ملابس بيتية مريحة..عطره المنعش..يقذف ثقل جسده جوارها

لترتفع هي قليلا بما يشبة القفزة..

تبتسم برقة..

"كيف الحال؟"

"بخير وأنت!"

أجابته ببسمة تخفي خلفها بؤسها..

"كنتِ تبكين!"

يلامس أنفها

" لقد فضحتكِ باحمرارها"

ضحكة أخرى تؤكد بها على صدق حديثها

"ربما نزلة برد.."

ارتطمت عينه بملف الصور جوارها..ففهم بأنه السبب، صور

والدتهم حتما هي السبب..

إمتدت يده إليه..يفتحه..يقلب فيه بوجه قاتم..غير الذي أتى

به..

يهمهم بنغمات من فمه

"إذا..لقد استدعيتِ الذكريات"

"جميعها"

يغلق الالبوم، يضعه على طاولة جوارها..تتلاقى نظراتهم..

عاليا..

تلك الطفلة التي تعثر بها وهي في الثامنة من عمرها..

يعاني جبالا راسية بداخله غير قادر على تخطيها أو تدميرها،

لتشكل بالنسبة اليه جبلا جديدا أشد ثقلا..

بعد وفاة والدته تسلم جميع مهامها..

تدريباتها التي باءت بالفشل..سباحة..سلة..كرة قدم..

شكاوى من جميع المدربين أدى بهم إلى المكوث في الفيلا..

مستوى دراسي أقرب للنجاح..بالكاد تجتاز عامها الدراسي..

لولا يقينه بأن أمه انتبهت لها كثيرا، ووجهت كل أسلحتها

الدفاعية نحوها، لظن بأن أحدهم انتهكها مثله..

"هل تريد محادثتي في شيء؟"

وبفطنتها التي تذهله..كطفلة..أجابها

" أجل.."

تستند إلى وسادتها..تحثه على الكلام..

"لقد نويت الزواج"

لم يزعجها قوله، فهو في الحالتين لم يكن معها أو لها..

"من؟"

يتلاعب بشراشف مفرشها..

" خلود"

تحكمت في انفعالها، حسنا..لتكن خلود.. ليكن كمال..

" خيرا فعلت، أنا أحبها"

تعجب موافقتها السهلة، وتقبلها السريع للامر

" ظننت باني سآخذ الكثير من الوقت لاقناعكِ"

"افعل ما شئت يا طارق، ما ترتاح إليه افعله دون نقاش"

حقا تدهشه ردة فعلها

" ألن تسأليني عن أي شيء"

تهز رأسها نفيا

"لكلٍ منا حياته، وأنت حر فيما يخصك"

يهز رأسه يوافقها..

"كيف حال سلمى..تتحدثين إليها"

تجيبه بخضوع

"نعم، هل ستجعلني أكف عن مهاتفتها أيضا"

تنهد، يعلم ما تفكر فيه..

" عاليا، أنا لا أقصد حبسكِ، أو أن احاوطكِ باهتمام

زائف..أنا أخاف عليكِ"

يرفع قدما على سريرها والثانية ارضا

"أنتِ لازلتِ صغيرة، لا تفهمين ما قد يحاك لكِ لتقعي فيه"

" هل العالم مظلم الى هذا الحد!"

يجيبها بشرود

"أظلم مما تتخيلين"

هي تعلم الجواب دون سؤاله، فلقد إصطدم ظلامها بقتامة العالم..بالفعل

***

"أنا لا أعلم ما الذي يتوجب عليك قوله، أنا فقط أخبرك بما حدث"

يمسح على ساقيه بكفيه، يتشرب كلماتها

"متى حدث ذلك؟"

" توا"

"ومتى سيتحدث اليّ؟"

" لا اعلم"

"وما رأيكِ أنتِ؟"

تغلق التلفاز الصاخب امامها

" موافقة"

يمسك ذراعها يلفها إليه

"ما سبب موافقتكِ؟"

تتهرب منه، تخفي وجهها في جانب آخر عن عينيه

"أجيبيني، أعطني سببا واحدا لموافقكِ عليه يا خلود"

تدس يديها في شعرها..متخبطة..بين نهر جدها وعدم

موافقته، وبين قلبها الذي ينتفض للمساعدة..وبشدة..

هي بين شقي شفرات المقص الحاد، يوشك أحدهم على

جرحها..

"أنسيتي ما نعرفه عنه!"

تلطمه بكلماتها

"مجرد شكوك.."

يعقد حاجبيه المتشحين بالبياض

"أنا لن القي بكِ على قيد شكوك إن تحققت هلكتِ"

تتوسله

" اتركني أحاول.."

سقط على اريكته، يقتلها تعبه

"هل أحببته يا خلود؟"

تجلس جواره..وجوههم للامام..كلا منه في شروده..

"أجل، أحببته يا جدي..هو يتألم..الصورة ليست كما نراها.."

التفت اليها في حين ظلت هي على حالها

"ما الذي تخفيه عني؟"

"مالا أستطيع قوله.."

صاح بها

"هذه احجية!"

"وليس لها جواب"

يتغضن وجهه..يسفّه من طريقتها في الحديث معه

"هل جننتِ، ما الذي تهزين به؟"

ابتسمت، تذكرت كلمات طارق التي حدثها بها وهي تستفزه

في اهتمامها بالكلب..

يهزها

" خلود أنا احدثكِ"

دموع تلامس شفتيها المبتسمة بالذكرى، حزينة لحاله..

"طارق يعاني شيئا ما يا جدي لا استطيع البوح به لأني

اجهله..أجهل ماهيته..لقد آذاه والده بشدة"

" والخمر"

"ذنب قد يقلع عنه"

"وصلاته"

"سأصطبر عليه"

صرخ بها

"يوصينا النبي باختيار الزوج الصالح والزوجة الصالحة، وأنتِ

تودين رجلا لا يملك أيا من روح الصلاح"

"لديه دار ايتام..دار للعجائز، طرد كمال من العمل..لن

أستصغر خيره أمام شره ياجدي،وجب علي المحاولة"

يصيح مجددا، تغطي عينيها بيديها تصرخ، تنازع هي الأخرى

الخوف من الفشل..من عالمه المخملي، من تقبل عاليا للامر

من كل شيء، هي ليست بالقوة التي تواجه بها تلك

المعارك..لكن لأجله هو ستفعل..ستفعل..

أخرسه بكائها..لأول مرة يراها متخبطة إلى هذا الحد..

تعاني ولا يملك أن يخفف عنها وهو بحاجة لمن يخفف عنه

ذلك البلاء..كيف له رفض طارق الرشيد إن تقدم لخطبتها..

كيف له كسر خاطرها ورميها كالحجر العاثر في طريق طارق

الذي لا يأمنه بعد..

هي مجرد شكوك..لكنها قوية..

توليه منصب مدير دار الرعاية..لن يجمل حقيقته كثيرا..

وان كان يجاهد للصعود من بين اشلاء ماضيه فما ضمانة

ثباته..كيف سيتركها بين يديه وهي وحظها..

اقترب يحاوطها بذراعيه، تزيح كفيها وتستتر في أحضانه

تبكي رفضا وقبولا..

***

يراقب تورم عينيها عبر حاسوبه، تقوم بمهامها الروتينية في

غرفة والده، يتساءل عن سبب بكائها الشديد المتسبب في

هذا المنظر.

يستمع إلى خبطات أصابعه القوية على سطح الطاولة..يتذكر

وقت..منح فيه كمال ثقة بلا حدود..فاشتد عوده..وقويت

قبضته على يديه...

"هكذا تقوي قبضتك..وعزيمتك..ووقف كل من تسول له

نفسه في التطاول عليك"

يمسك شعر هذا الغر الذي يهاجمه في تلك الحانة الحقيرة

بقوة..يميل برأسه إلى الخلف...

يلكمه بقسوة أسفل ذراعه

"هكذا..تكون..اللكمة يا طارق"

أمسك ذراع الرجل المفرودة يطويها خلف ظهره بعنف ليردف

"تكسر الضلوع.."

يضع أذنه بالقرب من ذراع فريسته الملتوية بيده..ويضغط

حتى سمع صوت قرقعتها

"سمعت هذا الصوت!"

ضغطة مرتعشة على اسنانه من هذا الصوت..يستمع الى

صياح الرجل المتألم الذي لم يشفع له عند كمال، الذي اراد

ان يدرب طارق الصغير على أخذ حقه، ما إن هاجم طارق

احدهم بغرض السرقة..

خبث كمال مكنه من طي الصغير الواهن كورقة وضعها في

جيبه..

يترك الرجل بعد أن فرغ منه يصيح بكسوره..

متعرقا من قسوة الضربات..ينهج من سرعة تسديدها..

تراقبه عين طارق الذي رأى في قوة كمال مخالبه التي لم تنمو

بعد..وساعده الذي يدافع عنه ضد أي انتهاك..

يصب لنفسه كأس، يبتعد مستمتعا بمذاقه الحاد..وسط

الجمع الصغير المتبقي لهذا الوقت المتأخر في المكان..

يستمع لقول طارق

"لقد وعدتني بتنفيذ الضربة التالية له قريبا"

أشار له بيده..يضع كأسه...

"المال..ادفع كي اسافر"

يوما ما سيشتد عضده..ويكون الأقوى ليواجه والده بنفسه

عاري الوجه..لا يفصله عن انتقامه جدران..

"لقد أعطيتك المال منذ يومين، ودفعت كافة مصاريفك

وعيشك هنا يا كمال...ما الذي تريده؟"

"منصب.."

ضحك طارق بشدة..

"انا صاحب المنصب والمال..لم يصبح لي بعد..كيف سأهبك

مالا املك"

"وعد..كلمة..عقد صغير من طارق الرشيد يمكني من العمل

لديه"

"لك هذا.."

"خطط كيفما شئت واترك لي التنفيذ..وسأبهرك بالنتائج"

يعود لواقعه بأنفراجة عينين سقطا عليها...لازالت بغرفة والده..

لا ترفع عينيها إليه كعادتها..وكأنها غاضبة عليه...

لقد تأخر في التحدث إلى جدها...يومان وهو يرتب أموره...

يتحدث إلى عاليا... إلى خاله بالخارج..ليطلعه على الأمر...

يعد مفاجآت لها...يرتبها كلاً على حسب أهميته ووقته...

يشرد من جديد، وشعور الخوف من اكتشاف خلود مصائبه يؤلمه...ليته يستطيع البوح لها...

ستعذره...حتما ستعذر روحه المشوهه...

***

يحكم إغلاق باب غرفته خلفه، رغم بابه العازل للصوت إلا

أنه يخشى معرفة سلمى اسراره..

يضع هدية عاليا في أحد أدراجه..ويضع المفتاح في جيبه..

سلمى لن تتجرأ على إقتحام غرفته أو تفتيشها..هو يعطيها

مساحتها من الحرية...لينال خاصته..

يخلع قميصه بقسوة وغضب...

يتناول حاسوبه..يفرد ساقيه على الطاولة..وينزلق بظهره على

الكرسي في وضع مريح..ليسهل على جسده الاسترخاء

الذي سيناله بمشاهدة فيلم هو بطله...

يضع القرص المدمج في حاسوبه..يشغل..أهة انسلت من

شفتيه..حارقة..مستمتعة...تنعي ذكريات كانت..ولازالت

تلهب قلبه...يستمع إلى صوتها عبر الحاسوب..

"سأفعل ما تريد، لكن امهلني الوقت..."

يتحدث إليها وجسده يتحرك بقسوة

"ليس لدي الوقت..أريد هذا ..هكذا..الآن"

يتمايل شعرها الأحمر مع جسدها الذي يدفعه عنوة فوق

سريره..

ينقض عليها بهمجية فتصرخ

"كمال، لا...لا...توقف.. الآن..."

إعتاد منها الصراخ..والألم..والخنوع لما يطلب فتلبي..ما الذي

تغير..

قيد كفيها...صفع وجهها حتى سطعت حمرته مع بياض

بشرتها..يضع ركبته فوق بطنها لتصرخ بشدة

"لاا..كمال..أرجوك..ليس هذه المرة..أرجوك"

انتصبت ساقه..واشتد جسده المسترخي انتشاء بتوسلها

لن ينمحي صوتها ما عاش..ولا صورتها ستفارقه..

لقد تعلم كل شيء لأجلها...والآن هي ترفض...لن يكمل

بقية الأحداث فما يلي هذا الصراخ المبهج...كلمات تظلم

قلبه..وتجعله يكرهها...ويكره نفسه..

رعدة سرت في جسده...بعد أن خسرها..والآن خسر عمله

مع ابن الرشيد ..

يضحك ساخرا من نفسه..يتذكر لقاءه الأول معه...

يسحب الهواء إلى رئتيه يقاوم ميل الطائرة إلى الخلف محلقة في

الهواء، لقد غادر للتو بلده التي قُتلت فيها روحه، ولم يعد

بحاجة إلى التلحف بسمائها..

سخط وغضب يملآن قلبه، تاركا ابنته خلف ظهره...

ينظر عبر نافذة الطائرة، لا يشعر نحو تراب بلده بذرة حنين،

أو ينازع قلبه ألم الفراق..

بل على العكس..يترقب سفرا طويلا في بلد آخر لا يعرف به

أحد..يعمل..

يعمل وفقط..

أنفاس متسارعة لفتت أنظاره للجالس جواره..

جسد هزيل، ملابس فخمة، شعر بني وذقن أفتح قليلا..

يبدو أجنبي..

يضحك بسخرية..يتحدث إلى نفسه

"ما الذي يعجبك في تلك البلد لتأتي إليها"

" لا..لا"

كانت كلمات طارق النائم جواره..ليفهم الآخر بأنه ليس

أجنبيا وانما عربي بائس..

قبض طارق على كفه..

حاول كمال نزعها بقوة..

تمسك طارق اكثر..

ليدفعه كمال في صدره بحدة يوقظه..من هذا الذي ينام قبل انطلاق طائرة..

انتفض طارق يمسك يده بقوة..ليسخر منه الاخر ومن ضعف قبضته..

حاجبان معقودان، حدقتين مهتزتين، أنفاس لاهثة..جعلته ينظر طويلا في عيني طارق..يبتسم..يترك كفه، وقد التقط الألم والصراع في عينيه..ليُعرف نفسه

" كمال .."

يستفيق من ذكراه..يمسح على صدره متخبطا، يفكر في كافة

الاتجاهات...لقد كان بينهم اتفاق...وقع عليه الاثنان

كلمة طارق..وقبوله...

بينما نكث الأخير وعده، وعزله عن منصبه..هو لن ينتظر

حتى يتبدل حاله مع تلك الملائكية–خلود– التي باتت نهايتها

وصدمتها في طارق وشيكة..

لطالما بحث عن سبب انتقام طارق من والده ولم يصل لشيء

دوما ما كان يتساءل ..هل انتقامه منه طمعا في المال فكان

الجواب بسيطا..فطارق الرشيد يحظى بما يطلب..وان كانت

النجوم طلبه..حتى نسي البحث ..وتنعم في منصب جنى من

خلفه الكثير..

سيسير كل شيء كيفما خطط...ببطء مدروس منذ البداية..

يلتقط هاتفه..رنين..تبعه صوت ناعس..ليقول كمال

"مرحبا دكتور أيمن"

***

"خلود، توقفي"

ينزل درجات السلم وكأنه يهرب من شيء ما ليلحق بها، ومن

بين أنفاسه يسألها

"ماذا، بكِ؟"

ترفع عينيها اليه، لتلامس رموشها جفونها العلوية، تشعر

بثقلهما من شدة انتفاخها...

يقتلها اهتمامه، وتسارعِ صدره عدوا لأجلها..كان يمكنه

ارسال رسالة لها، يأتي إليها يستوقفها، يسألها عما تعانيه...!

توقفت بعينيها على صدره، يترقرق الدمع بمقلتيها..تسقط

قطرات زهيدة وتكتفي العين عن سكب ما تبقى..

يود لو يمسح عنها دموعها، يعلم بأنها ستنهره، وربما تبدأ في

إلقاء محاضرة عما يجوز او لا..

تلون وجهها بحمرة الحزن...تشهق برقة..

"ما الذي يبكيكِ؟"

وجهه المشفق عليها، وعينيه التي تحاكيها بصمت، وجسده

الذي يهم بأحتوائها واحتضانها، كانت آخر ما استقرت

عينيها لتتوقف حده...

تملأ عينيها من لهفته...

زمة شفتيه التي تتوسلها الكلمات...تتحدث إلى نفسها

"أخبرني بأنك لست شريرا...وأنها شكوك..مجرد شكوك"

لا يعلم ما الذي تعانيه، ليتها تتخلى عن صمتها فدموعها

تقلقه...

هل اكتشفت حقيقته..علمت شيئا عما يخفي..رؤيتها على

هذا الحال يمزقه..

تكمل حديث نفسها

"لن أتحمل أن أراك مظلما..عاتيا..ظالما.."

تشهق بصوت..تغمض عينيها بقوة..تحاول التماسك ويفلت

منها زمامها..تجرب الكتمان وتفضحها دموعها...

كيف يخبرها بأن كل شيء سيكون على ما يرام..وكيف

سيكون!

"هش...اهدأي يا خلود... أي شيء يمكن إصلاحه..هل

مات أحدهم لتبدين على هذا النحو"

من بين شهقاتها تجيبه

"جدي.."

قاطعها بعقدة حاجبيه

"هل مات!"

ضربت صدرها تنهره

"حفظه ربي...لالا.."

يظفر بكلماتها يجذبها نحو التكلم لتفرغ ما بداخلها

"ماذا اذا؟"

تمسح دموعها، وبصوت متحشرج متقطع من شدة البكاء

تجيبه

"جدي لا يوافق على زواجنا"

عبأ صدره بالهواء ليزفره براحة، كل ذاك الصمت والبكاء

لأجله..هي تريده وتتمسك به..تبكيه هو..

يضغط على قواطعه يتنفس من بينهما..في عادة ليلتقط

أنفاسه الصاخبة في مواجهة أحاسيسه..

تخفض بصرها بحزن، في مشاعر مشحونة بين حب وخوف

وضعف...

"انظري الي"

هكذا علمته امه، بأن التواصل مع احدهم يبدأ بالعينين...

وعندما عانقت عينيها عينيه أردف

"سأقنعه، وألبي ما يريد..سأفعل ما يشاء لاجلكِ"

ضربات متوالية...ضوضاء وصيحات أصدرها قلبها...ضخ

دماء بكميات كبيرة جعلتها تنتبه وتعي كلماته...

هو يبادلها ولو شيئا ضئيلا مما تملك...

سيفعل ذلك لأجلها...

طارق يبادلها الإهتمام...ربما مع الوقت تعلو درجة

أخرى..هي لاتريد منه الكثر..بل تعد بمنحه الكثير...

إبتسامة خجول على شفتيها جعلته ينتفض بسعادة...

يبتسم لها هو الآخر..

"لا تبكِ وأنا جوارِكِ يا خلود"

وعد أخير يطمئن قلبها...

وحديث وضعت آخره نقطة...

يجذبها بإشارة من يده ليجلسها بقربه..يطلب لها مشروبا باردا

فتقاطعه

"لا..لا أريد شيئا أنا سأغادر"

يضحك

"هل اشتقتِ لابقي قليلا!"

تمسح وجهها .. تحلي نفسها..تضبط حجابها..ولا تعي بأنه

رآها على أسوأ حالاتها منذ لحظات...

"ما الذي يريده جدكِ لأستعد لمحاورته"

كيف تخبره...

"جدكِ يعلم بأمر كمال..الذي كان بيننا"

أجابت بسرعة

"لقد سمع حديثنا يومها..أنا لم أقص عليه شيء"

"ما الذي يعلمه أيضا"

تجيبه بخجل

"يعلم بأمر الخمر..

"و.."

يتحدث إليها بطريقته يوم استجوبها عن معنى الحب تضحك

"هذا يعد استجواب..وانا لا اقبل.. إذهب إليه وتحدث

معه.."

قامت ليعاودها شرودها..

"واعلم بأن رأي جدي نافذ علي.. إن كان بالقبول.."

تحبس دموعها لتكمل بهمس يسمعه

"أو بالرفض"

***

"أين ملف السيدة منيرة؟"

"الملفات جميعها هنا في مكتب السيد كمال"

يبحث بيديه بسرعة وسط ملفات كثيرة...منذ وقت طويل

ربما من قبل تسلم كمال العمل، لا يجد أوراقا تخصها..لقد

وصته خلود عليها صباحا وهو في طريقه لإستلام اليوم الأول

لأعماله في الدار..

يصرف العاملة بإشارة من يده..

يبحث مرة أخرى..بعد أن إختفت تلك المرأة من الدار

ليلا..كما روى له أحد العاملين هنا..ولم يعلموا السبب..

يمشي بتمهل نحو مكتب المدير الجديد، يمسح بعينيه المكان

الذي لم يزوره على الإطلاق منذ امتلكه ليضع فيه عمته

لتكون تحت عينيه في حين النظر في أمرها...

يفتح باب مكتبه، ليدخل بسطوته وكلماته تسبقه

"صباح الخير"

يقف في مواجهته..يترك ما بيده

"مرحبا سيد طارق"

يشير إلى الملفات بيده

"يبدو أنك تُجد في عملك منذ اليوم الاول"

ينظر في ساعته يصحح له

"بل من الساعة الأولى سيدي"

يشير إليه ليجلس

"لن أضايفك في ملكك، ماذا تشرب؟"

"لم آت لأشرب، جئتك في طلب"

فهم ما يشير إليه فقال يبسط كفيه لأعلى ..وظهر كفيه

يلامس سطح المكتب

"هنا!"

"فضلت بأن يكون حديثي معك بعيدا عن الفيلا كي لا

تشعر بالحرج مني"

هو يقصد الدونية..حسنا طارق رشيد، لقد بدأنا التراشق..

"لكن هنا..وأنا اعمل لديك أيضا..لن اشعر بالحرج!"

يضع إصبعه في طرف ياقته..يوسعها..يبعدها عن رقبته..

"اختر المكان الذي تريده للحديث"

قام من مكتبه يقف خلفه...

"طارق الرشيد يرهبني..في أملاكه..ويرشيني بتلبية طلباتي

لأوافق على زواجه من ابنة ابني"

أسقط ساقه التي تعلو الأخرى...

"ولماذا ترفض؟"

جلس أمامه..يضم يديه فوق ركبتيه..يجيب سؤاله بسؤال

"لماذا خلود؟"

نفس التساؤل..لقد مل من التكرار..سيكون جوابه كجواب

خلود...دائرة لا تنتهي من الحوارات التي تستفزه...

يتفرس الجد انفعالاته..نزق أنفاسه..

"لقد كانت هي أشد صراحة منك"

أثار فضوله

"بماذا اجابت!"

"لا يهم"

لماذا يشعر وكأنه تحت المجهر..أنفاسه تحصى..

سكناته على المجس...

ومشاعره تمر على فلتر هذا العجوز المخضرم...

وجب عليه الرد...

"الإستقرار..ربما.."

ضحك الجد..هذا أبعد جواب ظنه من هذا الفحل أمامه...

"لقد كانت إجابتها قاطعة..أكثر منك"

هذا العجوز لا يشعر بالإستصغار..ولا الدونية..يجلس أمامه

بعنجهية يبارزه بالكلمات...لقد تبدلت الأدوار..هو يشعر

بال...بالقلق أمامه...

"ما الضمانات التي تطلبها لأثبت لك بأني سأحفظها"

"الأمر ليس بالضمانات والعقود سيد طارق، هي ليست

صفقة ببنود سنناقشها، هي حياة...حفيدتي ستقدم لك

أفضل ما تملك لإسعادها.. فماذا ستقدم أنت؟"

يهتم لقوله..يتحدث إلى نفسه

"حقا، ماذا سأقدم لها!"

يجيب صراعه الداخلي بكلماته الحكيمة...يستند إلى المكتب

بذراعه

"المال"

يعقد طارق أصابعه ليردف العجوز

"كنا لا نملكه وكنا بخير حال"

يبتلع ريقه منصتا

"الجاه، لم يزيدنا يوما شرفا..فالمرء رهين أفعاله"

يضغط على أسنانه..وكلمات الجد تغرس كنصل حاد يمزق

مبرراته

"السلطان!، منهم من يملكه ويتجبر"

يقف منفعلا...ليواجهه الجد بقوة..وقبل أن يتحدث

"طلبك مرفوض سيدي، ابنتي تحت جناحي بخير حال، ربما

يتقدم لها فقير..غني بأخلاقه..."

هم بالمغادرة وقد بهت مما يحدث..لقد أعد جدها العدة

لمحاربته ومواجهته..بينما جاءه هو مستقويا بسلطته....ليصله

تساؤله

"أين ملف السيدة منيرة بالمناسبة؟"

***

الفصل الثاني عشر

كل ما يبعدني عنكِ ترّهات، لن تؤخرني تلك المسافات، ولن
تقيدني عوائق أو عقبات، أنا إليكِ سائرٌ وقادمٌ وآت.

***

"أين ملف السيدة منيرة بالمناسبة؟"

يغلق الباب الذي أوشك على فتحه للمغادرة، يلتفت إليه
وقد بُهت من سؤاله، منذ الساعات الأولى في عمله ويبدأ في

تفتيت حصنه.

يقترب منه في خطوات يستمع إلى صوت رتابتها يبحث عن

رد

"من السيدة منيرة؟"

يقترب منه الجد، يفعل مثلما فعل..

"السيدة التي كانت محور حديثك وخلود يوم مجيء كمال إلى

الفيلا"

تصنع التذكر

"أجل..."

تنحنح يمشي في إتجاه الملفات

"ربما أخذها ذويها"

يعقد ذراعيه، يرفع وجهه عاليا

"انا لم أخبرك بأنها ليست موجودة سيدي، أنا أسألك عن

ملفها"

تنويه بسيط نبهه بأنه كان قد أوشك على فضح أمره بنفسه،

وضع يديه في جيب بنطاله

"لا أعلم، كمال هو المختص بأمور الدار"

"ولماذا تمتلكها أنت؟"

يجلس ليمسح وجهه بقلق

"كانت أمنية امي ورغبتها قبل ولادة عاليا، ظنت بأنها

ستموت وحيدة، أرادت مكان يهتم بالعجائز في حال عدم

عودتي لتشغل وقتها"

لأول مرة يفتح قلبه أمامه، جذبه حديثه ليجلس ينصت إليه

باهتمام، وقد وارب باب قلبه لتتسرب حقائق عنه يحتاج

معرفتها

"لقد مر الكثير من الوقت وهي تعاني وحدها"

بعين حزينة، وصدر شحت أنفاسه، وكلمات رغم قصرها

تشي بالكثير تحدث إليه

"تمنيت لو لبيت رغبتها وهي على قيد الحياة..لكن..."

رجل كطارق، بهيئته وصخب عيشه، يفتقد لمن يتحدث إليه

حقا، يشعر بأنه طفل صغير ضائع، لا يجد ملجأ أو مرسى لما

يحمله، يبدو أن أمه عنيت له الكثير.

بصوت ثابت قال

"لو كانت على قيد الحياة، لكانت فخورة بك يا سيدي"

يبتسم له...

"اتظن ذلك!"

هز رأسه بهدوء يؤكد على كلماته، ليسأله طارق مباشرةً

"لماذا ترفضني اذا؟"

يسبل جفنيه، يستند بظهره إلى الكرسي

"ليس معنى أنك ابن بار بوالدتك، أن تكون زوجا صالحا

الأمر يختلف"

يرفع كتفيه يظهر لا مبالاته

"أنا نفس الشخص"

"الأم قد تتحمل سخطك وحزنك وصياحك، دوما ستعفو،

ستغفر، ستضمك حتى وإن أخطأت، وأنت أيضا..تحيا وتملأ

الدنيا صراخا وهي على قيد الحياة...يقصمك

انشغالها..تعبها...موتها..."

كم هي مؤثرة كلماته، كم غضب وتمادى وصرخ وتحملت

وعفت ودعمت، كم مرة إستغنى وحاوطته بكرم ودفء

مشاعرها، كم مرة منذ وفاتها شعر فيها بالضياع...في إحتياج

دائم إلى كلماتها ونهرها له لما يفعل، كانت على قيد الحياة

ولم ينصت لها يوما .. ولم يتخلَ عن إنتقامه لوهلة...

كم تعالت آهاته عندما فارقت الحياة، لم يستطع كتمان

مشاعره وقتها وصب كبته على جسده كما أعتاد، كان

كالثور الهائج، والليث الغاضب...وقد قُطع آخر أمل له في

العودة عن طريق الظلام.

يراقب إنفعالاته...هو لم يكمل حديثه...

لقد تكلم فقط على الأم لينزلق منه إلى خلود ...فقطع

استرساله تسائله عن سبب ذاك الصراع على وجهه...وضع

العجوز يده على فخذ طارق، ينظر في عينيه مباشرة ليردف

"أما الزوجة فلا...لن تتحمل ولن تغفر...دعني أتحدث بصفة

خاصة عن خلود...هي شديدة البأس..قوية..عفوية..تظهر

مشاعرها بعينيها..."

قاطعه وقد جذب حديثه عن خلود نوعا آخر من الإهتمام

..كمن يطبب جرحا..ويشفي سقما...

"أعرف..."

إبتسم الجد ليقول

"خلود تمنح وتعد بالكثير...الكثير..الكثير، وعندما يخذلها

احدهم تبتعد كثيرا..تخلق المسافات..وقد تحطم جسر العودة

..ولا تمشي طريقا يذكرها به، أنت لا تعرف"

يقوم يواجهه بظهره، يقول بحسم

"وأنا لن أخذلها"

ذلك الحزم الذي يستشعره بكلماته، التمسك بخلود الذي

يغلف نبراته....يصمت متمعنا فيما يأخذ منه معطيات...

ليقوم طارق من مجلسه، لقد تمنى موافقته...لكنه لن يمتهن

كرامته اكثر.

"حسنا، لن أعطلك عن عملك"

وفي لحظات إنصرف..ليترك الجد في حيرة حقيقية من أمره...

الآن يمكن لطارق طرده وخلود من عملهم، أو يبتزه بنيل

خلود رغما عنه وهو قادر على فعل ذلك، أو حتى يسحقه

ولا ينال موافقته.

وهذا ما راهن عليه..وسيرى نتيجته الايام المقبلة.

***

جو كئيب، تجلس على الكرسي الوحيد في تلك الغرفة

الفقيرة، تنتظر قدومه، تعد السوط، الحبال، ولا تعلم هل

يرغب في التجديد اليوم فيأتي بآلة أو أداة جديدة أم لا، لقد

أصبحت تهوى الألم، تتلذذ بالإهانة، لم يتبقَ لديها عزة ثرائها،

ولا كبرياء اسمها، ولم يعد لها فخر بما تملك.

تبقى الذل والإهانات والسباب، ولسعة السوط..

هي لا تستحق الحياة التي جاءت إليها عنوة، ولا تستحق

طارق وخوفه عليها ولا ثقته بها.

تسللت ليلا..من الباب الخلفي للفيلا، بخبث وبطء حتى لا

تثير مراقبة احد...تلوذ بالقسوة وتترك دفء بيتها..

تنتظره وكل خلية في جسدها تشتاقه، كل إنش في جسدها

يحن لألمه.. لقد باتت توقن بأن هذه العلاقة هي السوية

وليس ما تشاهده في تلك الأفلام من رومانسية ناعمة تثير

غثيانها...

سمعت صوت الباب يغلق، وكمال يقترب، وبقوة يرحب بها

في عناق خشن قاسي..

أخرج من حقيبة يحملها، سلاسل حديدية، وكأنه يخرج حلوى

للصغيرة...

يتشمم أنفاسها، يدور حولها

"ما رأيكِ في تجربة هذا يا عاليا...هديتكِ"

نظرت اليها، تقترب من حقيبتها هي الأخرى لتخرج منها

كاميرا...

عقد حاجبيه...تقول بصوت متشوق لما يحدث

"أريد توثيق لحظاتنا"

أعطاها ظهره بسخط، لن يسجل لحظاته الساخنة مع بديل

لها..لن ترتقي عاليا مهما وصلت في عبوديتها له مثلها

ستبقى هي أسيرته الأولى وحبيبته مهما افترقا، يتذكر نشوته

معها..توسلاتها بصوتها المتقطع وجسدها الأبيض الذي وسم

بحمرة امتلاكه...

الصهباء..

أجابها من فوق كتفه، هو لن يترك دليلا خلفه يوثق انتهاكه

لها

"لا، المتعة الحقيقية في التجربة نفسها وليست في مشاهدتها"

يلوح بالقيود..لتمنحه كفها باستسلام يعهده فيها منذ دربها

يوما على الانصياع بعد أن تركت الكاميرا أرضا..

"أمرك، سيدي"

شبك يديها، إقترب دون راحة من الطريق، أو المشي الطويل

كي يصل لهذا المكان النائي.

هكذا وبسرعة، ظل يطبع بصماته وآثاره فوق جسدها،

وبإنتشاء واهن تتلقى صفعاته، وتكبيله، مطالبة بالمزيد،

بصراخ كالنفط يصب فوق النار لتشتعل الحرارة وتتأجج.

أصابعه تحفر طريقها على رقبتها..

القيود تدمي معصمها...

يدفعها بلا شفقة او رحمة لترتد إليه تطالبه بالحدة أكثر

وأكثر...

كلمات أمها تزعق برأسها تكاد تمزقها...كما جسدها

"لقد حاولت هجره مرارا...يهددني بأولادي..سيدمر طارق

وعاليا...هو يحبني"

تعلمت الحب بصورته المحرمة المشوهه، إغتصاب وتهديد

كلمتان ارتبطا في ذهنها يصفان الحب في ابشع صورهِ

وصفاته..فصارت تتكففه..تتسوله كما وجدته دون تساؤل

عن مدى مشروعيته..

ضوضاء صراخ...وصخب صيحات تؤجج لهيبه...فيزيد

إشتعالا حارقا يذهب عقله...يفقد سيطرته بالتدريج....

"كفى..."

صرخة يتناثر لها الزجاج وترتعد لها الجدران..لا تعلم هل

تتطالبه بالتوقف أم أفكارها..صرختها جعلته يرتعد

للحظة..ظن بأنه تمادى فتوقف على الفور..

وهن وألم استشرى في كافة جسدها، لا تقدر على الحراك،

لحظات، بل ساعات كي تلملم وجعها لتقف...

لم يهتم هذه المرة بمداواة جراحها..يعلم بأنشغال الجميع

عنها...لن يهتم أحد ربما بموتها..

يدخن سيجارته كملك منتصر...

ترتدي ثيابها كأسيرة معذبة...

هكذا رسما المشهد وأتقنا تمثيله، والآن .. إنتهى.

"كيف حال طارق؟"

تربط حذائها الرياضي، تستعد للمغادرة بوهن..

"لا أراه"

إلتفت إليها ودخان سيجارته يجثم على صدرها..لطالما

كرهته.. والخمر.

"ولن تريه مجددا، لقد خلبت لبه، وجعلته عبدا لها"

نظرت له باهتمام

"ستبدأ به، ثم بكِ، وبعدها تطمع في المال"

"هو مال أبي على أية حال، لا يستطيع إعطائها شيء"

"وما الذي يضمن لكِ؟"

كلماته السامة المفرقة جعلت الشك ينتابها، ما الذي يمنع

طارق من إعطاء خلود المال حقا؟، او شراء أملاك لها.

***

تستلقي على سريرها..تسترجع رفض جدها الصارِخ في آخر

مناقشة لهم بخصوص الزواج...لم تعهده قاسيا...يخاصمها

وينعتها بالاندفاع ويردد كلمات عن أن مرآة الحب عمياء..

لا..هي ليست عمياء..هي ترى...

ترى عيوبه في مرآتها، تسعى لتغييره لكن بأي صفة..

ترى ضعفه وانهاكه واحتياجه...

تعلم بأن وراء ضحكته الخاوية .. طفل فقد الأمان والثقة

والسبب والده...هل كان يضربه..يعنفه!

تفكر فيما كان الانتهاك؟

نحنحة جدها بالخارج جعلتها تعطي ظهرها للباب وكأنها

نائمة..

يراها تزوي أمام عينيه...لا يضر...أن تزوي وهي معه تحت

رعايته..خيرا من أن تزوي وهي بصحبة هذا الحاد المتلون..

يعلم بأن ما يخيفه ليست حقائق دامغة.. إنما مخاوف تؤرقه..

مر الوقت وهو يراقب الإثنان...

لا بأس في زيادة الوقت ..دقائق..ساعات..وربما أيام وشهور

ليرى نتيجه رفضه على الأثنين...

"أنت لست عادلا معي"

كلماتها التي أغضبته في نهاية حوارهم مؤخرا...

"أنت تقسو علي"

بل طيبة قلبه وخوفه عليها ما جعلاه يفعل...

"إذا جار على حقوقكِ أو عنفكِ...من سيقف له..ستعلمين

معنى العدل عندما تتزوجيه ولن يكن عادلا معكِ..هو لا

يحبكِ"

"هو صريح معي.. أنا لم أطلب حبه"

تذكر ثورته جيدا عندما عنفها

"أتطمعين في ثروته يا خلود، أنتِ مبهورة بهذا العالم

وسامته تجذبكِ، لين قوله...هو ليس من توبنا ..ثوري

واحنقي..وامتنعي عن الطعام كما شئتِ..يوما ما ستعلمين

مدى صدقي"

يغلق الباب ويخرج..يعلم أنها تدعي النوم...

تنظر في عقبه..دموعا تحرق جفنيها، إشتاقت للبكاء على صدره وتأبى الإقتراب ..

تشهق عدة أنفاس..وتقوم لتنهي حزنها بالصلاة..تطلب من الله العون..تستخير..وتوكله في أمرها.

بينما ذاك المحطم تقتله أفكاره..

منيرة..العمة التي يحتار في أمرها، يجالسها كل يوم..بدون حديث...يتناول طعامه بصحبتها ليلا في الخفاء..

لا يمكنه اخراجها فتفشل سبله بالزواج من خلود...

ولا يمكنه تركها هكذا وحدها...تحتاج لعناية...

يقترب من شرفته..يعبث بزجاجها الجديد..

يشرد في خلود..التي تنهك قلبه وتجعله أشد ارهاقا..

لا يعترض طريقها يكتفي بكاميراته..

وهي لا تلتقي به..ولو محض صدفة..

يشتاق حوارا معها، عينيها التي تلمع في حضرته، ارتفاع

صدرها خوفا وترقبا له...

امه التي يذكرها بشدة هذه الايام، لا تفارقه نصائحها

وخوفها عليه طوال فترة سفره إلى الخارج.

"سترى الشذوذ أمامك عيانا بيانا، إحفظ نفسك، لا تنقصنا

مصيبة أخرى"

بينما كلمات طبيبته التي قامت على علاجه تهمس في عقله

"قد ينعكس ما حدث لك في الماضي عليك الآن، تلك

ليست الفطرة السوية، ما حدث خطأ لست سببا فيه، أما ما

سيحدث هو قطعا مسؤليتك"

تختلط الكلمات بذهنه..يمسك رأسه يستوقفها

"ليس بالضرورة أن تكون أجنبيا طالما جاورت الاجانب،

سترى عري، بل التعري والنظر إلى العورات هناك يسمى

حرية، لا تنجرف إلى هذه الأمور"

نصيحة أخرى بريئة من والدته التي لا تعي بأنه لا يملك وقتا

لذلك، بل كان وقته كله مكرس للانتقام.

كيف يتنقل بين الأحداث هكذا عمته ..خلود ..والدته

والده...

ليته ما تنقل ولا وصل بأفكاره إليه

"هل تعلم كم مرة هددتها بك..وبعد ولادة عاليا صرت

اهددها بكما..ولأنها تعلم مدى خبثي انصاعت إليّ"

يتذكر يومها وهو يثأر لرجولته من أبيه..وقد أذهبت الخمر

رأسه ليهزي

"لقد أحببتها...يكفيني وجودها وقت رجوعي حتى لو ودت

خنقي..حتى لو لم تتوقف عن سبي وغلق أبوابها في وجهي

لقد أحببتها يا طارق.. أقسم.. أقسم.."

وقتها لم يكمل كلماته، وقد أغلق عينيه مستسلما للنوم مقيد

الأيدي لأعلى مشدودة..بقدم منثنية وجذع مصلوب...

لطالما علم بأنه يشبهه...

هل سيؤذي خلود وفي النهاية يدعي حبها....

هو يحتاجها!...أم يحبها!..يخافها!...

لا..لا جواب..

***

"لماذا تفعل هذا بها؟، أعطني سببا واحدا يبرر تلك الحالة التي

وصلت إليها"

يضع كوب العصير من يده، يواجه صياح طارق به، يتقدم

إليه يشيح بأوراق يحملها

"كيف تتحمل انزوائها وحزنها، ألا تملك قلب يعاني لأجلها"

يصمت، يركز، يمحص كلماته

"ها هي ضمانات قد تريح قلبك وتجعلك تشعر بالأمان

تجاهي"

يضع ورقة مما يحمله

"هذا منزل بإسمها

يضع الأخرى فوقها

"وهذه سيارة حديثة لها"

يخرج مفتاحها من جيبه يضعه فوق الأوراق

"رهن إشارتها"

يضع ورقة أخرى يكومهم كالتلال بأمواله...

"وهذا، شيك بالمال الذي تحدده أنت أو هي... وأنا سألبي"

فرغت يده..

يطالعه الجد..

"ألم تفهم بعد!"

"ما الذي تريده لأفعله، أنت لم تناقشني، جئتك طالبا لها

نهرتني ورفضتني دون سبب محدد، كلها كلمات مبطنة عن

خوفك مني، ما الذي يخيفك؟"

"غموضك"

يضحك...تصلها ضحكاته وهي داخل الملحق تستمع

لصياحه، تتْبع كلمات جدها بالابتعاد عنه وعدم التعلق

الزائد به، تحاول..تقسم بذلك...

إلا أن رسائله تزيدها تعلقا وحبا وشوقا للقاء يجمعهم...

يسحب الكرسي أمامه بعنف..يضم قبضتيه إليه

"اسمع..أنا لست عابدا او ناسكا، أنا بشري، لي أخطائي..ما أستطيع أن أعدك به، أن خلود ستكون بعيدة عن أي شيء، هي حياتي الخاصة التي لن يقترب منها أحد"

بوجه غامض أجابه

"هل من المفترض أن يطمئني كلامك!"

"أرجو هذا"

هاديء الملامح، يحجب انفعالاته عنه، يسحب كرسيه ليقترب منه

"لماذا خلود؟"

لماذا لا يجيبه بصراحة كما فعل معها، لن ينتقص ذلك من

قدره، ربما الصراحة تكون أقصر الطرق إليه كحفيدته..

تلك العائلة الغريبة التفكير عنه..

معقد هو كمعادلة حسابية متشابكة الارقام...

لماذا لا يُبسّط الأشياء مثلهم لعله يفلح في حياته...

"أحتاجها"

"ما الذي تعانيه طارق الرشيد؟"

يتخلى عن تلقيبه بسيدي وقد بدت جلستهم أقرب بجلسة

عائلية..متكاشفة الحجب

"الكثير.."

يضع قدميه على حاجز الطاولة السفلي يريحهما، يتناول

كوب عصيره

"أخبرني بالقليل..مما تملك"

يستند بكوعه على الطاولة يقذف بثقل جسده عليه وهو

يسند رأسه إليها

"أنا..أ..تحملي مسؤلية المال والعمل على زيادته، عاليا

بطفوليتها وحماقتها، شخوص حولي بين جيد وطامع"

تلك بعضا من الحقيقة، يطمع في أكثر من ذلك

"ألا يحق لي التدخل قليلا في حياتك، بإعتبار أنك خاطب

لابنتي ومن حقي التحري عنك؟"

يشير إليه

"تفضل"

"كيف هو والدك، والدتك، علاقتك بهم كيف كانت"

ها هي اسئلته بدأت في التصاعد، وصعبة هي الإجابات

"أمي كما تعلم، شكلت جزء كبير من حياتي..تؤازرني في

قراراتي...ال..."

قاطعه قائلا

"الخاطئة!"

نظر إليه طارق بتشكك..

"لماذا تقول ذلك ؟"

"لأنك غادرت للدراسة ولم تكن معك كما اخبرتني من قبل،

وقد كنت صغير..من أين تملك القرارات الصائبة...من

الواضح أنها دللتك"

يشرد، ويتساءل...هل كانت قراراته خاطئة!

لماذا يشعر بأنه لو عاد به الزمن لفعل ما فعل مجددا

"وماذا عن والدك؟"

تبدلت ملامحه، عادت لحديتها

"كما تعلم هو في غيبوبه، إشتغل بالمال والسياسة، و عالم السياسة مليء بالأعداء..اختفى لفترة وتكتمنا على الأمر.. إلى أن ظهر وهو على هذا الحال"

"لماذا لا يذهب للمشفى"

"لأني أتكتم على الأمر"

"لقد مر الكثير من الوقت..ألم تجد الفاعل حتى الآن؟"

"سأجده"

ألن ينتهي هذا الإستجواب، يخوض معه في أمور شائكة، لماذا عليه تحمل كل هذا؟وكأنه يمشي على حد السيف ويخشى جرح قدمه..

يضيق عينيه بتساؤل جديد

"لقد قالت عاليا مرة بأن والدك سكير"

"أجل"

"هل ورثت ذلك عنه؟"

ها هو يأتي لمنطقة أخبرته بها خلود من قبل، هذا هو اللعب الذي ينتظره

"أجل..لكني لست مدمنا للخمر مثله"

"القضية ليست في الإدمان، إنما في أن قليلها كثير.."

"أنا لا أتناولها على الدوام، ولا تُذهب عقلي، كأس أو إثنين..."

قاطعه بحدة، وقد خاض جدالا لا يحتمل استيعابة، وبحمية دينية غضب عليه في كلمات تنهره

"وهل ستجعلها تشرب معك كأس أو اثنين...وماذا أيضا ستخبرها بأن حجابها لا يلائمك...وربما ترتدي القصير

وتعري كتفيها..وتصبح عارضة أزياء كما ترغب"

تستمع إلى كلماته الغاضبة من مكانها، هي تعلم أن تلك

المنطقة محرمة عند جدها... إلا العبث بها.

"لا، لن أفعل..أحمل في قلبي غيرة على ما أملك"

"كما تغار على عاليا!، خلود ليست ملكا لك"

وقف بحدة، يصرخ به مجددا

"انتبه إلى كلماتك..عاليا لازالت طفلة..أخبرني ماذا تريد!،

لقد مللت هذا الحوار الذي لا يجدي نفعا..لن ادعها تخلع

حجابها، ولا تعري كتفيها...أنا رجل في النهاية..ولن تكون

زوجتي سلعة رخيصة للعيان"

حسنا...لقد أعجب بحميته...ليقول

"والخمر!"

"إسمعني جيدا أيها العجوز، أنا لن أقول لك سأقلع عنها

ولن أعطي وعودا أنا لست أهلها..لكني أعدك بأني

سأحاول"

سجل إعجابا ثانيا في مرمى الجد بصدقه...

"أخبرني مجددا..لماذا خلود؟"

يردد ببلاهة من كثرة التكرار، ينظر لأعلى يستجلب الصبر

"لأني أحتاجها"

لم يكذب ويخبره بأنه يحبها وهذا يكفي...

هو لن يجني شيئا من انزوائها جواره..ولا من امتثالها لأوامره،

يكفيه حسن خلقها ودينها الذي زرعه بها، فمن السهل

عليها قذف كلامه ارضا وتخطيه..لتتلحف بقوة طارق

وهيمنته ويصبح الشرير في الحكاية...

إلا أن رفضه الحكيم محص الاثنين...

علم مدى تمسك طارق بها..ورأى بعينه أخلاق خلود

وارتباطها به، رغم حبها لطارق إلا ان طاعته كانت أبدى

عندها...

"هل وافقت؟"

ينهي كوبه

"دعني أفكر"

لملم الأوراق وهم بالمغادرة ...

أشار له بيده وهو يقول

"أنا لم أقل بأن الضمانات المادية ليست هامة...دعهم"

يتخلل شعره بيده..وقد اتقد شعاع الأمل بداخله.

***

يرزع باقة الزهور بعنف حتى تبعثرت أوراقها على طاولة

الملحق

"أخبريه بأن يتوقف عن تلك الأفعال، هو ليس مراهقا ليقوم

بذلك"

تبسم ثغرها الحاني

"يُقدم السلام يا جدي، يؤكد على طيبة قلبه، ينتظر

موافقتك"

عقد حاجبيه

"هل تتحدثي إليه"

"يرسل رسالة صباحية قبل وصول باقة الزهور.."

تضايقت ملامحه لتردف

"وأنا لا أجيبه"

يستغفر من أفعال هذا المراهق...

يمكث في الفيلا، لا يغادر إلى عمله منذ اسبوعٍ، لقد كانوا

يقنعوه بالقوة على المكوث في المنزل يوم تعبه...ما الذي

تبدل..لقد التصق بالفيلا وكأن بها عسل...

هشاشة وجهها وانبساطه كانت حلمه بعد أيام عصيبة على

حزنها...يلمس على شعرها ينحي غضبه..

"هل تقبليه زوجا يا خلود.."

"أجل"

"سأؤازركِ في قراركِ"

أجابت بخجل

"أعلم.."

تنهد يضمها إلى صدره

"لا تخفي عني أي شيء..دوما ما سأكون جواركِ، كوني قوية

معه..طاعته واجبة..فيما لا يغضب الله يا خلود"

تتمتم وهي بين دفئه

"يحاول الإقلاع عن الخمر.."

"الخمر ليست كل شيء، واعلمي بأن مواقفتي مبدأية،

سأضعه تحت المجهر..بينكم فترة الخطبة، إن رأيت منه شيئا

سننتهي"

اومأت برأسها تشاركه الحديث

"يعلم بجهلي بأنواع تلك الزهور الباهظة..ليخبرني كل يوم

بأسم واحدة...الأقحوان..الجازانيا.. واللافندر.."

يميل برأسه يقول

"هي مبهجة للامانة، لكن لا تعجبني نحنحته..أهذا هو طارق

الرشيد.."

"لقد أخبرتك بأنه ليس كما يبدو"

يحاوط رأسها بكفيه..

"اسعدي يا خلود..لا تجعليني اندم على اختياره..حاولي معه

ليت ما يخفيه يكون هاجسا أو تخبط منا في فهمه..كوني قوية

يا ابنتي"

يقبل جبينها...

"إمنحيه موافقتي"

"افعل أنت، لقد كان حديث رجال"

يهز رأسه

"صحيح"

يتركها ليذهب إلى عمله...

لتستلقي هي تتفحص رسائلة...

"هل أعجبتكِ باقة اليوم...باقة جديدة بزهور جديدة"

من يصدق بأن طارق يهتم بالزهور ويعرف اسمائها ويهتم بأن تكون باقة زاهية الألوان...

"جدكِ ليس خصما سهل بالمرة"

"هل وافق؟"

يترقب ردا منها، كم هي قاسية، لا تمنحه نظرة أو كلمة منذ وقت طويل

"أنا متعب"

إختض قلبها...

يتلاعب بها..لا بأس في القليل من المكر مع فتاته...

لقد أصبحت فتاته حقا، يقاتل لأجلها..بل ويتغير..

من يصدق بأنه لا يكذب..وقد علمته هي وجدها درسا

فعليا عن ضرورة الصدق فهو الأقرب للقلوب..

يسير معصوب الأفكار..لا يمنح مشاعره مسمى..ولا يريد..

هو يمشي متحرر اليدين تجاهها..غير مقيد أو مدفوع للتقرب

منها...

"ممَ تشكو؟"

مكره اظفر بنتيجة..تهتم..هي تهتم له وتخشى تعبه...

بعين متسعة شاردة يطالع رسالتها...لتتبعها بأخرى تؤكد على

صدق مشاعرها

"طارق..هل أنت بخير؟"

يرى رسالتها ولا يجيرها، تشعر بالقلق...

تهاتفه..يرد بصوت متأثر بأهتمامها، لقد كان اختياره لها

صائبا..هي من ستمنحه ما يريد

"طارق.."

صوتها القلق يذيبه

"بدون ألقاب!"

"لنستعيدها"

"لا"

تستمع لأنفاسه

"لا لست بخير، أم لا..لا نستعيد الألقاب"

"لا تتركيني يا خلود"

اغلقت الهاتف..وقطعت شبكة الانترنت عنها...تحاول

السيطرة على أنفاسها، يتوسلها البقاء كما يفعل

دوما..تهمس..تنهج

"ابداا..ابدا لن أتركك يا طارق"

ينظر إلى هاتفه..لقد أغلقت الهاتف في وجهه..حسنا..لقد

نال جوابها..

لم تكد تفعل حتى كان يقف أمام الملحق..يدق بابه..يفتح له

العجوز قبل مغادرته متعجبا من حالته، هالة مشعة حوله

تتملكها الحماسة..بنبرة حاسمة قال مباشرة

"لقد أقلعت عن الخمر"

ينظر حوله مستفهما

"ماذا تريد؟، هل تُخطب النساء على الأبواب هكذا.. أين

أهلك يا بني لكي ألقاهم، أو أتحدث معهم"

أجاب بفظاظة

"ليس لي أحد"

بقدر تخوفه من كلمته، بقدر ما حزن إلى حاله...

يشفق على وحدته وأخته..فضل عدم المراوغة كثيرا..فكان جوابه..

"أنت من ستتزوجها، ستكون رعيتك وستسأل عنها، لست بحاجة لأحد آخر، يكفيني وضع يدي بيدك"

***

مزقت بنفسي رداء الطفولة المشوه

لارتدي بدلاً منه ثوب الإيلام

لم أكن لأمي سوى بذرة الخطيئة

التي روتها بدموع الخذلان

فأنبتت زهرة مفتقدة الأمان

اجتُثت من أرضها الخصبة ..

قبل فوات الآوان

جسدٌ مقيد في الظلام !!

وسوط لاسع بيد السجان !!

وصرخات تشق أرجاء المكان !!

ولسعاتٌ حارقة تهوي على جسدي !!

لتحرر روح مكبلة منذ قديم الزمان

وأنا مضطربة ما بين الواقع والهذيان

ملامحي باهتة مفتقدة الألوان

وكأنني في خريف العمر

يتساقط مني كالأفنان

خاطرة بقلم هبة الغريبي Heba Elghoraiby

***

الفصل الثالث عشر

***

وأخافُ يوماً أنْ أعُودَ بِلا جَناح

كالطّائر المكسور ،تحمِلُه الرياح،إلى الرياح ..

خاطرة بقلم ثروت الزعبي

***

تبسط يديها إليه، وقد وقف أمامها متخشبا، لا يعي ما

ضمت قائمة مكتسباته، يشعر وكأنه متخما مخدرا مما ناله

الأيام الماضية، يهرب من عيون العجوز التي باتت لا تملك

عنصر جذب في الكون سواه..

موافقته التي بدت مترددة، عيونه المترقبة، آذانه المنصتة..

رغم وصوله إليها ..هو خائف..

يمسك كفها بتردد وقد إقترب وقت اللقاء، لا ينكر توهج

مشاعره نحوها، لمسة يديها تثيره، هو يحتاجها في جميع

الأحوال ويعد إمتلاكها نصرا له، لكنه يخاف برودة قد تقتحم

علاقتهم.

عانقها يباركها، ضم ذراعيه الكبيرتين لتنكمش داخلهما

وكأنها في مخيّم يحاوطها قماش شديد الثقل بلا ثغرات قد تنفذ

منها المشاعر.

يرفع حاجبيه يستشعر هذا العناق، هو كال..ال..دوما ما يحتار في اختيار المسميات حولها..كالانصهار، كمن ذاب عندما اقترب من النار، او كمن ساقه العطش الى نهر عذب واسع، او كال ... ال..المسافر الذي عثر أخيرا على بيت يأوي اليه.

يتحسس ظهرها، يتذوق نوعا آخر من القرب بعيدا عن الهاتف..فقد منعها جدها عنه حتى يوم الزفاف، كان يحلم بهذا القرب ويتساءل كيف سيكون!

تتعلق بعنقه، تشعر بصدرها يتكسر من قسوة عناقه، انتبه لذلك مع انينها...

يبتعد بأنفاس ثقيلة مترددة، ينزل بوجهه يميل به يقبلها..

لو ظنت بأن عناقه قاسي فماذا عن قبلته؟

يبتعد برأسه، ينظر في عينيها، يتحدث اليها عبرهما، لازال

يمتلك خصرها نحوه..يلصقها به.

كأنه أسير لعالم آخر..يرى فيها خلاصه، يحاول ازاحة افكاره

السلبية عن فشله في علاقته بها، متخوف من كلمات

طبيبته التي باتت تلازمه في الايام السابقة...

لم تكن تتوالى عليه كالسيل بل هو من يستدعيها...لم يفكر

يوما في استكمال علاجه...الا أنه الآن يريد...

بريق عينيها، إرتعاشة جسدها، قلبها الذي ينتفض بين يديه،

يستحق المحاولة...

"طارق.."

يرفع حاجبيه برقة، يهمهم

"اممم"

تُجلي صوتها، تسكن اليه

"جدي، عاليا، السائق...سفرنا، العالم ينتظرنا بالخارج"

كأنه لا يستمع إليها، يتمسك بفستانها وكأنه وجد الإهتمام،

وحاز على ما يحتاج ولا يريد شيئا بعد.

يفك حصار خصرها، ليمسك كتفيها بيديه، يميل برأسه

مجددا ليلثم ثغرها هذه المرة بحدة اقل..

تذوب معه..تنساب أطرافها..يسندها بيده..

"خلود، تماسكي"

كانت أول كلمة تسمعها منه منذ مجيئه الى الملحق..بعد أن

أصر جدها على المغادرة منه...بجسد مفكك تستند

اليه..يضحك...يضم رأسها بكفيه...

"سأتماسك أنا..خلود، سأحاول"

يبادر بمسك يدها..يضعها فوق ذراعه، ليخرج إليهم.

ترتعد يديها فوق ذراعه خجلا..

يسقط ضوء الشمس فوق فستانها ليسطع وتزداد بريقا

كماسة زادها الضوء بريقا ليظهر معدنها أصلية..غالية..ثمينة

وليست مزيفة...

إلتقطتها عينيه وهو يقف بالخارج بصحبة عاليا، والمصورين..

زغاريد مبشِّرة تعالت من الخدم، يلمسها طارق بأوضاع

مختلفة ليلتقط المصورين الصور...ليذيع خبر زواجه...

أخبره بأنه دعى خاله، ولسرعة الزواج لم يكن لديه الوقت

الكافي للحضور إليه...

يقترب منها، متماسك، لا..مهلهل المشاعر، ولأول مرة

خلود ستفارقه يومين كاملين بصحبة زوجها الى بيته

الساحلي، سيكون وحيدا، لكن لا بأس..هي تستحق

السعادة..رغم خوفه.

"مبارك حبيبتي"

يقبل يديها فتقبل رأسه...تمتزج دموعهما

"جدي..أرجوك..لن أتغيب كثيرا، أعدك..إهتم بوالد طارق

كما علمتك، وأي شيء ترغب معرفته حدثني ..انا احبك"

يتمسك بكفها

"سأشتاق اليكِ.. اهتمي بنفسكِ"

يربت على ذراع طارق ليردف

"وبه"

يحتضنه، يخبره

"دللها، أقسم ان دمعت عيناها وهي معك.."

قاطعه طارق بخشونة

"ماذا ستفعل..."

قال يرفع يديه

"سأدعو عليك"

"لا تقلق ايها العجوز"

ينظر اليها

"أنت لا تعلم بماذا اهديتني"

تبتسم وهي تتذكر اقترابه منذ قليل..خائفة لكن مستمتعة،

تثق بأنها ستجيد التعامل معه، تدعو الله بذلك.

يقترب السائق منهم

"السيارة معدة يا سيدي، هل نتحرك الآن؟"

***

بث حي تنقله عبر كاميرا هاتفها الى كمال، الذي يتابع

زفاف طارق وكأنه معهم، رغم انشغاله في التحقيقات معه

بشأن دار العجائز إلا انه يضحك بمكر..

"عاليا، جروي الوفي"

تقترب الصورة من خلود التي تتفرس طارق، يديها بين يديه..

نظرتها اللامعة نحوه..تحبه هي..ضحكة أخرى قوية

"أحبيه كثيرا، وتمتعي معه يا خلود كما شئتِ، إقتربي حتي

يكون وقت الفراق سلخا مؤلما لمشاعركِ الرقيقة..ودمارا

غاشما يتمرغ به روميو "

تبدل الكاميرا ليراها .. وقد غادرت بعيدا تتحدث اليه

"كيف الحال؟"

يستند برأسه على كرسيه

"بخير حال..وانتِ"

"كما ترى"

تبعد الكاميرا قليلا..تمررها فوق جسدها، تريه فستانها

المختار، فتصلها تنهيدته وكلماته المتحسرة

"ليتني معكِ يا عاليا، لكنت مزقته"

تخفض أكمام فستانها قليلا لتبدو مغرية أكثر بكتفيها، يتأوه

بعنف

"لا تثيري شوقي وأغلقي الهاتف..الآن"

ضحكة صاخبة من شفتيها وإغلاقة زر...ولم تنتبه لمن يراقبها

عن كثب رغم بعده.

**

الدقائق الأولى من وصولهم.

وقت الغروب، سماء برتقالية تنزلق بين الأمواج لتختفي، تقف

بصحبته أمام بيت الساحل، حتى ينتهي السائق من تحميل

أشيائهم للداخل..

لا يراقب الغروب مثلها، يبدو غريبا عليها كل ما يألفه هو..

هو يراقب أشياء أخرى بها، لم يسعفه حظه وتزمت جدها

النظر اليها كما الآن..عينيها الضيقة كزيتونة..حارة بتأثير

الغروب..شفتيها المكتنزة يتوق لتذوقها بتأني..بشرتها الخمرية

الرقيقة..

كرمشة ما فوق حاجبيها تجنبا للشمس..

يلامس تجعدها لتنفك وينبسط وجهها بما يشبه الابتسامة...

بإبهامه يمر على وجنتيها

"نقلت كافة الحقائب، الطعام على المائدة، أنا سأغادر"

لم يقطع السائق حبل وصالهم..إنما قال ما قال وغادر.

صوت محرك السيارة، ألهمه لتشغيل محركات جسده

يحملها..يتوجه بها الى الداخل بهدوء معاكس لخافقه النابض،

الصاخب...

يتشمم رقبتها، يستمع الى ضحكتها، تصرخ به

"أنت مجنون.."

يسقط بها فوق سريره بعد أن فتح جميع الابواب المغلقة

بقدمه...وتبقى بابا واحدا..

يدعي الهدوء وهو أقرب ما يكون للجنون كما وصفته منذ

قليل..

هي المرة الأولى التي يجرب بها علاقة سوية مع إمرأة...

بعد أن دعته طبيبته يوما لتجربة مشاعره تجاة الفتيات، حتى

تقيم تأثره بما حدث معه في صغره...

لكنه لم يرغب فيهن، ولا يشعر بالمتعة في قربهن...

خلود هي من أراد...

"خلود..أنا..."

تضع أصابعها فوق شفتيه

"سنجتاز كل شيء سويا...كل شيء"

تسكره بحديثها ونبرتها الرقيقة، يردد كلماتها..ينظر الى شعرها

الذي انفلت من حجابها وهي تنزعه...شفتيها التي تدعوه

اليها برغبة وحب...

يقترب يلامس رقبتها بيديه..يقربها منه...يستكشفها،

ويستكشف نفسه معها..التصقت به...لتبادله الجنون بجنون.

***

"إلى أين يا عاليا"

"سأخرج"

يغلق غرفة والدها بعد أن أعطاه دواءه، ينظر في ساعته

"الآن، لقد تأخر الوقت"

هل يغادر طارق وتحكماته ليأتيها هذا الغريب ليفرض سيطرته

عليها...اللعنة

"لقد مللت، سأغادر الى سلمى"

"لقد نهاكي طارق عنها.."

لقد أخبره طارق بما يجب عليه فعله نحوها، أعطاه صلاحيات

التحكم..وكأنه موجود

كشفت عن وجهها القاسي وقد فاض بها من التحكمات

"هذا ليس من شأنك"

إحمر وجهه ينهرها

"عاليا، منذ متى تتحدثين الي هكذا!"

"أنا...أنا..."

حاول إمتصاص غضبها، تغير صوته، بدا هادئا

"ما رأيكِ بأن نلعب الورق؟"

تتنهدت بتيه..تشيح بيديها

"أنا لم أعد طفلة يا جدي"

" اعلم ذلك..انتِ عروس كبيرة، من قال بأنكِ طفلة!"

راق لها كلامه..إبتسمت له

"هل تحمله، أم أخرج أوراقي أنا"

لم يغادر الخدم ككل ليلة الى منازلهم...بقوا جميعهم

لأجلها...

أمرهم طارق بالاهتمام بها لحين عودته...

"ما رأيك بحليب بالشكولاته"

لعق فمه..يثني على ذكائها...تتركه لتجلب اليه الحليب

وتضع له حبات منومه وهي في طريقها اليه...كانت

تساعدها على النوم في الايام الاخيرة..قد نصحها بها كمال

ذات مرة.. ...لم يأخذ اكثر من دقائق حتى نام قرير العين في

مكانه...

أخبرت الخدم بعدم إزعاجها فهي ستنام...بينما العجوز نام

بالخارج لينتبه لابيها، متسللة الى الخارج بهدوء..

إقتربت من باب الفيلا الخلفي...

أغلقته خلفها...تمشي حتى تجد سيارة توصلها...

انتبهت الى أضواء خلفها تُفتح وتغلق في اشارة من احدهم

لتوقفها...

تستدير لترى سائقهم يترجل من السيارة...

"هل تاخرت عليكِ، تريدين الذهاب الى اي مكان؟"

وهنت عزيمتها، لقد فرض طارق حولها الحصار...يبدو أنه لا

فكاك...فهذا الضخم ماذا ستسقيه...

أتاها صوته المخلص

"أمرني سيدي بأن أكون في خدمتكِ وقتما شئتِ"

ركبت السيارة...تبعها هو...

"اعدني الى الفيلا"

***

منتصف الليل

"كيف أصبحتِ هكذا يا خلود؟"

تلتقط حبة الأرز من فوق صدره، تضعها بفمها، تسأله

"كيف؟"

يلامس الحائط بظهره وهو يجلس أرضا بعد أن تناولوا

غدائهم، من يصدق بأنها معه هنا في المكان الذي شهد

أحزانه..وافكاره السوداء جميعها..

تتحرك الى الخلف مثله، تستند الى الحائط بينما رأسها فوق

كتفه..لا تنتظر توضيحه لتقول

"أتعلم، لو لم امتهن التمريض لكنت واحدة من اكبر

مستوردي الألعاب من الصين"

ينظر الى شعرها الذي افترش كتفه ليسقط اطرافه فوق

صدره...

يتساءل عن علاقة هذا بذاك، تكمل

"الصين تتاجر في كافة البلدان..منهم من تتعامل معه باشياء جودتها رديئة، ومنهم من تمنحهم أفضل ما لديها، البلد ما تحدد طبيعة الاشياء التي تدخلها الى شعبها"

"ما علاقة هذا بسؤالي؟"

"أنت من تختار كيف تكون، من اصحاب الاشياء الرديئة أم الثمينة يا طارق، أنت من تحدد رثاء ذاتك واستثارة شفقة الناس، أو الوقوف على العقبات لتمنحك علوا وارتفاعا"

إلتمعت عينيه تأثرا، لتردف بقوة

"ثبت قناع الصبر، فالعالم لا ينقصه بائسين"

تذكره ببؤسه يوم زفافه، إنه لذكاء منها...وقد كدرت سعادته..

مالت برأسها لتتمدد أمامه، تضع رأسها على ساقه هذه

المرة، وقد أصابها خدر الطعام بالنعاس، هي مع زوجها ممتلئة المعدة، جدها يرعى والده..ما الذي ينقصها لتنام ملئ عيونها...

يرفع يده الى شعرها بهدوء، يستعذب مشاعره نحوها، يلامسه..يملس عليه كمن يستشعر جودته..ليس بالناعم ولا الخشن...يعتدل بجسده لينزلق ويصنع من ذراعه وسادة لها..يراقب ملامحها...

أهدابها القصيرة، حاجبيها الطويلين، جبينها العريض، وجنتيها المرتفعتين كما لو حقنتهم للتجميل...

لامس احداها بأطراف اصابعه الأربعة، وبذات الأصابع عاد الى شعرها يلتقط حبة أرز سكنته..يضحك..، يتلمس ذراعيها، إلى أن توقف عند بطنها وغفى..

لا أفكار توجهه، ولا ماض يؤرقه، حاضر يعيشه بكافة

تفاصيله..مستمتعا بفيضه..

***

يقف على أعتاب باب أبيها، ينظر عبر فتحة صغيرة منه

يترقب نزولها..هو لن يغادر هذا المكان إلا وهو يعلم لماذا نام

في تلك الفيلا بالأمس...

بإسترجاع بسيط لما حدث، لقد تناول مشروبه وسقط في

ظلام لم يفق منه الا بعد ساعات طويلة..

يحمد الله بأن تأخره لم يؤثر على متابعته لوالدها..

صوت حفيف قدميها، نبهه لإقترابها من إنهاء الدرج..

ينظر في ساعته..الواحدة ليلا..ترتدي كامل ثيابها..تهم

بالمغادرة...

تتسلل وهو خلفها..الى أن رآها تغادر من الباب الخلفي

للفيلا..

يعلم بأنها ستسير طريق طويل حتى تجد سيارة تقلها حيث

تريد...

يكاد يركض الى الخارج، حيث السيارة بسائقها..

يلهث من هرولته وهو يركب السيارة جواره

"كيف حالك بني، هيا..الى طريق الباب الخلفي للفيلا"

"هل تراقبها؟"

إندهش من معرفة السائق ما يفعل..أردف

"كانت ستغادر بالأمس أيضا، لكني عدت بها"

يعقد حاجبيه، لا يعلم مقدار المصيبة التي إبتلعت عاليا، لكن

إنقباضة قلبه أخبرته..

يسير بعيدا عنها، ضوء السيارة مغلق، متشاغلة بهاتفها...

لحظات وسيارة تقف لتقلها...

"إتبعها..كن حريص بألا تراك"

لحظات وأقتربت من ترك العمار..تتوجه لطريق مظلم..ثم

كانت المفاجأة...

تلف السيارة..وتسير في طريق العودة الى الفيلا..

"ما هذا العبث؟"

كانت كلمات السائق..

بينما صمت الجد وتفكيره فيما يحدث كان أشد عمقا من

كلمات تلقى ولا صدى لها..

عادت الى الفيلا..ودخلتها من بابها الأمامي..تقف..تنتظره..

وقبل ترجله من السيارة كانت تفتح له الباب

"هل تراقبني؟"

ينزل ويغلق الباب خلفه..يجيب بلامبالاة

"نعم"

صاحت به

"من أعطاك الحق؟"

لن يخبرها بمعرفته ألاعيبها في تنويمه، ولا معرفته في أنها تفعل

شيء خطأ..قال

"طارق.."

"اللعنة على طارق.."

أشاحت بيديها مغادرة، بينما صيحة مدوية أوقفتها

"إنتظري.."

نزل هو الآخر وأغلق بابه بحدة..يسير إليها غاضبا

"أنتِ قليلة أدب ولم تربيّ يوما تربية، أنتِ مدللة..طفلة هائمة

لا تعرف ما تريد..أقسم بأن أخبر السيد طارق بما حدث

لقد إستأمني عليكِ، وأنا لن أخسر وظيفتي لأجل مدللة

مثلكِ"

تبكي، تضرب الأرض بقدميها، تركض الى الفيلا بعنف ...

لم تجبه ولو بكلمة..لم تتوسله صمتا لما رأى منها...

يتفرسه العجوز..يحدثه بفخر

"أحسنت يا عبد الرحمن"

***

"سأخبرك بباقي الأشياء التي جعلتني هكذا لكن بشرط"

يبتسم لعينيها المحبة

"ما هو؟"

تعطيه قميصا يرتديه وقد برّد الطقس، فلم يعد حارا كما كان، فالخريف على الابواب..

"تخبرني ما نوع الإنتهاك الذي قام به والدك"

إهتزاز حدقتيه وهو يجذب الكرسي، كان تعبيرا هادئا عن غضبه، ليس الآن يا خلود، لقد وقفت للتو على أقدامي ألملم شتات نفسي .

تجاهل شرطها، بهدوء ظاهري وداخله يغلي كالنيران المتأججة يقاوم رغبته في التحطيم، هي تعلم منذ انهياره إذا وكذبت عليه..

تظن بأنه من السهل عليه أن يقص ما حدث، لقد كانت النصال تدميه وهو يحكي معاناته لطبيبته..الآن سيقص عليها هي؟

يستحيل...

تبدل وجهه جعلها تتجاهل تجاهله، إقتربت تحتضن كتفيه اليها، تمنحه الحب.

"هل تشعرين تجاهي بالشفقة !"

جلست أمامه لتناوله صحنه، تناول خبز فرنسي ليضع فوقه قطعة من البسطرمة قطّعها بالسكين، يهم برفعها بالملعقة الى الخبز.

"أجل"

لا يفهم، أجل تشعر بالشفقة نحوه، ما سر ضحكاتها التي تدغدغ عينيها ليرى بنيتها رائقة.

أمسكت بالخبز الاسمر وهي تردف

"هذا الطعام يؤكل هكذا، أشعر بالشفقة تجاه ثراءك، ذكرني

يوما كي اصطحبك الى عم مسعد، يملك عربة فول، ولا

اشهى"

تقبل دعابتها، يعي جيدا اختلافهم، ويطمح في أن يمحو

ماضيها، ليجعلها تتذوق حلاوة ما حرمت منه.

"تفهمين قصدي يا خلود"

"لا، انا لا أشعر تجاهك بالشفقة، لا انكر غضبي منه لمجرد انه

آذاك، أنا أعلم بأن ما فعلته به هو رد فعل لفعل مهيب قد

سبقك به"

ترك طعامه، والذكريات تتلاحق أمام عينيه، لتعكر صفوه.

كمال، شمس لاهبة، صخور توشك على أن توقد من شدة

الحرارة، مكان لا يعلم من أين عرفه كمال.. ليأتي به اليه.

"فرغ سخطك هنا"

ناوله فأس مدبب، كي ينحت الصخور ويسحقها، ساعده في نزع قميصه، شد على يده، ليقول بقوة

"إضرب"

يلتقط أنفاسه في هذه الحرارة بالكاد، لا توجد نسمة واحدة للهواء في تلك الصحراء الواسعة، صرخة كمال به جعلته يتنفس بعنف

"بقووة"

وفعل، ضرب الصخور، تفتت من ضرباته الساخطة، في محاولة منه لإخراج غضبه بطريقة سوية قبل أن يجد والده.

تصبب العرق فوق جبينه، وخلود تراقبه، قامت تجلس على ركبتيها أمامه..

"ما بك! تحدث الي يا طارق.. قص علي كل ذكرى بائسة

تؤرق مضجعك، سأحمل عنك، وأخبرك ماذا نفعل"

وضعت نفسها معه في سلة واحدة يوم وافقت على زواجها

منه، تحاول الولوج الى عقله وأفكاره.

هذا التشتت والضياع فوق وجهه أهلكها، كيف تجعله

يتحدث.. كيف!

أخبرتها الطبيبة النفسية التي تتابع حالته معها بضرورة

التواصل معه، وفتح مجال للحديث، بل ومنحه الحب

...الكثير من الحب..

"طارق يجب أن يحب نفسه أولا، كي لا يأذيها، جروح

جسده ما هي الا ألم للروح، هو يكره جسده الذي تعرض

للسوء ولم يستطع الزود عنه، إلتزمي بتعليماتي لحين معرفة

طبيعة الانتهاك الذي تعرض له يا خلود"

إلتهام وجهها له هدأ من انفعاله، كلماتها التي تعده بمشاركتها

له كل شئ، جعلته يشعر بأنه لم يعد وحيدا كما السابق، بل

هناك من يهتم لأمره، وليس كما كان هو من يراقب،

ويحتوي، ويسيطر على من حوله.

"حسنا، دعنا نترك الماضي قليلا، ما رأيك..هل نخرج الى

مكان لم تره من قبل"

بحاجبين منعقدين ووجه متجهم أجابها

"لا يوجد مكان لم أره من قبل"

ثم ابتعد يراقب عينيها

"لا أريد الخروج"

تنحنحت وقد أثار دفء حديثها قلبه فباتت الدماء تتدفق

بقوة في شرايينه، تتعلق برقبته

"حسنا، لا بأس في ساعة أخرى، قد نلعب فيها، أو نركض،

او .. "

قاطعها ليحملها، ويقف بها، دفء جسدها المنبعث من روبها

الخفيف يشعله، ومع إعتراضها، وأرجحة ساقيها، تبعثر

ثوبها.

تضحك

"أنزلني يا طارق"

يمشي بها نحو غرفتهم، ولم يجيبها..

أغلق باب الغرفة، يقترب نحو إمرأته بعشق، فاجئه هو نفسه،

عشق لخطوات تختزلها لتلتصق به، عشق لمشاركته اوجاعه،

عشق لمن ترغب في سحب آلآمه حتى لو عانت هي عوضا

عنه.

يتأوه عاشقا، تتبعثر بخجل، يضمها داخل قلبه ويدفعها بقوة

بين أضلعه لتصير لحما وعظما وشرايين لن يحيى بانقطاعها،

فباتت هي حياته و نبضه.

لمساته رقيقة حانية، لا تشبه قوته في مجابهة والده، ولا

وحشيته في تقطيع جسده، ترجو السير الصحيح نحوه، طريق

معوج، مسنن بقطع زجاج متكسرة حادة، عليها تمهيده

وتقويمه..ومن سيمنحها الصبر سواه "الحب".

سوى حنيته في لمسها وكأنها فراشة رقيقة يخشى ضعف

أجنحتها، يخشى تكسرها إن إقترب أكثر.

سوى صراعه بين انتقامه وانسانيته، بين دار مسنين تعذب

عجائزها، ودور ايتام يحرص على تلبية احتياجات ساكنيها.

لم تره يوما وحشا، ترى جانب وجهه الآخر الذي يخفى عن

الجميع..

بل يخفيه بإرادته عنهم...

يخشى الشفقة ..

يرغب في تفريغ غضبه..

يخشى المسائلة والأسئلة..

يرغب في طمرها ...

تستشعر التصاق وجنته بها..

"خلود.."

من بين أنفاسها

"نعم، يا قلب خلود"

يتخذ من صدرها وسادة لرأسه

"هل تحبيني!"

"ألازلت تسأل!"

"أجيبيني"

"نعم"

رفع رأسه نحوها.. يرى إنفراجة شفتيها، ليلمسهم بأصابعه

بنعومة

"تعرفين ما أريد"

لمست رأسه، ليعود وضعه كالسابق..

"هكذا، فوق صدري، هنا ، بالتحديد، اه.. رأسك ثقيلة"

تضحك بمرح، ثم تقول

"أحبك، أحب مراوغتك في إخفاء جانبك الطيب، خوفك

على الجميع، أحب إهتمامك بعاليا على قدر استطاعتك،

جدي، والدك"

"أنا لا أهتم به"

"ستفعل، منذ الغد، وانهماك جدي العمل في الدار، ستهتم

أنت به"

يستمع لخافقها، الذي خدره، فبات لا يستمع الى كلماتها

...

رفعت وجهه اليها تحتضنه بكفيها.. يبكي.

يبكي على صدرها، وبين يديها..

"لقد إغتصبني يا خلود"

شهقت، تجهمت، سالت دموعها بينما تمسح دموعه التي لم

تكف...

"لقد فعلها وهو مغيب، ينهر تنمري، كره عنفواني في سنوات

شبابي، قصمني يا خلود"

شددت من عناقه، يختبأ في صدرها، لم يتحدث لأحد عن

الأمر منذ سنوات، لا يريدها ترى خزيه وعاره...

يختبأ عنها بعد أن صارحها، اي شتات تمكن منه ليجعله

هكذا بين ذراعيها.

تضم رأسه اليها أكثر وأكثر .. تقبل رأسه..وتمسح دمعه...

"لقد حطمني، وحطم أمي، كان سببا في ابتعادي عنها

وغضبي عليها، حدثتها بالسوء، وظننتها بالاسوأ "

قامت لتعتدل وتجذبه معها...

شهقاته كطفل صغير فقد امه للتو وينازع علقم خسارتها..

"طارق.. حبيبي، لقد كان الأمر رغما عنك، أليس كذلك"

قام من جوارها وقد تبدل حاله، ثورة ما تحرك جسده ..

تشنجت عضلاته .. تراه من مجلسها وتشفق عليه..

"كانت رائحة الخمر تفوح منه"

"لهذا نهيتك عنها"

"امتهن رجولتي "

"أنت سيد الرجال يا طارق"

تقترب منه..تخشاه وتشفق عليه . . احمرار عينيه، بريق

الدموع على جلده، يبكي ضعفه.

"لقد ولى كل شيء"

"عندما أراه يولد كل شيء من جديد، غير قادر على قتله،

ولا قادر على أن أراه حيا"

تحتضنه، تستجديه أن يضمها بين يديه

"تقتلني رؤيته يا خلود، ذاك اليوم، المظلم، غرفته، لقد ذهبت

إليه أرجوه وفاقا مع أمي، أنهاه عن الخمر التي تتسبب في

مشاكل بينهم، فأسكتني، قيدني، و . . وفعل"

"أحضني يا طارق، بقوة، أرجوك"

ومن رثاء ذاته الى إحتواء حبيبته... ضمها لتحتمي به

وينصهر معها ..

ضمها ليسكن وجع جسده، وشغف انتقامه...

ضمها لتشاركه وجعه، وتعب روحه...

صدقت عندما أخبرته بأنها ستفعل..

"سنكون بخير"

لم يجيبها يمسح شعره.. يلملم دموعه....

فقالت

"أليس كذلك"

إبتعد يوليها ظهره

"لا ليس كذلك"

تقترب تستعطفه

"أرجوك يا طارق، كفاك انتقاما، أرجوك، ستجر معك لحظات لن تستطع استعادتها، ستخسر نفسك ولن تملك أرضا جديدة لتبنيها، لا تعلم من ستخسر إن اصررت على انتقامك"

تزلزل عالمه

"جسدك لم يكن بإستطاعته الدفاع عنك لقد كنت مقيد"

"صرخت، صرخت لأفك قيدي ولم ينجدني أحد"

تلف حوله، كلما هرب من عينيها واجهته...

"أصرخ ثانية يا حبيبي، أفرغ ما بصدرك"

قال بوهن

"لطالما كنت أصرخ"

تلامسه بحماسة بائسة

"تصرخ إنتقاما.. لا شفاء يا طارق، تصرخ متألما وليس

مستشفيا، أصرخ لتفرغ غضبك لا لتستزيد منه..هيا . ..

الآن وبعد ساعة، وفور كل غضبة وخذلان، اصرخ يا حبيبي

أصرخ"

وصرخ...

بقوة...

بغضب...

بأنتقام..

ورثاء...

ومن ثم سقط متهالكا بين يديها، تشهق، تملس على شعره،

تمسد ذقنه...

واهنا ضعيفا تسنده كي لا يتسطح أرضا، لكنه فعل...

لم تستطع يديها الواهنتين سنده، متهالكا كمن نفذت

بطاريته، يستلقي أرضا...

يغمض عينه والدمع يسيل منها...

يضغط على أسنانه بوهن ..

مشوش الذهن..مغيب .. في زمن آخر.. وعالم آخر..

صخب صراخه أصمها..تفاحته وقد ارتعدت، عروقه وقد

انتفخت . . شدة وجنتيه، عظام فكه التي أوشكت أن

تتكسر..انفاسه المتقطعة في آخر صرخة التي سقط على

إثرها.

إبتل وجهها.. تمسح دموعها ومثيلتها له...

صمت مهيب نثر حباته فوقهم ..

ترتعد بردا..ويعرق حرا...

وبين تباينهم، انفرج الصباح بهواء قوي صافح نافذتهم لتفتح

عن آخرها....

ويلامس وجنتها رذاذ المطر، يختلط بأحزانهم، يمتزج

بأرواحهم، يطهر الجروح، ويطيب النفوس، ويزيل الوسخ.

***

الفصل الرابع عشر

***

قلبي قد فارق الحياة، وتوقف نبضه، إمنحيني تلك القبلة

لأستعيده من جديد.

***

تلمس رقبته تتابع نبضه، قلقة مما حدث إثر إعترافه وسقوطه،

نائم بعمق، هدوء أنفاسه مهد طريق قلقها عليه لتخاف سوءا

قد يمسه.

تداعب شعره الذي سقط على جبينه بعشوائية مرهقة لقلبها،

تديره الى اليمين..تتأمله..لا يعجبها فتلفه بأصابعها لليسار،

لا..ليس أفضل..تتخلله بيدها تملسه الى الخلف فيبرز جبينه

بمساحة أكثر من كافية لشفتيها فتقبله بحنان أم قلقة من

مرض قد يصيب صغيرها، فتتمسك بكل السبل المؤدية

لشفاءه..

تضع يديها مكان ندوب جسده..كتفه، وصدره، كل

الأماكن التي لمحتها من قبل تلمسها، ترقيه، تدعو بعدم إيذاءه

لنفسه مجددا.

يمسك كفها التي تستبيحه وهو نائم...

بصوت خشن..ثقيل

"أين كنتِ وأنا أعاني!"

بصوتٍ عاشق ذائب

"كنت أعاني مثلك"

يشد على يديها بضغطة هادئة..مستلقٍ بين يديها، يرفع

بصره الى عينيها

"قصي لي حكايتكِ"

"لم نهدأ بعد من حكايتك، مابالك تستمتع بالاحزان في يومي

العسل"

تحاول الأفلات بكفها منه..

يسبل جفنيه بتعب..

يعلم بأن ما ستقصه سيزيد من إرهاقه، لكنه يريد أن يسمع

ويعلم معاناتها..التي كان سببا فيها..

"خطأ طبي، من طبيبة، كنت أنا كبش الفداء..فلا يليق

بطبيبة أن تسجن..لكن يمكن لممرضة معدمة أن تنفى فلن

تجد أحد يسأل أو يدافع عنها"

يجذبها إليه، يريد أن يحتوي انفعالها بجسده، كل إرتعادة منها

يقابلها بصلابته لتشتد معه..لايهم أنه كان سببا في

مصيبتها..الأهم الآن أن تعلم أن كل شيء إنتهى، ولا يجرؤ

أحد على الاقتراب منها وهي زوجته..

"حقنت أحدهم بدواء وصفته الطبيبة، لم يتناسب مع حالته

فسقط صريعا، لأتحمل أنا تبعات ما حدث..فمن سيصدقني"

تتحدث بصلابة هشة

"لقد مكثت في السجن طويلا، أو هكذا ظننت، فاليوم به

كألف عام، هل تعلم شعور العصفور وهو في القفص، أو

الحيوان المربوط بتقييد عنقه، أو شعور من ينتظر الإعدام، لم

يكن لدي بارقة أمل، ولا ثقب ضوء صغير حتى، ظننتني

هالكة لا محالة، انا بفقري وقلة حيلتي أمام طبيبه ذات

سلطان.."

ترفع وجهها اليه بهذا القرب تسأله

"مَن مِن وجهة نظرك سيربح"

تمتزج أنفاسه، بجنون نظراته، ليهمس

"أنتِ"

يبتسم وجهها وهو يختزل باقي حكايتها بالنتيجة مباشرةً..

"نعم، فزت..بعد أن وكلت الصحفية لي محامٍ يدافع عني، بعد

أن عانتيت أنا وجدي، لم نكن نملك سوى البكاء"

يقاطعها مجددا، يغمز بعينيه

"والدعاء"

تسخر في نفسها..من قال بأن طارق يحتاج الى علاج، هو

يمنح الأمل..يدعم حزنها ويقويها..من كان يتخيل ذلك!

"انظروا من يتكلم!"

"كيف أليّن قساوة قلبي يا خلود؟"

ينقلها من مكان لمكان بسهولة، يتركها تصارع أحاسيس

الحزن والغضب وقد ظنت بأنها وئدت، ليسألها بحثا عن

إيجابيتها في الحديث والتفكير..

"سأخبرك، لكن ليس الآن"

تعتدل من نومتها

"علينا العودة الى الفيلا..انتهى العسل"

يتمسك بها، يحاوط جسدها..بأنفاس ساخنة يقترب من

وجنتيها..مغيبا..يقطّعِ كلماته

"قطرة...أخيرة"

***

"منذ عامين على ما أتذكر"

يجلس على حافة السيارة، بينما عبد الرحمن ينظف داخلها

من الأتربة.

"وكيف تقدمت الى الوظيفة، وكيف وافق عليك طارق"

يترك ما بيده، يتصبب عرقا..يعد السيارة للسفر الى طارق

والعودة به الى الفيلا

"السيد طارق ليس حادا كما نراه، لقد تحرى عني كعادته،

أنا أملك شهادة جامعية"

لم يتعجب الجد من كلمات عبد الرحمن، فهو حال الجميع،

شهادات ومؤهلات عليا وفي النهاية سائق..وربما بائع كبدة..

"علم بأني وحيد والدتي، مسؤول عنها..سأل عني والجميع

اشاد بي..تعلم جيدا بأنه لن يدخل بيته شخص لا يثق به"

يمسد كتفيه، يؤلمانه..يبدو أنه كبر..ووهن..

"أخبرك سرا.."

نال إهتمامه..يستمع اليه يكمل

"لقد ساعدني..السيد طارق..تكفل بعلاج أمي كاملا،

كانت تحتاج الى عملية ولم أخبره ولا اعلم كيف وصلته تلك

المعلومة فمنذ عملت لديه وأصبحت عينه.."

ربت على كتفه الفتي

"أنت فخر عائلتك يا عبد الرحمن..أنت رجل حقا"

"أنا لن أخبر سيدي بما فعلته عاليا"

"خيرا ستفعل..ولا أنا..لا تنس بأننا لا نملك دليل على

شيء، سننغص عليه زواجه وفقط..سأتكفل أنها بها"

يقوم بتلميع السيارة من الخارج، ليبتعد الجد حتى ينهي عبد

الرحمن عمله..

جانب آخر من طارق يتضح له دون أن يسعى إليه...

يضحك وهو يتذكر صلاته في المسجد القريب من الفيلا

لقد شاهده وهو يتسلل ليغادر أولا قبل رؤيته إياه..

يسحب نفس بارد من هذا الطقس الممتع..

يبتعد بخطوات بطيئة عن السيارة، يتحدث عالياً

"ألا يجدر بعاليا الذهاب الى المدرسة!"

يغلق أبواب السيارة..يجذب أكمام قميصه ليغلقها وقد

أكمل تنظيفها

"لقد ذهبت العام الماضي أيام تعد على الأصابع..لا تهتم

لها..أعان الله سيدي عليها"

يخبط على كتفه مغادرا

"هل تحتاج لشيء، لقد حان وقتي "

يشير إليه مودعا..يتحرك بالسيارة، والجد ثابت في مكانه..

يملأ صدره بهواء الصباح..حفيف الحشائش..أشعة الشمس

الخجولة..ويتذكر..

"لقد تحدثت الى خالي ولن يستطيع القدوم"

"إذا فلنؤخر الوقت حتى يناسبه،أنا لست متعجلا يا طارق"

"أنا متعجل، لن أنتظر أحد..لقد عشت بمفردي لأعوام ولا

أنتظر عائلة الآن"

يستشعر مخاوف جديدة..ما الذي يدريه لعل تلك الكلمات

قد يقولها على خلود عندما يمل منها او يتشاجر معها كأي

زوجين، هو لا يهتم لخاله..اسرته الوحيدة..وعمته بالخارج لا

يعرف طريقا لها

"هو لن يأتي على كل حال.."

لم يخفض بصره بل واجهه بعزة

"هو لا يوافق على زواجك من خلود؟"

أومأ برأسه إيجابا، ليفاجىء بكلمات الجد الحاسمة

"حقه"

ليته ما قال له الحقيقة، لقد عاش عمره كاذبا..لِمَ الصدق

الآن، يمسح على رأسه..

"أنا لا أهتم لأحد، سأتزوج من خلود مهما كلفني ذلك،

أرغب في إتمام الأمر سريعا..أنت تمنعها عني"

شعور مختلط ما بين الضحك والقلق يساوره..

مراوغة ليست عادلة منه إن رفض طلبه..

لقد كان ملتزما بكافة القيود التي فرضها عليه..

منفذا كافة شروطه..حتى بات على يقين بأن ما يثير قلقه

شكوك..مجرد شكوك

"حسنا..حدد الموعد"

"بعد أسبوع من الآن..أنا لا أحب الضجيج..لقد تحملت يوم

ميلاد عاليا رغما عني"

يكمل في صدره

"رغم أنه كان ممتع معها..معها فقط"

ليردف الى الجد وقد نوى نيل قطعة الحلوى خاصته سريعا،

ليستمتع بها وحده..

"سنسافر .."

مد كفه اليه يجيب أحلامه

"لك هذا.."

خلود لا تملك من الدنيا سواه..لماذا يقيم حفل لن يكون له مدعوا واحدا....

يسير الى الملحق والذكريات تملأه..كل يوم تزيد راحته نحو طارق..ويدعو كثيرا لدوام هذا الشعور..فلن يستسيغ قلقه منه الآن وقد باتت ملكه.

***

نظرت الى ساعة يدها، تحث الخطى نحو غرفتهما، لقد تأخرت عليه...

الغرفة مظلمة، لا صوت له، الأجواء هادئة...

مرت على جدها فور وصولها ليغمرها بأهتمامه..يسألها عن

حالها وقد كست الراحة وجهه حالما شعر بسعادتها..

ثم صعدت إليه..

شعرت به يجذبها نحوه، يزرِع ذراعيه خلف ظهرها

"تأخرتِ"

لا ترى وجهه في هذا الظلام، فقط انفاسه، وصوته.

لازال يحاوطها، يسير بها خطوات مدروسة، يشعل شمعة،

وخطوة أخرى، وشمعة أخرى...

الى أن عبَّد لها طريقا من الشموعِ الفواحة، أضاءت المكان

بشدة، وتغلغلت رائحتها عبر مساماتها..قربها من باب، ما إن

ارخاه حتى فتح...

أزياء...

فساتين...

أحذية...

إنها جميع الملابس التي وقع عليها بصرها ذات يوم..بعد عقد

قرانهم قبل الزفاف بيومين..وهي بصحبته لشراء ماسات تشبه

بريقها كهدية زواج..

"هل اشتريت المحل كله"

وبطريقة اذابت قلبها، أشار الى الأحذية قائلا

"والمحل الذي يليه"

ثم أشار الى مشابك شعر للسهرات

"والذي يليه"

يسير بها متشبثا...ينزع عنها حجابها، يلقيه أرضا

"والآن، فرجيني"

فك شعرها

"وأمتعيني"

حاول نزع ثوبها فاستوقفته بخجل..ليردف مستمتعا بما يجول

على وجهها من إثارة

"وأسعديني يا خلود"

كيف تخبره بإمتنانها له.

هل رص الشموع.. ورتب كل شيء بهذه السرعة لأجلها!

هي تعتني بوالده وجدها .. وهو يهتم .. بها ..

عانقته بدفء

"أنا أحبك، أحبك، كل هذا لأجلي أنا!"

"أريد أن أعوضكِ عن سنوات الفقر يا خلود"

غضبت، ضربت صدره، يضحك، يتمسك بها

هدأت ولازالت عابسة بين أحضانه

"لستِ فقيرة، كنتِ غنية ببحثك عن لقمة العيش، ومداواة

جدكِ، كنتِ غنية يوم جابهتِ الظلم ولم تقفي مكتفة اليدين،

غنية بتخطيكِ حزنكِ الذي لم يزدكِ إلا إيمانا "

"أنقذت نفسك من موت محقق، كنت لابعثر هذا الشمع ولم

أكن لاهتم بما ستخلفه من حريق"

ضحك من قلبه

"وهل كلما اختلفنا في الرأي ستتسببين في كارثة"

"أنت الكارثة التي حدثت لي، ما كل هذا"

عادت للمفاجأة، تستدير حول الثياب، تلمس القطع

بانتشاء، تمسك الأحذية تخاف ان تخدشهم...

قالت من بين ولهها

"هذا تبذير، اسمح لي"

" لاجلكِ"

"انا لن ارتدي كل هذه الملابس ما حييت يا طارق، هذا

المال كان يجب ان ينفق في مكانه"

"سترتديها لأجلي، والآن، ستبدلي ثوب وراء الآخر لاستمتع،

لأرى ابتسامتكِ، وعن مكان المال، حددي اي وجهة

تريدينها وسأنفق فيها"

ثم تقرب، فيتمهل

"ألا تعلمين، بأني بإسعادكِ أنال الأجر"

أمسك فستانا، يختلف عن الباقي في لونه..

لون غريب يجمع البرتقالي والاحمر، ليكون النتاج متوهجا

انيقا...

"ارتدي هذا"

جذبها الى الاحذية

"وهذا"

لمست السلسال المتعلق بعنقه وقالت

"وهذا"

تعجب

"هذا لا يليق بثوبكِ"

"ولا يليق برجولتك"

"انه هدية أمي، أريدها ملتصقة بي"

"وأنا لن انزعها عني، وانا دوما ملتصقة بك"

"خلود ... أ.. أ... "

نزعتها عنه، ترتديها أمام عينيه

"أنت ماذا"

تستحسن مظهرها، رغم عدم استحسانه هو..

عينيه الرمادية التي لطالما اسرتها، تلمع في ضوء الشموع،

دموع تترقرق بهما فتجعلهما كال"لوجين"..فضة سائلة براقة.

تعلقت به، يعانقها، يتنازل عن جزء منه مضى، لجزء منه

آت، أمه وزوجته، ماضٍ إشتاقه، وحاضر ينتظر منه الكثير...

ظلت تبدل ثيابها طوال الليل، بين كلماته عن جمالها، ونظراته

التي التهمتها، ومع آخر ثوب، كان آخر عناق، وحديث

طويل عن الإحتياج، أعطاها السعادة واعطته التفهم

والاحتواء.

***

يراقب بهو الفيلا، يضع ساقا فوق الأخرى..يستمع الى رنين

الهاتف فيجيب، يستمع الى ثرثرتها..وتساؤلاتها، وحديثها عن

إنها محاصرة ولا تستطيع مغادرة الفيلا..

"لتكون المدرسة إذا"

يجذبه حديث عبد الرحمن والجد..يخفض الصوت حتى لا

تسمعه عاليا

"كيف عرفت بأني مراقبة؟"

إهتمامين..سؤالين..إحداهما منها والآخر منه..

ماذا يقول عبد الرحمن للجد ليبدو مهتما هكذا، لتداهمه

عاليا بسؤالها فيجيب

"لقد كنت خلفكِ ورأيتهم.."

هو لن يخبرها بأنه يسطو على كاميرات فيلتها قطعا...

ولن يخبرها بتلصص الجد عليها وهو يراه خلف الباب في

انتظار نزولها..فهو يراه من داخل غرفة الرشيد..ومن

البهو..يراه بوضوح تام...

"إغلقي الآن يا عاليا سأحدثكِ بعد قليل"

يستمع الى حديثهم بإهتمام..يضحك بشدة..فكل محاذيرهم

هو انتهكها منذ زمن..لقد ظهر أخيرا من يهتم بعاليا..

يحرك رأسه ساخرا

"بعد فوات الأوان"

هو لا يحتاج لمقابلتها مجددا فقد فرغ منها..يريدها بالداخل

حيث الغرف المغلقة التي لايعلم ما يدور بها..يريد

اخبار..احداث..ويكفيه الهاتف ليبث سمومه برأسها.

يتحرك بكرسيه، في محاولة لإثراء افكاره..

لقد انشغل طارق عن الجميع بعروسه..وترك له الساحة

المتسعة له..يرمح فيها كيفما شاء.

"أبي، أنا ذاهبة الى المدرسة"

يغلق حاسوبه يقترب منها..يقبل جبينها

"لا تتأخري كالأمس..سأعد لكِ الغداء هذه المرة"

"لقد وعدتني بالأمس"

يضمها اليه، كيف يخبرها بأنه انشغل في التحقيقات الخاصة

بمصيبته، لكن لا بأس..سيخرج منها..

"اليوم أعدكِ، لا تتأخري"

تغادره غير واثقة من وعده، فلطالما وعد وأخلف.

***

"ليس هكذا يا طارق، تذكر ما كان يفعله جدي"

"لا أستطيع فعل ذلك، لا أستطيع"

لقد طاوعها في الدخول الى غرفة والده، طاوعها في الإقتراب

رغم أن الاقتراب يدمره...

" سألتني عن قساوة قلبك، كيف تلين..هكذا"

عقد حاجبيه في محاولة لفهم ما ترمي اليه.. فأردفت ترتب

ملابس والده

"هذا، ما سيزيل قساوة قلبك يا طارق"

"ألم أخبركِ بأنني بت رقيق القلب"

"منذ متى؟"

حاول الهرب مما تدفعه لفعله، فاقترب ليكون ظهره في

مواجهة والده، يتصبر بعينيها على ما يعانيه

"منذ عرفتكِ، أصبحت رقيق ومتفهم، ومحب، لن أسألكِ

مجددا عن شيء، فإجاباتكِ جميعها تربكني"

لفته معها ليصبح والده بظهرها، بينما يراه طارق، لم يتمالك

نفسه هذه المرة

"لماذا تفعلين هذا بي؟"

"للاستشفاء"

إرتفع صوته

"أنا لا أعاني شيئا"

تعاجله بكلماتها

"بل تعاني، عليك الإعتراف بمشكلتك"

قال بغضب، عيونه الزائغة تؤكد على أنه لازال تائها، يتأرجح

بين الخير والشر

"كفى..كُفي عن كونكِ معالجتي النفسية، كفى"

حاول المغادرة، وقفت في طريقه، أزاحها بعنف، ركضت نحو

الباب تغلقه، تخفي المفتاح، يلتفت إليها متألما

"أخبريني كيف سأفعل، كيف سأنزع ثوبه لأحمه وأعطره

وقد كان سببا لكل سوء عانيته"

وبصوت أكثر ألما اردف

"كيف سأهتم به ولم يهتم بي ولو يوما واحدا، لقد تسلى على

حسابي، لم يحمل هما لفعلته وسافر هنا وهناك يمرح ويكمل

سكره، هو لم يعتذر لي يوما "

"وهل لو إعتذر ستقبل؟"

تبدلت نبرته للحقد

"ابدا لن أقبل"

إقتربت تضع يدا على ظهره والاخرى على صدره

"ستظل تدور في تلك العاصفة طوال عمرك، لن تهدأ، ستظل

تعاني وتعاني"

"قولي لي شيئا واحدا ايجابيا عنه يحفزني"

"ليس عنه، بل عنك أنت، طارق المحب، لي، ولأخته، طارق

الذي يكفل الأيتام"

"أحميهم بقدر استطاعتي كي لا يحدث مع أحدهم ما حدث

معي"

تأففت محتارة، زفر منهكا

"لا تتعبي نفسكِ معي يا خلود، سأحاول السيطرة على

غضبي، لقد توصلت الى قناعة ان جسدي يستحق السعادة

وليس الألم، لقد أقلعت عن ايذائي لنفسي منذ زواجنا. هذا

ما قد أضمنه لكِ، وأنتِ سببه، لكن أكثر من ذلك لا

أعدكِ"

أخرج مفتاحا من جيبه، يفتح الباب، وقف على أعتابه، قال

"أنا أملك مفتاحا لكل شيء"

يمشي بسرعة، الى أن ارتطم بها فسقطت، حاول مساعدتها،

أمسكت به لتقف، قال بتشوش

"أنا آسف يا عاليا"

"هل كنت عند أبي، يبدو أن خلود غيرتك كثيرا"

حاول التماسك، ولملمة شتاته سريعا، قوس شفتيه لاسفل

يتنفس بعمق

"أجل، خلود غيرتني، بالمناسبة انا سأسافر لأسبوع الى لندن،

هل ترغبين في المجيء معي؟"

كيف ستغادر معه ولديها الفرصة لاسبوع كامل الاستمتاع

مع كمال، قالت مسرعة

"لا، لا يصح أن أكون عزولا بينكما"

مسح على شعرها

"حسنا يا لمضة"

وقبل أن يتخطى درجات السلم متوجها الى جناحه قالت

"اريد المال"

"هل أفرغتِ بطاقتكِ"

"أجل"

"سأترك مالا يكفيكِ لحين عودتي"

ثم خطف الدرجة بدرجتين، ينهل الأرض ركضا، وكأنه فارا من الحرب.

تشاهدها تغلق باب الغرفة، عينيها تبتسم لها

"مرحبا عاليا كيف حالكِ؟"

وبطريقة مغايرة لعاليا القديمة، أجابتها بصمت مع هزة رأس،

تهم بالمغادرة كأخيها.

لمحت عيني خلود كدمة خفية أسفل عنق عاليا تبدو وكأن زينة

وجهها أوشكت على المسح، أو لم توضع جيدا..

تكتم شهقتها، وسؤال واحد يتخبط بين جنبات رأسها

"هل عاليا تؤذي نفسها هي الأخرى!"

***

تنزوي في ركن أقصى الغرفة تحمل هاتفها..

لم تنهره على هروبه وجبنه، ولم تقترب تبثه الطمأنينة كعادتها،

وكأنها تنحت خطوة، لتمنحه خيار الإقتراب..

إختزل الخطوات تجاهها

"هل تأتين معي غدا؟، أريد الذهاب الى مكان بصحبتكِ"

لم تعطيه إهتمامها وهي تسأله

"الى أين؟"

"مكان سيروق لكِ، لقد علمت مؤخرا رغبتكِ في تعذيب

البشر فأظن بأنه سيروقكِ"

رفعت حاجبيها، تذبح عيناه بصمت، أقترب يلصق كتفه

بكتفها، هكذا الآن، نال القوة والطمأنينة، الآن يثق بأنها

معه، ولن يفلتها...

أسند رأسه اليها

"أنا خائف"

إرتعشت مقلتيها في الفراغ أمامها..قلقا عليه..يستطرد

"خائف منكِ، وعليكِ، من اليوم، والغد، على عاليا"

تسارعت أنفاسها ترقبا...

اختض قلبه تحفزا...

أمسكت كفه

"أتعلم شيئا، لقد لطشتني الحياة، قلم هنا علمني التماسك،

وصفعة هناك علمتني الخوف، وأخري فهمت منها الطمع"

"هل طمع بكِ أحد"

غيرته وحميته التي استنفرتها بكلماتها إشتعلت، يرفع رأسه

عنها وقد إزدادت خفقاته، متحفزا لما ستقول

"الكثير، تعلمت كيف أوقفهم كلا عند حده، عرتني

الشوارع، قذفني البرد، لفظتني الأماكن، شعور العراء يجلدني،

ليس هناك من يرقع ثوب روحك، ويدفيء قلبك ويخبرك بأن

كل شيء على ما يرام، جدي كان يخبرني بذلك، رغم عدم

امتلاكه لهذا الخير، ولا يعلم من أين سيأتي، لا يملك سوى

اليقين بالله، مكتفيا به"

استرعاها صمته، ففاضت عليه بكلماتها

"ان تعلم بأن إرادة الله نافذة، وأخذك بالاسباب واجبة،

واقتناعك بالنتائج ليس خيارا، بل هو رضا"

"تريديني أرضى بما فعل بي؟"

"بل ترضى بما قسمه الله لك، دوما هناك الاسوأ يا طارق،

ماذا لو حدث لك ما حدث وكنت ايضا فقيرا، او صاحب

عاهة، أو فضح أمرك، او لا بيت لك ولا مأوى، وليس لك

أخت كعاليا ووالدة كوالدتك، الله يرزقنا الابتلاء، وبين

حناياه اللطف"

تنظر الى جانب وجهه، تعلم بأن حديثها أرهقه، لكن لا مفر

"الأمر ليس فيما حدث وانتهى، المشكلة في عدم تجاوزك له

منذ سنوات، الكارثة تكمن في تدهورك وليس شفاءك"

وضع رأسه على صدرها، كلماتها تنزل على نيرانه فيخفت

لهيبها، على ثورته فتهدئها.

"خلود، لا تغضبي مني"

تتحسس شعره

"أنا غاضبة عليك، وهناك فارق"

"أتركي فلسفتكِ قليلا، هل تتابعين حالتي مع طبيبة نفسية"

"أجل، من أين عرفت؟"

"أسلوبها يشبه طبيبتي القديمة"

أزاحت رأسه عن صدرها تصيح به

"نعم، ولماذا لم تعالج عند طبيب"

يطالعها ببراءة..تردف

"أخبرني بأنها حقنتك بمهديء لتسترخي، ونمت أمامها بحجة

البوحِ، وقد شاهدت اغلاق عينيك، وصوتك المنهك

وذكرياتك الأليمة، تبا لك"

تقف تترك زاويتها لتتوجه نحو السرير الوثير بغضب

"إنتظري يا مجنونة، أساليب الطب أصبحت حديثة الآن،

لم يعد هذا ما يحدث"

قفز جوارها..

"تغارين!"

قالت بحدة

"أقسم ان رأيتك يوما بصحبة إمرأة أو تتحدث عن إمرأة،

لجلست فوق رأسك حتى تزهق أنفاسك"

"ستكون احلى جلسة، فلنجربها الآن"

دفعته في صدره

"تبا لك يا طارق، فلتغلق النور أريد أن أنام"

"لن تنامي، لازلنا في أول الليل"

"تحدث الى طبيبتك تسليك"

قال بنعومة

"أنتِ طبيبتي"

"كاذب ومراوغ، لن أسامحك على إستفزازي"

"حسنا، عناق واحد لتحسين الأجواء"

"لا"

"لتكن قبلة إذا!"

هزت رأسها نفيا، فهجم عليها يقتنص ما اراد قبلة، وعناق،و

....

***

بوجهٍ غائم، وملامح تتوالى عليها الذكريات يقف أمام قبر

أمه، وحنانها وعطفها يغمر روحه وهو في حضرتها.

لم تظن للحظة بأن المكان الذي يود زيارته بصحبتها هو قبر

والدته.

صراعات تشاهدها على وجهه وجسده، تلمحها في إرتعاشة

يده، ولمعان الدموع خلف نظارته الشمسية.

تتعاقب الافكار على رأسه لتتركه صريعا لحزنه و الم فقده.

"لقد إغتصبها"

لم تعد تتفاجيء من كوارث تلك العائلة التي طمرت البؤس

بين أرجائها، مفتقرة للراحة والسعادة.

"لقد عاد إليها بعد مكوثي عند خالي لفترة، لأعود وأعلم

بحملها، فبات شفائي أصعب من ذي قبل، بعد ان أيقنت

بأن داعمتي الأولى حنت لزوجها وباعت قضيتي"

لم يلتفت، أو يتحرك، لم تختلج خلية فيه ليردف

"دمرتها، عنفتها، أخرجت فيها غضبي ونقمي على الحياة،

عذبتها ببعدي، وذبحتها بإنتكاستي، كانت تتوسلني وهي لا

تستطيع البوح لي بما حدث، اغتصبها وهو مغيب واضعا

بذرة أختي داخلها لتوصم أمي بالموالسة معه، وأختي بخطيئة لم

ترغبها أمي فيكفيها معقد واحد"

مسح شعره بيديه ليكمل

"هل تعلمين مدى غضبي وهي تخبرني وقد فاض بها الكيل،

ليس من أذيتي لها، بل لعودتي لأوذي نفسي من جديد

وبشدة، وأبحث عنه في كل مكان لأنتقم منه، أخبرتني

لأتوقف، كي لا أخسر نفسي، تحملت كل شيء، لأجلي

وأختي، حاربت سوء خلقتي وتمردي وجنوني، لا أستطيع

مسامحته يا خلود، لقد دمر حياتي"

جلس أرضا، يبكي ندما وألما

"أشتاقها"

تبكي جواره وشعورا مضاعفا بالفقد يكتنفها بوفاة والديها ..

تتحدث اليه بصوت يكاد يسمع

"لماذا جئت الى هنا"

"أخبرني جدكِ بأن زيارة القبور ترقق القلوب"

أجل، لقد فعلها جدها دون قصد، بالطريقة الأذكى، هكذا

تكون البداية.

لقد وضعته أمام والده، وهو في قمة غضبه..

يبدو أن المشوار لازال في بدايته..لكن لا بأس ستمشي معه حتى النهاية.

أوقفته تزيل عن بنطاله غبار الأرض، تزيل نظارته، تمسح عن عينيه دموعه..تهبه الحنان، وتغدقه بالحب.

أخرجت من حقيبتها وردة.. بيضاء.. تفتحت أوراقها وانبسطت، الطبقة السفلية عدة ورقات ممدودة تحمل فوقها طبقات شامخة برقة، تأخد طريقها في العلو في إتجاهات مختلفة..

الاوراق شديدة البياض، شديدة الرقة، والنعومة..

أمسكت بإصبعه، ليملس على تلك الأوراق..

يتتبع أثرها بشموخ...

يضم جميع أوراقها ليغلقها، مستمتعا بنعومتها..

ينتقل بنظره بين الوردة، ووجهها...

تمنحه ما يريد وقتما يريد دون ان يدري بأنه يريد.

منحته النعومة، وقت الخشونة التي تمكنت من قلبه...

تمنحه الشموخ وقد إنكسر بإعترافاته أمامها...

منحته الشغف...

الذي يحيى به المرء

الشغف للحياة وبالحياة..

بالتمسك والثقة

بالحب الذي لم يخفق له قلبه يوما..

***

الفصل الخامس عشر

***

شغلني انتقامي عن النساء، فأصبحتِ أنتِ كل النساء

***

قفازات، قبعات من الصوف لتدفيء رؤوسهم، أوشحة ثقيلة، ملابس شتوية، هو كل ما حوته حقائبهم، أسبوع كامل في لندن، صقيع يكتنف الطقس حتى اوشكت انوفهم على

التجمد.

تذكرت البرودة في بيتها القديم حيث كانت ترتدي خمس

قطع صيفية فوق بعضهم البعض لتشعر بشيئا من الدفء،

والآن ترتدي ملابس غالية، القطعة الواحدة منها تشعرها

بالحرارة.

لم يتركها للحظة، يضع يده حول كتفها، يستمد منها الثقة،

ويؤازرها في هذا المكان المتسع.

يتذكر دهشتها عندما شاهدت مطبخه الصغير لأول مرة،

المختبيء خلف جدار خشبي بالقرب من غرفته، فكان غرفة

خلف الغرفة، كمن يزين الفضة بالذهب والماس، فتزداد

القيمة وترتفع.

الرحلة الطويلة بالطائرة جعلتها تنام طوال الطريق، وجعلته

يتأملها كثيرا، منحته الوقت الطويل لمراقبة جفنيها المغلقين، شفتيها المنفرجتين، إبتسامتها العجيبة، كيف يبتسم المرء في نومه!

وصلا إلى غرفتهم بالفندق، وكانت تعلم مسبقا بفخامتها، وما إن أغلق عليهم الباب، حتى نزع تلك القبعات التي تستفزه، ونزع عنها هذا البالطو المخيف الذي ترتديه

"ماذا تفعل؟"

"نتحرر من هذه الملابس التي جعلت منا كالدببة تنقصها الذيول"

خلعت حجابها، وكالمنومة ذهبت إلى السرير، وفي لحظات، كانت تنام كمن سهر اسبوعا ولم يذق للنوم طعما.

"لا بأس في المزيد من المراقبة، لقد إشتقتكِ"

بدل ثوبها، وثيابه، دثرها وتدثر بها، هدأ من إنارة الغرفة،

وعلى جانب جسده إستلقى، وراقب.

دافئة، للوهلة الأولى، ومن النظرة الأولى دافئة، تشعر بأنك

تعرفها منذ زمن، لا تترك شيئا للظروف أو للزمن، ربما فقرها

المدقع ما سبب لها تلك الصفات.

لامس يديها التي تضعها تحت رأسها، يمتلكها..

ما أحلاه من شعور، بأن تمتلك أحدهم ويمتلكك، برضا،

وسخاء.

فرد كفه فوق شعرها، يربت، ويستلذ ...

لونها الذي يخطفه، اللون الذهبي الذي يدفع فيه النجوم المال

ليحظين به.. بشرة طبيعية، لون متوهج، يجعل قلبه مشعا

ببريقها.

كوب من الشوكولاتة الذائبة، معطف بيتي، يتأمل جناحه

الفخم، حتى تستيقظ..

لم ينم حتى الآن، إطمئن على عاليا وأخبرها بوصوله

"هل تتحدث إلى احد؟"

تحك رأسها بخمول

"عاليا"

فرد ذراعه ليصبح وسادتها

"هل نمتِ جيدا؟"

همهمت ناعسة بنعم

"وأنا لم أنم بعد"

رفعت وجهها اليه

"كيف، لقد مر وقت طويل على إستيقاظك"

بمشاغبة، يقوس فمه لأسفل وقال

"كم تحديدا سيدة خلود؟"

لا تعرف فارق التوقيت، ولا ترتدي ساعة

"أنا لا أعرف نحن في أي يوم يا طارق"

ضحك وهو يتحدث إلى الفندق يطلب الإفطار

"يوم السبت، الساعة الواحدة ظهرا بتوقيت لندن"

تضحك مستمتعة..

يجذب حاسوبه المحمول، يضغط على أزراره...

تظهر نافذة صور...يوم زفافهم..لم تكن ترى نظراته وقتها

وقد سجلتها الكاميرا بدقة ونقاء لا مثيل لهم...

يحتضنها يقبل أسفل فكها، رغم حجابها إلا أنه يعلم المكان

جيدا..

ينتقل لصورة اخرى، يضع يدا على كتفها، وينظر إلى

شفتيها، بينما هي تشير إلى جدها...

تعددت الصور، تراقبها وهي بين ذراعيه..

الا أن السمة المتشابهه في جميعها .. هي نظراته...طارق

يحبها...هي تعلم، ليست بحاجة لكلماته...

لطالما علمت أن الحب أفعال، وطارق قدم الكثير

ليتزوجها...

يستدير برأسه نحوها...

يطبع قبلة ناعمة على شفتيها المبتسمة...

راحة غامرة تتشبع بها...يهمس

"هل نخرج الآن؟"

بصوت ناعس

"أنا جائعة"

وفي لحظات من وصول الإفطار وتناوله يكرر سؤاله

"هل نخرج الآن؟"

تحك رأسها

"انت انطوائي على ما أتذكر..."

تعد على أصابعها

"لم نعد حفل زفاف، لم ترد الخروج أثناء سفرنا..ل.."

يضع أصبعه على شفتيها لتصمت

"لم أقطع تلك الأميال إلى لندن كي أحبسكِ في

الفندق..سنخرج يا خلود"

يقوم ليبدل ملابسه، تستوقفه تتعلق بظهره

"أنا خائفة، أنا لا أتحدث الانجليزية، وأشعر بالدوار...طارق..

أنا... أريد العودة إلى جدي"

يمسح على شعرها

"أنتِ تعانين رهاب الغربة"

عقدت حاجبيها

"وما ذاك؟"

تهز رأسها بسخرية

"طارق..هل..هذه فُتية"

يضحك ملء فمه

"ذكرتيني بحديثي مع جدكِ، لقد أخبرني بأن مهركِ هو

الحج...وهل يحج الناس في نوفمبر..هذه هي الفتية بحق"

"كان يقصد عندما يحين موسم الحج..انت من تعجلت

زواجنا قبله"

"وهل كان يرضيكِ حالي، كان ينقصني أن أصيح بأعلى

صوت زوجوني خلووود"

يقلد ما يقول بصوتٍ عالٍ، حتى ضحكت من رؤيته يمزح،

صدق من قال بأن صنف البشر المتسم بالكآبة هم أكثر

الناس اسعادا للناس..

لم يطيل الحديث معها..يمسك يديها يحثها على تبديل ثيابها

للخروج بصحبته.

"كيف هي عاليا؟"

يناولها قفاز ثقيل

"بخير"

ترتدي سترتها

"لقد تغيرت معي كثيرا"

تعدل مقدمة قميصه وتردف

"ليست كما عرفناها انا وجدي، شيء فيها تبدل، لا أريد

قول ذلك لكنها...أشعرتني بالدونية عندما اصطحبتني ذات

مرة بحجة شراء اشياء خاصة لي"

ترك ما بيده يلعن غباء عاليا

"حبيبتي، إياكِ وترديد هذه الكلمات، عاليا لازالت صغيرة،

متقلبه، متمردة.. إنها طبيعة سنها"

تتعمق في النظر إليه

"هل تتبع الأساليب الحديثة في تربيتها!"

يهرب بعينيه فتلف وجهه اليها، تحتجز جسده ليقول

"قدر إستطاعتي"

تأخذ نفسا عميقا من قربه، تزفره عناقا متملكا، تمسح على ظهره وتردد

"أنا أحبك، أحبك"

يهمس بأذنيها..

"خلود...هل يمكن أن نؤجل رحلتنا قليلا"

تلصق أذنها بشفتيه هائمة

"يمكن...جدا"

***

تجلس جواره، بعد أن أوصلها عبد الرحمن إلى هذا المطعم..

ليتدبر كمال أمر لقائها خلسة بداخله..يتحدث إليها ليعرف تفاصيل أكثر عن رحلة طارق..

"طارق يعامل زوجته بعنف.. مثلنا"

بترقب إنتظرها تكمل

"لقد وجدت كدمة داكنة هنا عندها"

تابع يديها لتشير نحو مقدمة صدرها، لم يجزم بما تقول، ربما مداعبة بريئة...

"لقد علمت بأن جدها من يتولى حالة والدكِ، هل يفهم في الأمر"

"خلود دربته، لا أعلم سببا لوجودها من الأصل طالما الأمر في منتهى السهولة هكذا"

قال بخبث

"لأنه لا يجب أن يعلم أحد بما تعرفه خلود"

إنتبهت إليه تلف رأسها نحوه

"لا أفهم"

"والدكِ تعرض للتعذيب على يد أحدهم، ولا يرغب طارق في

تسرب الخبر إلى الإعلام حتى يعلم من فعل ذلك"

"ماذا، ماذا تقول يا كمال؟"

ناولها حقيبة بها دواء

"كما سمعتِ، إنتبهي لنفسكِ، هذا الدواء ضعيه بغرفة

والدكِ، لقد طلبه مني طارق"

أخذته منه لتضعه في حقيبتها، متخوفة من تلك الكلمات

التي ألقاها عليها.

مسكة يد قوية، يطمئنها بعد أن إنتشى بخوفها

"لا تقلقِ، أنا جواركِ"

يعبث بملعقته يذيب السكر في مشروبه، يتذكر كلمات

ايمن.. في مقابلة أخيرة جمعتهم

"ليس من شأنك ما حدث لطارق قديما جعله حادا هكذا"

"لماذا يعذب والده؟"

شعوره بأن أيمن يملك معلومات ويحجبها عنه يقتله...

"سله يا كمال..ليس معنى قبولي بصفقتك ومشاركتك لي أن تسأل فتجاب، عملي وشئون مرضاي وأسرارهم لا شأن لك بهم"

يربت على كتفه بسخرية

"تعجبني مهنيتك يا طبيب، وماذا عن نتائج أبحاثك، ماذا لو توفي أحد مرضاك ممن تجرب عليهم أدوية ليس مصرح بها"

"عندما تثبت صحتها سترخص"

يحك كمال ذقنه بكفه

"هل يتناسب هذا الدواء مع حالة والد طارق"

يلتف حول مكتبه ليجلس

"أجل"

وبدهاء شيطان أمتزجت كلماته به

"أعد دوائك، وضعه في عبوات دواء الرشيد، نفس الحجم والاسم والارشادات بل واصنع زجاجات مثلها إن وجب الأمر.."

تتسارع أنفاسه ترقبا ليقول

"كيف ستوصلها اليه، وماذا لو علم طارق يا كمال"

لمعت عينيه ببريق الخبث

"لا شأن لك، ما يهمك هو قراءة النتائج التي ستصلك عن طريق خلود او جدها بالأخير"

يزيح الملعقة عن فنجانه، وقد ذابت قطع السكر مع ذوبان

خطته ممزوجة بحقيبة عاليا...

كانت تثرثر ولا يسمعها...

إلى أن وقفت فانتبه إليها

"أنا سأغادر الآن، لا أريد إثارة الشكوك من حولي.. إلى

اللقاء يا كمال"

خرجت مسرعة، ركبت السيارة بينما عبد الرحمن ليس بها...

كان يراقب بعينيه إنصراف كمال من المطعم من باب

آخر...

وتدافعت طبول الحرب في رأسه..فأينما حل كمال..حل معه

الخراب.

***

إقترب موعد عودتها، لقد إشتاق إلى دار العجائز التي تشبه

روحه بمن فيها، عجائز بائسين بحاجة لمن يحتوي حزنهم.

مهما كانت مشاعره وخلود تقص عليه مآسيهم، لم تكن

كالتي عاصرها بنفسه..

أحدهم على كرسي متحرك بحاجة لمن يساعده، والآخر يعاني

آلآم العظام، وأحدهم يعاني أمراض القلب.. وغيره لا يعاني

مرضا،وإنما تنهشه الوحدة.

حقن المحلول بالدواء، كما تعلم من خلود، يقيس المؤشرات..

ثم غادر.

يجلس أمام الملحق، إقتربت منه عاليا، ترتدي قميصا بأكمام

منغلقة، تبدو كمن تشعر بالبرد

"مرحبا عاليا، هل أنتِ بخير؟"

"خائفة"

تقف أمامه، دوما ما تطمئن بجانب هذا العجوز، محتارة بين

التحدث اليه، وبين كتمانها لكلمات كمال، وبين خوفها

الذي يمنعها النوم

"هل عذب أحدهم أبي؟"

"من أخبركِ؟"

لم يكمل كلماته، وقد فطن إلى جوابه الذي يؤكد سؤالها

ويزيد من خوفها

"لماذا قد يؤذيه أحدهم!"

تلتمس ردا من عينيه، فلا يجيب...

شاردا مثلها، يود لو تخبره عما تفعل وتخفيه عنهم..

لو تعود كما التقى بها أول مرة، عاليا لم تعد كما قابلها منذ

شهور..هناك ما يغشي عينيها بغيوم راكدة تمحي بصيرتها..

"كل شيء سيكون على ما يرام"

تلك النبرة الهادئة الدافئة، تسللت إلى منابت قلبها لتضمه

برقة، هتهدأ، ويسترخي جسدها المشدود، لتبادره بقولها

"ما رأيك لو نلعب لعبة الاسئلة..أنت مرة.. وأنا التالية"

يفرد يديه فوق الطاولة فيشبك كفيه

"ماذا يدور بخلدكِ الآن؟"

"طارق.."

تنفث في كفيها تبثهما الدفء وتكمل

"هل هو سعيد حقا؟"

"هذا سؤالي أم جوابكِ؟"

تمسح وجهها بكفيها، تستوقفهما حول رقبتها

"لا أعلم، لماذا لا تنصت إليّ دون أن تتكلم"

نفذ كلماتها..فصمت وترك لها حرية الحديث

"أنا احب طارق، أغار عليه من خلود، رغم أنها لم تأخذه مني

فهو لم يكن معى منذ البداية"

تمسد رقبتها وتقول

"اعي تلك الاحمال فوق كتفيه، لكني..رغبت في جزء

من..اهتمامه"

تضع خصلة شعرها خلف أذنيها بتردد

"لا..لا يهم"

وكأنها تتحدث إلى نفسها كما طلبت منه الصمت، انتظر

سكونها وقال

"لماذا تهربين من الفيلا يا عاليا، ما الأمر الهام الذي ينتظركِ

بالخارج لتضعي لي حبات المنوم في شرابي؟"

إحمر وجهها، باغتها بحنكة، وجهها قلق، أنفاسها تكاد تصمه

من علوها، نبض رقبتها متسارع..

"مع من تحدثتِ وأخبركِ بالعودة إلى الفيلا؟"

خفضت هامتها أمام تساؤله..ورغم كشف أوراقه لها فقد

تتخذ احتياطاتها فيما بعد، إلا أنه لا مانع من إرداعها

وتنبيهها حتى وإن كان الأمل مفقود.

"توقفي عن فعل أي شيء قد يسيء لأخيكِ الذي تحبينه

وترغبين إهتمامه..صدقيني إن صُدمنا فيكِ لن تنالي أدنى

إهتمام، بل النقم"

تهرول مسرعة من أمامه..تتوجه إلى غرفتها، وقد اخترق

ثغراتها، وعلم أسرارها وينقصه معرفة من تقابل...واسمه...

***

يمضي أمامها، ظله المديد يتبعه، تمشي في صمت، ترفع ثقل

جسدها فتلامس الأرض بنعومة دون إصدار صوت من

خطواتها..

"عبد الرحمن!"

صياحها بأسمه جعله يلتفت إليها بحده، يحرص منذ مغادرة

طارق على القدوم في في عمق الليل كي لا يراه أحد..

يفعل ما أمره به سيده ويغادر..

"عاليا.."

صوته المتكسر خوفا من كشفها له..لقد مر الأمر بسلام

لعدة أيام حتى رأته الآن.

كانت تراقبه منذ يومين..رأته مرة بالمصادفة ولم تشك في

الأمر...وعند تكراره بدأت بالمراقبة..ربما تعلم سببا لقدومه

ليلا على هذا النحو .

"ما الذي تفعله هنا؟"

إتساع عينيه وصمته كان جوابا مترددا لما يحمل في جوفه...

لا يمكنه إخبارها بسبب مجيئه، وأيضا لا يمكنه تجاهل سؤالها.

طفلة مدللة، يقف أمامها كمن سيلقى من فوق السفح..قد

تكون سببا في طرده..او يكون سببا في حدوث مصيبة.

"كلفني السيد طارق بحراسة الفيلا في غيابه"

تنظر اليه من أعلى لأسفل تستخف به

"أنت!"

يستنشق أنفاسه بقوة، هذه الطفلة المتمردة، التي يعلم تاريخها

من كذب وخداع لأخيها، تقف أمامه لتحاسبه..

"أجل، أنا"

تطالع الباب الكبير المغلق، تسأله

"ماذا يوجد هنا؟"

"إنها أملاككِ والسيد طارق..لابد وأنكِ تملكين الجواب

وليس أنا"

تبسط كفها تقرع الباب ليصدر ضجيجا، هو يعلم أن لو

مات أحدهم بالداخل لن يسمعوه طالما الباب مغلق.

يتفرس في عندها المندفع

"يمكنكِ سؤال السيد طارق عند عودته، بدلا من إنهاك

يديكِ"

تلتفت اليه، تمعن النظر إليه..

بنطال مثقوب بما يشبه الموضة، قميص بأكمام يغلق ازرارها،

حذاء نظيف، مرتب المظهر..

"انصرف"

إبتسم بجانب فمه ينحني قليلا لها

"أمركِ"

تضع اذنيها فوق هذا الباب اللعين علها تستمع إلى شيء

يخبرها بمن او ما بالداخل..ولا شيء.

***

سحب مبعثرة، هنا وهناك، بلون الذهب، تضفي على جسر

البرِج بلندن منظر مهيب، يترك أثر الاشراق في النفس،

إقتربت الشمس من الرحيل، فتركت بعضا من أشعتها

تعكسها السحب.

يحاول جذبها برقة أمام المارة، يحدثها بصوت معتدل

"هيا يا خلود، الأمر بسيط للغاية"

تجذب كفه في الإتجاه المعاكس، تتقهقر خطوات للخلف،

إنخفض صوته أكثر

"ستكون فضيحة عالمية إن حملتكِ وسرت بكِ هنا"

أوشكت على البكاء

"لن أمر فوق هذا الممشى وإن أعطيتني ذهبا"

نظراتها تباشر نهر التايمز عبر الممر الزجاجي

"إفرض سقط بنا، أنا لا أستطيع السباحة، سأموت"

بهلع قالت وبضحك أجاب

"هذا الممشى أنفقت عليه الدولة ملايين لا يمكن لعقلكِ

استيعاب قيمتها، أمهر الفنيين أشرفوا على بناءه، هو مزار

سياحي في حد ذاته، يمشي فوقه الآلآف وينتظركِ أنتِ حتى

يسقط بكِ"

لم تعجبها سخريته..هي تثق به وبكلماته لكنها خائفة، كيف

تمشي فوق نهر على هذا الارتفاع، على لوحٍ من زجاج

"فلنفترض كارثة طبيعية، اليوم قد يصيبه سرطان الزجاج

ويسقط"

كاد يسقط من شدة ضحكه، هي تعلم بأنه يفعل ما بوسعه

لأجلها، وهي أيضا، ستفعل أي شيء إلا أن تمشي فوق هذا

الزجاج.

شمس المغيب منحت كل ما حولها لون ذائب مشرق، يحث

على الأمل والتفاؤل، نهر تحتها يتلألأ بضياء من الأحلام...

الأجواء حولها حالمة، حملها، يهمس في أذنها

"ثقي بي"

يمشي ويتطار ثوبها، ترى وجهه عن قرب، وشقرة شعره وذقنه

تكمل مظاهر الشمس الأخاذة حولها، أسلاك نحاسية براقة قصيرة هي ذقنه، شعره أنعم قليلا، وأقصر كثيرا، كل شيء يسير ببطء وكذلك نظراتها، تتعلق بوجهه، لا تفلته ولا تغفل عنه.

خطواته ثابته، تشعر بعضلاته وحركاتها، تشعر ببطنه ملاصقة لجنبها، يحملها كصندوق ماسي جمع كل ماله فيه، يخشى سقوطها، يحاوطها بجسده، يعدها إن سقطت سقط قبلها.

لم تشعر بالوقت، ولا بخوف، فقط تسارع أنفاسه ما أخبرها بأنه سار كثيرا

"تعبت؟"

"لا"

"أنزلني"

"ستسيرين جواري، لن تخافي"

نزلت من فوق غيمتها الذهبية لتقول

"سأمسك بيدك جيدا، إن سقطت، سأسحبك معي"

برضا ومرح أنزلها

"موافق"

تحاول السيطرة على خوفها

"لديكِ رهاب من المرتفعات"

"رهاب، مجددا، سنضيفه إلى رهاب الغربة"

تضافرت كفوفهم، لينقلها لذاك العالم مرة أخرى، تعلقت

بالغيوم مجددا، لكن الوصف المعنوي ولي، وبقي الانجذاب

الجسدي.

كيف بلمسة يحييها، وبجفاء يشقيها.

لم تكتفِ بلمسة كفه، ثنت ذراعه لتدخل يديها بها وتحتضن

ذراعه إلى صدرها

"طارق"

"نعم"

إستدار بوجهه يقتطف ثمار شوقها

"أريد العودة إلى الفندق"

سأل وهو يعلم الجواب

"لماذا؟"

قالت متلعثمة

"اريد... اريد .. اريد أن ... "

وضع أصبعه على شفتيها يكمل عنها

"وأنا أيضا أريد"

تسارعِ خطواتهم على الممشى، نسف خوفها ولم يتبقَ الا

شوقها اليه، تلهث مشيا وشوقا، إتسعت خطواته تسابقها،

إن كان الخروجِ متعة، فالمكوث معها امتعِ، الإستماعِ إلى

هذيانها ألذ، والإقتراب منها جنة.

في طريق عودتهم شردت في رسالة صباحية من الطبيبة

النفسية، ترد على رسالتها التي أخبرتها فيها عما حدث قبيل

سفرهم.. ثورته بغرفة أبيه، وزيارة قبر والدته، وكلماته عن أنه

لم يعد يؤذي نفسه، فكان ردها

" قد يبدو هذا تحسن يا خلود، إلا أنه لحظي، لأنكِ منحته

الحب الذي كان يفتقده، طارق توقف عن حب نفسه ويرى

أنه شارك بجسده لحظة الانتهاك فكرهه، حتى صادفكِ

ومنحته الحب، هو يشعر بأنه سعيد، هي سعادة لحظية وقتيه،

فالمشكلة لم تحل بعد، ماذا لو إستفاق والده، هل سيرغب في

تعذيبه مجددا، أم سيعذب نفسه، لا أنكر دوركِ وتعبكِ معه،

إلا أنه لابد من جلسات، ليتخلص من مشكلته نهائيا"

نزلا من القطار، وأسئلة الطبيبة ترن في أذنيها..تنظر إليه وهو

يسير جوارها، وكأنها تنتظر إجابته.

***

تقذف مخاوفها إلى كمال عبر رسالة قصيرة

"هناك شيء غريب يحدث بالقرب من الباب الخلفي للفيلا"

يكتب لها

"هل رأيتِ شيء؟"

"السائق، لقد رأيته يتردد هناك"

يدعي القلق في وجه أرسله إليها، بينما بداخله يعلم جيدا بأن

عبد الرحمن يقترب من منيرة ويهتم بها أثناء سفر طارق..

كتب لها

"راقبيه، لابد أن تطمئني، وعليكِ توخي الحذر"

يوجهها من بعيد، دون أن يمد يدا فيبدو بأنه من وشى..

لكنه يريد لو يكشف أوراقه كلها لها...فهي من ستضعضع

بناء طارق من الداخل...وهو من سيدفعه نحو الجرف ليلقى

حتفه.

وفي عمق الليل

هذه المرة لابد وأن تكون الاذكى والاحوط، راقبت، حددت

الوقت، وسبقته بلحظات، لتقوم بضبطه.

تقف في مكان مظلم لا يراها منه أحد..تشاهده يقترب وبيده

أكياس، تبدو وكأنها وجبات سريعة..

يفتح الباب المؤدي للقبو..وقبل أن يغلقه..كانت خلفه..

يلتفت ليغلق الباب فكانت بالداخل بصحبته..

تشير إلى الطعام الذي وضعه أرضا

"لمن هذا؟"

بوغت من فعلتها، لم يتصور بأنها بذلك الذكاء وقد تسبقه

بخطوة..

لم يجيبها وصوت أنين هامس ينبعث من أسفل..

تنزل الدرج، مكان قاتم، مظلم.. إلا من مصباح أصفر يضيء

بخفوت..

تقترب من تلك التي توليها ظهرها..

تضع يديها على كتفها تديرها إليها...

شهقت وارتدت إلى الوراء حالما رأتها..

"عمتي!"

ليتصارع عقلها في لحظات كمن انفلج رأسه ويحاول رأبها،

كانت صغيرة عندما رأتها آخر مرة بصحبة والدتها...

تتذكر دفء حديثها، ورحابة صدرها الذي كان يضمها ألف

مرة منذ ولوجها إليها...كلماتها التي لم تفهمها ولا زالت

تتوالى عليها

"أنا أيضا لا أتحدث إليه..ولا أراه..بينما الآخر أبحث عنه.."

وبعيون باكية ونبض متقطع كانت تسمعه بأذنيها لاقترابها من

صدرها تكمل

"ربما..لأقتله..يمحو أثره وكلما اقتفيته يفر من جديد"

لا تعلم من الأول ومن الآخر، ما كان يقتلها، بكاء أمها بعد

كلمات عمتها..وأشتداد ذراعي عمتها حولها...وكلمات

تلقيها على أذن أمها دائما وهي مغادرة..كلمات عنها

هي"عاليا"

"أنتبهي إليها.. جيدا"

فتنتقل من عناق لعناق ادفأ وأنعم من أمها..وقبلات تدعم

القلب والعين لطالما أفتقدتها..فقاعة من الحب والإهتمام

إنفجرت بموتها فباتت عارية..بلا غطاء او دفء.

ماضٍ إجتمع على رأسها فأسقطها بين قدميها تهمس

"عمتي.."

تتسع عيني منيرة، لا تعرف من تلك..فتتابع عاليا باكية

"عمتي..إنها أنا"

تمسك يديها تضعها على جانب وجهها تقبل كفها

"انا ..عاليا"

ولوهلة..تذكرت ما يحدث، عمتها خلف قضبان القبو محتجزة

من قبل من لا تعلم..والسائق يتكتم على الأمر

السائق..التفتت اليه تقترب منه تمسكه من مقدمة قميصه ..

تصرخ به

"ما الذي فعلته بها، أين وجدتها، وماذا تفعل هنا؟"

يمسك كفيها بيد، والأخرى فوق فمها يمنعها الصراخ...

تقاومه بشدة...ترفص بقدميها، وتصارعه بكوعها في

بطنه...تعض كفه لتصرخ..

"أيها الجبان..هل ما يحدث بعلم من طارق؟"

يحاول السيطرة على نوبة الهذيان التي يراها منها، من تلك

المرأة التي قلبت عاليا الطائشة الى محبة وحنونة ومدافعة...

عينيها البنية التي تلمع بالدموع فتشعلها بالنيران تحت الضوء

الأصفر.. تجعله يشعر بالشفقة نحوها

جسدها الهائج الذي يقاتله بعنف وغضب...

لم يخبره طارق بأن تلك المرأة يعرفها أو تقرب له .

لقد طلب طارق فلبى...

وهل يمكنه الرفض، بعدما طوق عنقه بحياة جديدة كتبت

لوالدته كان سببا لها.

لازالت تصارعه..وهو يقاومها...حتى توقفا على صوت

غاشم

"ما الذي يحدث هنا؟"

***

يقفا أمام الأكواريم، حوض سمك كبير، علم بأنه سيبهرها،

لقد شاهده في العديد من الدول التي زارها، إلا أنها لم تفعل.

بفمٍ مدله، وعيون شاخصة في ألوان الأسماك وأحجامها،

تراقب الحوض..

كانت أقصى أحلامها، أن تسافر العين السخنة، كما كانت

تستمع إلي الممرضات صديقاتها، ليتهن معها الآن، لِمتن

بالسكتة القلبية.

تتلفت يمينا ويسارا، هي وسط الأسماك، تمتزج ألوان الأسماك

مع عذوبة لون المياة في مشهد خلاب.

"لماذا لا تخافين؟"

"ممَ!"

"قد يثقب أحدهم هذا الزجاج حولنا فنغرق"

إبتلعت ريقها مع شعورها بصدق حديثه

"معك حق"

إستمتع باللعب معها

"هنا المكان أخطر من جسر البرِج، على الأقل هناك كنا

سنسقط وأنا سأعوم بكِ، أما هنا الغرق لامحالة"

إتسعت عيناها، ترفع حاجبيها

"أنت تمزِح، صحيح"

تصنع الجدية

"لا"

تعلقت بذراعه

"إذا، هيا نغادر، لقد سئمت ، المكان لا يعجبني"

تعالت ضحكاته الرجولية التي أدمنتها حتى الثمالة، تفاحته

التي تصاحبه في كل تعبيراته، قلقه وحزنه وضحكه، وتنفسه.

وجهه المشرق، الذي أقنعها بأنه تعافى جدياً، حاجبيه اللذان

لم ينعقدا على مدار خمسة أيام متتالية.

وعندما غطت المدينة في الليل، وغرقت في الظلام الذي لا

تعرفه مدينتها، دخلا فندق ليتناولا العشاء..

يبدو وكأنه على علم المسبق بالأكلات هنا، طلب الطعام

دون الرجوع إليها، وهذا ما أسعدها، وهو يتكفل بكل شيء

خاص بهذه الرحلة العجيبة

"سأهتم بك جيدا عند عم مسعد"

تنظر حولها كسائحة حقيقية منبهرة بتصميمات المكان،

ضحك وقال

"أثق بذلك"

حبات البطاطا المشوية، لحوم متعددة محمرة، غارقة في صوص

أحمر، دوائر الجزر وخضروات بسيطة على حافته..

تذوقته، أغمضت عينيها متأوهه من المذاق الطيب

"أعتقد أن هناك مطاعم شرقية هنا، أليس كذلك؟"

"نعم، ولكن لا مانع من تجربة كهذه، ما رأيكِ؟"

ردت بحماسة تلتهم صحنها

"مذهل"

يمسح عن فمها صوص متساقط بأصبعه، ويتلذذ بمذاقه في

فمه

"أشهى من صحني"

إبتسمت لمزاحه، تستلذ من إيحاءه..عن طيب طعم شفتيها..

تراقب تناوله للطعام بصمت، كممثلي الأفلام..هو حقا لا

يليق بها...رغم ما يفعله لأجلها إلا أنها تشعر بأنها أقل منه...

لولا قرائتها واتساع مداركها لشعرت بأنها أقل منه في كل

شيء...ما يميزها أنها تكمله...

دراسة إدرارة الأعمال جعلت منه رجل أعمال من الدرجة الأولى...وما حدث له في صغره جعله فاشل في العلاقات الاجتماعية من الدرجة الأولى..

يقرأ صمتها بصمت، يترك شوكته..

"من الذي أخذ عقلكِ؟"

تضيق عينيها

"أنت"

يفهم جيدا ما تعانيه، هي لم تتوافق أو تتعتاد مع هذا الغنى..

"عندما تركت منزلي قديما، وانزويت عن العالم، كنت لا أجد مالا لهذه الرفاهية...مرت علي أياما من الفقر المدقع وزيدي عليهم غربتي وسخطي"

يمسك كفها يقاوم رغبته في الصراخ

"كل ما ترسله أمي من مال على قدر دراستي، وانتقامي..لم

يكفيني المال وانا ادفع لهذا وذاك لمساعدتي..فكنت فقير

فقير جدا..يا خلود..كنت انحت الصخور كي تنفرج غيمة

حقدي..."

يضغط على كفها يكمل

"توقفي عن إحساسك بأنكِ أقل مني..أنت تكمليني"

ها هو يسرق أفكارها الطازجة التي نخرت عقلها منذ

لحظات...تشعر بأنها بحاجة للعلاج النفسي معه...ولم

لا..فمكوثها في تللك الفيلا ومعرفتها الكثير عما يحدث

داخلها أصابها بالجنون...

"من يصدق بأن طارق من يقدم الدعم لاحدهم"

"أنا كلي طاقات..."

تلمع المشاغبة بعينه فيقول

"لكنها مدفونة"

يقبض على يديها الاخرى فيردف

"ما رأيكِ لو نستخرجها سويا"

مزاحه الغير معتاد من شخصيته الحادة يلهب قلبها

عشقا...طارق يحاول ويحاول...يوما ما سيصل..هي كلها

أمل في ذلك.

يسحب يده من كفها ليستقبل رنين رسالة على هاتفه، تبعها

إنغلاق ملامحه وكلماته

"علينا العودة الآن، فقد توفي والدي"

***

أنا المقتول والمذبوح غدرا

وحبكِ جاء يداوينى ويُحيينى

تواجهين ماضيّ بقوة محاربة

هدمتِ كل أسوارى وتحصينى

أبوحِ لكِ بعذابى وأسقامى

وأسدلت أمامكِ أحجبتى وأستارى

ففاضت عيناكِ بالدمع تبكينى

وبذراعيكِ على صدركِ تضمينى

وبدفا أحضانكِ وأضلعكِ تدثرينى

بنيانى من قبل لقاكِ

خار أساسه وأعمدته فانقض

وبحبكِ من جديد تبنينى

وبالشفاء والأمل والسعادة تعدينى

تحاربين ظلامى بقوة إيمانكِ

وتمسكين بيدى وللنور تخرجينى

فحبا بالله لا تتركينى

وإذا أخطأت فردينى وقوّمينى

ومن شيطان إنتقامى إنقذينى

كلمات رشا الشاعر

***

اتمنى أن تتلون حياتك بألوان الربيع

والحزن الذي يكسوها يضيع

وكم التنمي يعيد الجراح تنبض في الوريد

خاطرة lake House

**

الفصل السادس عشر

***

كرماد هش بعثرتنى.. ظننت بأنى أضاهيك قوة..

لأكتشف أنى كدخان تنفثه من رئتيك..

يتملكك يطبق على صدرك فتتخلص منه..

راااحلةٌ أنا......

***

طقس بارد كبرودة يديه وقلبه، هيبة الموت تملأ المكان،

إستشعرها حالما دلف بصحبة خلود المرتبكة، الصامتة.

طوال رحلتهم وهي قلقة، لم تبادره بكلمة، فقط تتحدث اليه

بنظراتها وهو يهاتف كمال لينهي اجراءات الدفن حتى

يذهب وينهي ما تبقى..نظراتها التي تتساءل، لمَ كمال وقد

ظنت بأنه انهى تعاملاته معه..لكنها لا تسأل ولا هو يجيب.

عقله لا يتوقف، ترتيبات وعزاء ليته يستطيع تجاوزه..

الرشيد توفى ولابد من اعلان الخبر هو ليس خبر شخصي

متعلق به كزواجه..انما خبر عن شخصية عامة يهتم لأمرها

الجميع.

يسرع في خطواته الى أن وقعت عينيه على عمته تجلس أمامه،

فتثاقلت خطواته، جوارها عاليا، بملامح جامدة تفتقر الى

الفهم والتعبير، كمال يقف في إستقباله، بينما وخلود خلفه،

لا يرى إنغلاق ملامحها.

تسمر في وقفته، نظرات عاليا له كانت قاتلة، فتلوت بطنه

خوفا من مواجهتها ليمنع قبضته عن اعتصارها، يقاوم ألمه.

"هل انهيت الأوراق؟"

يتوجه بحديثه الى كمال الذي أجاب

"أجل"

فأشار له بالانصراف..

قامت عاليا تقابله، تسير نحوه، تتشح بالسواد، الذي

ولوهلة، تدرج بألوانه حوله.

" من الذي حبس عمتك في القبو؟"

سؤال طاعن مباشر، زاد من ألم معدته..يطالعها بوجه حاد،

لن يهرب من ماضيه بعد الآن وقد إنكشف في أسوأ حلته

" أنا"

إجابته المباشرة ألجمتها، ما الذي يمكن قوله بعد إعتراف

كهذا..

" العلامات على ظهر أبيك، من قام بها؟"

لو ظن بأن أسئلتها نفذت فقد أخطأ

" أنا"

وصراحته المتناهية أيضا لم تنفذ..

أجواء مشحونة بآلآم سنوات، تتعاقب الآن ، تبخل بفصلين

فقط..

شتاء قارص تجف القلوب من صقيعه..

وخريف، تتساقط معه أوراق الدفء الرحمة.

يتثاقل كمال بخطواته منصرفا، بعدما سمع اتهامات عاليا

المباشرة وردوده المستقيمة عليها، في حين صرفت عاليا الخدم

فور رحيل والدها لتستمتع بالوحدة والخلوة القاتمة التي

تناسب مزاجها..

فرغت الفيلا من الجميع، إلاهم..

رغم كرهها لوالدها، الا انها حزينه، لقد تمنت يوما يستيقظ

به ليجيبها على أسئلتها..

لماذا أتى بها الى هذه الدنيا..!

ولماذا لفظها..!

لماذا لم يبقَ حتي ولو صورة على فراش بلا حركة..؟

طارق..أبيها الثاني، الذي ابتعد منذ دخلت حياته خلود..

ابتعد كثيرا، لا تأخذ منه الا المال..

الكثير من المال، لم يعد يسأل فيما تريده، أو علامَ تنفقه..

تتأمل مهابته في معطفه الأسود الطويل..

رابطة عنقه الرفيعة..

أناقته وفخامته التي تخفي خلفها، خداع ومراوغة وسرعة وزغ

يصعب تعقبه..

" أنتِ لا تعلمي شيئا عن أسبابي يا عاليا"

تساقطت دموعها لتروي أرضها القاحلة، التي تصحرت

بمعرفتها للحقائق..

صوته الخشن، زادها تمردا..

" لم أعد أهتم، أنا سأتزوج من كمال، سأترك لك كل شيء"

أمسكها بقوة من ذراعيها..حيث شهقت خلود من خلفه

فزعا من قولها..

" ما الذي تهزين به؟"

ناطحته بحدة

" كما سمعت"

" هل جننتِ، ما الذي بينكِ وبينه؟"

أنفاسه المغبره لفحت وجهها بعنف، ترتعش بين يديه، تقول

بقوة وقد فلت عقالها

" أحبه، وسيتزوجني، لن أجلس في فيلتك ولو ليوم واحد، أنا

أكرهك، أكرهك"

حاولت الافلات من قبضته لم تفلح، جرها خلفه نحو غرفتها

يصيح بها..

" لن يحدث، أنتِ طفلة ناقمة متمردة، حان وقت تربيتكِ

وكسر شوكتكِ"

قذفها داخل غرفتها وأغلق بابها بالمفتاح..يكمل صياحه

بوحشية

"منذ اليوم لا خروج، لا مغادرة لغرفتكِ، ولو لزم الأمر

لوضعتكِ في القبو بدلا من عمتكِ"

تصيح وتصرخ من الداخل، بكلمات غير مفهومة..

تلون الغضب بين عينيه، ينزل ليحمل الحقائب..

بينما خلود تقف مكانها منذ دخلت الى الفيلا، وكأن صاعقة

نزلت عليها..فحالتها إلى تمثال محترق..

صعد الى غرفته وتركها تلملم أشلائها، غير مستعد لأسئلتها

هي الأخرى.

إقتربت من منيرة التي ترتعد خوفا وتبكي..وعندما شاهدت

اقترابها سألتها السؤال الذي اشتاقته خلود

" من أنتِ، أين أنا؟"

لقد أزادت هذه المرة على السؤال آخر..

إبتسمت خلود رغم انهاكها، تذكرها بجواب قديم

"أنا خلود، أعمل في دار العجائز، أحضر لك الكيك، أم

الفول سيدة منيرة"

وانقلبت الابتسامة الى دموع تشاركتها مع العجوز..

وأمامها ألف طريق تحارب به، ولا تعلم من أين تبدأ...

يراقبها من داخل غرفة حماها، لقد كان يجلس هناك، وقد

استمع لهذه الثورة كاملة، يشاهد سقوط حفيدته بين يدي

منيرة، يراقب انطفاء وجهها..فالمصائب تتوالى..

والاسئلة ستفتح جحور اجابات مسمومة، قد تقتل روحها..

يلزم الصمت منذ وجد عمته بالقبو وعاليا وعبد الرحمن

يتصارعان..وقتها سأل الاخير بحدة عما يعلم فأجابه بأنه

ينفذ اوامر سيده..

لقد كذب عليه طارق منذ البداية..

كان يراوغ بشأن عمته، كان يسمع اسمها ويتبرأ منها ولا

يوخزه ضميره مما يحدث لها...

كيف تركها الى كمال يعذبها، وفي القبو بدون نظافة شخصية

او عناية..

استغفله وهو يقنعه بتغيره...وقد صدقه، وأعطاه زهرة فؤاده

التي ستذبل بسواده..

***

انتهى من قطع سلك الفرامل..للسيارة الخاصة بطارق التي

يقودها عندما يريد أن يخلو بنفسه، يعتبرها جناحه المتحرك

بفخامتها واحتوائها كماليات فارهة..

بتشويش متقن على كاميرا المراقبة التي خرجت عن سيطرته

مؤخرا.. أنهى فعلته، يضحك منتشيا في انتظار قطف ما زرعه

طوال الفترة الماضية.

رن هاتفه..وصوت طارق يحدثه

" أريدك بغرفة المكتب، الآن"

واغلق الهاتف..

سار نحو الفيلا يسب هذا المتغطرس اللعين..

سيارات هنا وهناك، أموال لا تعد ولا تحصى، زوجة تحبه،

الأرض ومن عليها مذللة لقدمه،ليملك كل شيء..

ينتفض قلبه بحقد، تتحرك الأرض تحته بورعٍ تخشى عصيانه

وجنونه، ترتعد الحشائش من ذرات مبعثرة من غله

وحسده..الى أن وصل الى غرفة المكتب..

يجلس خلف مكتبه، يقف كمال ينتظر اذنه للدخول..

هم بالجلوس امامه.. فاشار اليه طارق بالتوقف..

ينظر الى خشب مكتبه لا يعطي ضيفه اهتمام.. يسأله

بتجاهل

" ما الذي بينك، وبينها؟"

ارتعادة اصابته، لماذا قد يسأله طارق سؤال كهذا..خبطة من

قبضته فوق المكتب اوشكت على تهشيم سطحه

" أي محتل أنت، لتنظر الى فتاة أصغر من ابنتك"

يعقد حاجبيه ينظر في عيني طارق بثبات

"ماذا تقصد؟"

بصوت متحشرج غاضب قال

"عاليا"

قام من مجلسه يقف خلفه ينفث كلماته كفحيح افعى يذكره

بما يملك من سلطان

" تعلم بأني أكثر من قادر على إخفائك من الوجود وارسالك

خلف الشمس نفسها .. صحيح؟ "

أومأ كمال برأسه يتفق مع قوله..بسخرية داخلية يستمع

اليه، يعيد تساؤله بغضب يتصاعد

" هل بينك وبينها شيء؟"

أجاب مسرعا

" لا"

وبثورة حانقة قال

" هل وعدتها بشيء؟"

وبذات السرعة اجاب

" لا"

يضع كفه على كتفه يقول بمداهنة

" لماذا أخبرتني اذا بأنها تريد الزواج منك، هل اقتربت منها؟"

إلتفت اليه بحدة، يواجه غضبه بمثله

"ما الأمر يا طارق..هي تراني كأبيها، لماذا تأول كلماتها

وتأخذها على هذا النحو؟"

صاح به يفرد ذراعيه منفعلا

"لأنها أخبرتني بأنك ستتزوجها"

يحاول التماسك والتظاهر بعكس ما يضمر، ليقول بهدوء

"ربما تجاوز اعجابها بي وتراني كحبيب، في ظل غياب الاب"

يلف ليصبح طارق أمامه ليردف

"والأخ...يحدث أي شيء، لقد حاولت تعويضها قليلا عن

غيابك"

يبتعد عنه بحدة وغضب أسود أكتنف خلاياه، يشير بأصبعه

"لا تفكر باللعب معي يا كمال"

يجمع قبضته امام وجهه ليردف

"روحك بيدي"

يتنفس بعمق يسيطر على دهاءه

"هل تهددني بشيء سيد طارق؟"

إستعاد كلمة سيدي يخبره بأنه فهم كلماته جيدا، مهما بلغ

بهم من صداقة يبقى ابن الرشيد سيده..الذي يعطي..ويمنع..

يجلس والقلق يراوده حول تلك اللكنة المتملقة التي يحدثه

بها، لايرتاح قلبه لكمال منذ عرف خلود..تمنى لو تنصل من

كافة ذنوبه أمامها وخاصة كمال..إثمه الأكبر، يكفيه

مشاركته ودعمه لكل قرار غاشم..خاطىء قد اتخذه من قبل.

يتودد اليه بكلماته

"أنت لم تسألني عن قضية المسنين!"

"أعرف اساليبك القذرة واستغلالك للثغرات لست بحاجة

لسؤالك"

تبدل بريق عينيه الى الحقد، ولم يعد قادرا على تمالك نفسه

"تركتني تتمرغ في النعيم، بينما اتلظى أنا بالنيران"

"أنت من فعلت هذا بنفسك"

"ومنيرة؟"

لماذا تتداعى كل الجدران الحامية حوله، لماذا ينقلب السحر

دائما على الساحر..

"لا يحق لك محاسبتي..أهتم بنفسك"

إبتعد طارق عنه بعينيه، تمزق الأفكار رأسه، يتوعد كمال

بالحرق إن كان يخطط لايذاء عاليا، يصرفه بتهديد مبطن

" انتبه لابنتك يا كمال، هي في سن حرج، تحتاج لاهتمامك

بالكامل"

لا يعلم هل هو تهديد!

أم أنه يعلم شيئا عن ابنته ويخفيه عنه؟

أم يريد صرف انتباهه لشيء آخر..؟

غادر وتساؤلات كثيرة برأسه..وأفكار شرسة تفتك بها..وأولها

سلامة سلمى.

بينما جلس طارق وحيدا بغرفة مكتبه، يجري اتصالات

عديدة، من بينها اتصال مع احدهم يأمره بمراقبة كمال وابنته

وموافاته بتقرير مفصل عنهما.

***

صعد الى غرفته، يبحث هنا وهناك ، غير موجودة..يريدها

الآن..

إشتياق..

إحتياج..

حزن..

يريدها لتكون جواره الآن..

يحاول ترتيب أفكاره، لا يستطيع..

إستجلاب ردود منطقية لتساؤلاتها التي ستمطرها عليه حالما

تراه..

لا يوجد..

ذهب الى الحمام، يغرق رأسه بالمياة لاعادة تنظيم افكاره..

لكن..

بلا فائدة..

يجفف شعره، يحك رأسه بقوة..

لم يهتز لموته..ولا يحدد حتى الآن طبيعة مشاعره..

هل هي ساخطة، متشفية، معترضة..

ينحي كافة مشاعره تجاه هذه المسألة تحديدا، ويطغى علي

تفكيره شيء واحد...

بل اسم واحد ..هو .." خلود"

بدل ثيابه.. يجلس على كرسي أنيق بغرفة نومه، يجاوره مثيله

يخصها..

كثيرا ما تبادلا الحديث ملتصقين هنا قبل سفرهم..

أشعل سيجارة تزامنت مع دخولها..

لازالت بمعطفها الاسود الثقيل الى الآن، لم تدخل الغرفة منذ

وصلت الا الآن، بحشرجة سأل

" أين كنتِ؟"

بتروٍ أجابت

" مع السيدة منيرة"

" لم تعد سيدتكِ بعد الآن"

تجاهلت حديثه..تنزع معطفها، تجلس بانكسار..ليخرج

صوتها كحالتها

" لقد راهنت عليك"

دموعها تذبحه، أطفأ سيجارته ليجلس جوارها..حاول لمسها

فابتعدت..

حاول تسكين ألمها فلم يستطع وهو مصدره..

حاولت التماسك فلم تفلح، إنهارت بدموعها كما الشلال الغاضب بغريره..

" ابتعد"

ثم قامت تهزي في تلك الغرفة المكومة الاثاث بفخامة، تقطع بها مسافات، تقذف كلمات لا بداية لها ولا نهاية

" تحديت جدي لاجلك وقد رفض زواجنا، تحديت عاليا وانا أرى تحول علاقتي بها غضبا لأجلك، تحديت المنطق والزمن، و .. أحببتك.."

تمسح دموعها لتفسح المكان لقطرات جديدة متدفقة مع سهامها القوية

" أنت لا تملك قلبا"

صاح بها وقد مزقت دموعها قلبه، وقطعت صبره، وفجرت آلامه جميعها

" بل هم ..هم لا يملكون، أبي وزوجها..اتعلمين ماذا فعلت عندما أخبرتها..لطمت وجهها ، وصرخت، وفقط..ثم استدارت تبحث عن زوجها بعد أن غاب عنها ونسيت ألمي"

شهقت وهي تعلم للمرة الاولى بأن هناك من شارك والده في إغتصابه فتيا..خافقها اوشك على التوقف وضرباته الرتيبة باتت متباطئة..تتحدث بخفوت

" كانت تحبك، كان تحكي عنك طوال الوقت في الدار، لقد حدثتني عن تدريبات السباحة، عن مرضك وسهرها عليك، لقد عاملتك كأبن لها"

كلماتها توخزه كإبر تدمي جسده..لا ، لا يريد سماعها

" توقفي"

يضع يديه على اذنيه لا يريد المزيد، يقول بهذيان يشبهها

" لقد اغتصبني متناوبا مع والدي، هل تعلمين مدى ألمي،

هل تشعرين بما عانيت، أنتِ تناظرين أمامي، توصميني بالعار

وعدم الرحمة..واين كانت الرحمة منهم.."

أنهى كلماته بصراخ قوي، تزامن نزع يديه عن أذنيه مع قذف

الاشياء حوله بقوة، يهشم غرفته مرة أخرى ..

وهي معه، لا تقو على ايقافه او السيطرة عليه

" أخبريني يا صاحبة المباديء والقيم ما الذي وجب علي

فعله، ألا يحق لي الثأر ممن أذوني"

تهمس

" ليس هكذا، ليس لها ذنب"

" وماذا جنيت أنا..!، هل تستمعين لآهاتهم وتلذذهم

بانتهاكي، هل تطاردكِ أحلام عن ضعفكِ في الدفاع عن

نفسكِ، هل كبلكِ أحدهم ليستمتع على حسابك يا خلود"

لم تنطق فصرخ بها

" أخبريني"

وصوت تهشم آخر لا تعلم ما كُسر فقد أغمضت

عينيها..خوفا وارهاقا..

أنفاسه التي تتسابق، وتتسارع بقوة، وقد عاد الماضي من

جديد يطارده بقسوة..

" أخبركِ شيئا، أنا لا أريد علاجا، سأظل هكذا، لن ينفع

الدواء في حالتي، لقد مات، أتعلمين، لقد ماتوا جميعهم ولم

يتركوا لي سوى الخيبة والضياع، لم يتركوا لي إرثا بسيرة عطرة

كي اذكرهم واترحم على ارواحهم، ألا لعنة الله عليهم.."

سيجارة تعقبها اخرى، جلس مكانه يمجها بعنف وشره لم

يفعله يوما..

صدقا لقد حاول ان ينحي أفكاره جانبا..

لم يكن ليفتح دفاتره هذه الليلة..

لكنها فعلت..

فتحت جل الكتب، وقلبت في حسابات ظنها انتهت...

وقد عادت لنقطة الصفر معه..بل ما قبل الصفر..

لم تنضب دموعها، بل كانت كالمنجم المليء بلآلئها..

تسقط بغزارة..

ترثيه، وترثي نفسها..

لم تفلح اللوحة العطرة بزهورها والوانها الجذابة أمامها، يوم

وقعت عليها عينيها وهي عائدة بصحبته بعد عقد قرانهم،

فقد برع في شراء كل ما تقع عليه عينيها دون أن تطلب..في

تهدئتها..اللون الوردي والاوراق الخضراء بألوان زيتية على

خلفية خشبية، مزيج الالوان لم يخفف من وطأة حزنها،

شعورها بالانتماء الى هذه الرسمة بأعتبار ان الزهرة محلية النمو

كما هي...هي دخيلة على حياة طارق كما الزهرة البريئة في

غرفته..

"لقد..كذبت علي..إدعيت الفضيلة..أ..أنا.. أود الرحيل!"

زفر نفسا غاضب

"هل كان ينبغي علي أن أجثو على ركبتي لأعدد

محاسني..لقد عذبت والدي..سجنت عمتي في دور الرعاية

وترتكتها لكمال الذي تكرهينه ومن ثم حبستها في القبو

طالبا موافقتكِ على الزواج مني!"

تعتصر عينيها بكاءً، بشهيق فزعٍ من حقيقته التي تعلمها

جيدا لكنها على مسامعها الآن ذميمة مقيته..

لم تجب فقال

" إنتظري حتى ينتهي العزاء وافعلي ما شئتِ يا خلود..لن

أجبركِ على الجلوس مع معقد، مختل، راهنتِ نفسكِ نفسكِ

على شفاءه وخذلكِ"

بدلت ثيابها..وقد تمكن اليأس منها.. تردد داخلها

" لا فائدة، لافائدة"

***

ترتعد خوفا مما سمعت، طارق، أغتصب في صغره..

تبكي هي الاخرى عن العذاب الذي عاناه أخيها..

وهي التي ظنت بأنها صاحبة العقد.. بروح مخدوشة متناثرة

قامت تنظر في مرآتها الكبيرة..

خلود كانت تعلم، تزوجته لانها احبته ورغبت في مساعدته،

وليس طمعا فيه..

طارق معذب..

كان يمنحها الحب والاهتمام وهو لم يحظ به في صغره..

تبكي حالهم..هي وهو يتجولون بين الناس بأجسادهم بينما

أرواحهم محلقة بغضب والسبب والدهم..

دموع كثيفة تجمعت في عينيها لم تسقط..

جلست أرضا ترتعد بردا..

ولاول مرة تحزن لاجل بيع جسدها للالم..

ماذا لو علم طارق بمصيبتها..!

هل سيعطف ويحن عليها كما تفعل الان لاجله..!

لطمت خديها بقوة..

تضرب على فخذيها بحسرة..

ظنت بطيشها أنها ستنجو..

تمردها على طارق وافعاله أعماها وزاد غيها..

لعنت نفسها كل مرة فكرت فيه بسوء..لم تكن تعلم

بعذابه..

تضرب بقوة..تلطم بقوة..

سواد يتخلله حمار داكن..

إنسحاب روحها بخفة..

وقد تخضبت عينيها بالدماء التي فرشت الارض حولها،

تنسحب عن عالم الاحياء، لعالم..لا تعرف ان كانت ستعذب

فيه، أم ستنعم..

***

يقفان أمامه وتضج الأسئلة برأس كلا منهما، يتماشى الشتاء الرمادي مع ما يحدث في تلك الفيلا التي تحوي الكثير من الأسرار.

عبد الرحمن بوجه غير الذي يألفه طارق، لطالما عهده بوجه بشوش، بابتسامة لا تفارقه حتى في أوقاته الصعبة حين مرضت والدته..

اليوم يواجهه بوجه مغلق الملامح كصندوق يغل بما يحويه من نيران، يعقد كفيه على طولهما امامه، يقف مشدود الجسد كمن يواجه سيده يتلقى أوامره العسكرية..

وسؤال واحد يتردد داخل عقله يقتله وقد كان ذراعا لطارق

في شيءٍ ملتوٍ، لينكشف وجه طارق الذي يعلمه الجميع بجديته وحدته..

بينما الجد يقف متهالك القوى أمام ما عاناه في الايام الماضية من أفكار سوداء وتساؤلات أشد سوادا عن منيرة وكذب طارق عليه..وتلونه كي يظهر بصورة مغايرة لاتهاماته له.

"ما الذي حدث أثناء غيابي؟"

يسأل بصوت حائر بين الغضب والهدوء، يتحدث إلى أكثر أهل الأرض صدقا له..

يلف الصمت جلستهم، يشير إليهم بالجلوس، امتثل الجد بينما عبد الرحمن عصى أوامره وظل واقفا..تاركا للجد استهلال الحديث..

"حاولت عاليا الخروج من الفيلا مرات عديدة.. أولاها كنت

لها بالمرصاد، فوضعت لي حبات المنوم لتغادر"

أكمل عبد الرحمن بصوت يخلو من الإهتمام كمن يسرد

واقعة ليس طرفا فيها

"بعد أن استطاعت الخروج كنت لها بالمرصاد، واعدتها الى

الفيلا بعد أن تسللت من الباب الخلفي"

ينقل بصره بينهما يكتم انفعالاته..

يمسح الجد وجهه لا يعلم ما يقول وما يخفي..قال بانهاك

"ويوم آخر تركت لها مساحة للهروب لاراقبها بصحبة عبد

الرحمن، وفي منتصف الطريق عادت كمن حدثها أحدهم

يشي لها بأننا نراقبها"

يكمل عبد الرحمن

"كنا على مسافة بعيدة تمكنا من المراقبة دون أكتشاف

موقعنا"

يفرد الجد ذراعه على المكتب ليكمل عنه

"كانت تتحدث في الهاتف..كنت أراها"

عينيه الغير ثابتة أثارت شفقتهم نحوه..يمسك رأسه، صامتا

يستمع إليهم ربما يضيف أحدهم شيئا يزيد اشتعاله.

يرتب الأفكار برأسه..طفلة تضع منوم لعجوز لتغافله

هاربة..ما الذي ينتظرها في الخارج لتفعل ذلك!

من الذي حدثها وأخبرها بأنها مراقبة؟بل وكيف علم!

يطرق سطح مكتبه بأصابعه، يتفرسه عبد الرحمن، رغم كل

الخير الذي يفعله يملك جانبا اسودا لم يعلم عنه شيء مسبقا

سوى تجهم وجهه، دعوات امه لطارق تتردد بين أذنيه، لقد

انقذها من موت محقق، لماذا قد يفعل هذا بعمته المسنة التي

تعاني زهايمر لا تعرف او تذكر احد..كمن ولد من جديد

بصحيفة بيضاء مهما كتب فيها سيمحى..غير محاسبة او

مكلفة..

عليه بإخباره عن رؤيته لكمال..مهما كان حنقه منه لما

يفعل، إلا أن الأمانة تقتضي إخباره...

إنتفض الجميع على صوت خلود تصرخ..

"ساعدوني"

هب الرجال الثلاث ركضا نحو صرختها..طارق في المقدمة

يتبعه عبد الرحمن بخطوات أشبه بالركض، بينما الجد جلس

على درجات السلم غير قادر على الصعود، يخبره قلبه بأن

هناك ما يسيء، عند وصولهم وجدوا عاليا ساقطة

أرضا..مدرجة بالدماء.

***

دلف الى غرفتها..نائمة..

" سلمى"

حاول ايقاظها فلم يفلح..أمسك هاتفها..

محادثات جميعها مع صديقاتها لم يشغل باله بمعرفة تفاصيلها..

يقوم ليفتش أدراجها..بين كتبها..لم يجد شيئا..

استفاقت من نومها على صوت ادراجها تفتح وتغلق، قالت

ناعسة

" ما الذي تفعله يا أبي؟"

إلتفت اليها، يجلس جوارها يحاوطها بذراعيه

" كنت ابحث عن ورقة ضائعة"

قالت متشككة

" بأدراجي!"

لم يجيبها بل الصق سؤالها بسؤال

" هل تفعلين شيئا لا اعلمه يا سلمى، أقصد شيئا في الخفاء،

تتحدثين الى شباب او ما شابه؟"

وبمنتهى الصدق أجابته

" لا يا ابي"

اطمئن قليلا

" هل تخفين عني شيئا؟"

وبمنتهى الكذب الذي ورثته عنه قالت

" لا يا ابي"

ازداد اطمئنانه، وهدأ قلقه..يربت على شعرها

" أكملي نومكِ، أنا آسف لازعاجكِ يا حبيبتي"

وغادر غرفتها، أغلق الاضاءة، واغلق الباب.

بينما هي أمسكت هاتفها..لتمسح محادثات صديقتها

جميعها..

لتستقبل رسالة جديدة

" متى سنتقابل، إشتقتكِ"

ابتسمت وهي تكتب

" و انا ايضا، لكن ليس اليوم، أبي هنا، ويبدو أنه لن يغادر

اليوم"

" فلتغادري دون علمه، ككل يوم"

" هناك فارق، اليوم هو موجود، لن استطيع، لكن في الايام

العادية أغادر دون علمه واعود قبله"

ضحكت صديقتها تكتب بخبث

" انتِ تلعبين على بغض الجيران لابيكِ، تعلمين بأن أحدهم

لن يقترب منه ويخبره بسلوك ابنته"

ضحكت سلمى بتسلية..

" أنتِ تبلين بلاء حسنا، أعجبتني رؤيتكِ يا صغيرة"

أغلقت هاتفها بعد أن اتفقت على الموعد

والمكان..وكعادتهم سيتقابلا في منزل صديقتها، وبغرفتها

المغلقة سيحظين بالمتعة..

لا أم ستشك..ولا أب سيبحث..

صديقتان..يتحدثان، يلتقيان..فلا بأس..

ضوء خفيف يتسلل الى غرفتها..يؤكد على مكوث والدها

بالخارج..

لقد لفت انتباهها في الحفلة الاخيرة شاب..منطوٍ..

زائغ النظرات، لا تعلم..هل هو مدمن، أم مثلي، ربما شاذ..

فحفلاتهم الصاخبة تجمع المنحرفين بانواعهم

نفسيا..وجسديا..

تسرح بعقلها الى عاليا..

لقد كانت صديقة حقيقية لها قبل انجرافها لهذا العالم..

علمت بموت والدها..ستذهب لتعزيتها غدا..

شعورا بالغيرة ملئها عندما تكررت زيارتها، ونالت اهتمام ابيها

كله..

نظرات والدها لها أحرقتها..

وهي تتشاركه معها، الا يكفيها ما تملك لتأتي اليها وتاخذ

اهتمام والدها أيضا..

عاليا الجميلة، المدللة..

لكنها ليست من نوع الفتيات التي تفضل..

ستذهب غصبا مع والدها غدا للعزاء..وستكون أخر مرة

تراها بها..هي تبغض رؤيتها على كل حال.

***

أنا السجين بقبو الظلم

وبعقدة الماضي بت مهزوم

أنا المأسور بقضبان القهر

وبجلد النفس إيلاماً

صرت بالندوب موسوم

أنا المطعون بخنجر الغدر

وطيف الذكرى الغاشم

بين ثنايا الانتقام يحوم

يحلق قلبي في سماء الحب

وعقلي يدور في سماء ملبدة بالغيوم

طريقي مليئ بالعثرات

وسماؤك مليئة بالنجوم

أحلامك تعدني بغدٍ مشرق

وكوابيسي قابعة على صدري كالجاثوم

في محكمة الحب أنا عاشق

وبسحر عينيك بت مفتون

وفي محكمة العدل أنا مظلوم

فلا تلقين عليَ اللّوم

وإن غلبني شيطاني يوماً

عذراً حبيبتي .. فلذة الانتقام

تطغى على مرارة غصة الحلقوم

ورفقاً بقلبي حبيبتي

فحبيبك مثقل بالهموم

وليس البوحِ يسيراً على رجلٍ مكلوم

رجل يتوق لينهل من فيض حنانك

بعد عمرٍ عاش فيه محروم

رجل ظمآن متعطش لإحتوائك

بعد طول صوم

خذي بيدي حبيبتي

واسبحي بي ضد التيار

ولا تفلتيني .. فأنا لا أجيد العوم

خاطرة بقلم هبة الغريبي

***

وضاقت بنا الارض..

فاختنق العالم..

او هيء لنا..

ووسعت بكل ما فيها

تنهش الوحدة اجسادنا..

في ظلمة الليل تدمينا..

تستحوذ على قلوبنا

اه من زمن كنت عليه هين..

واه من عمرا فنى قهرا..

ومن اجساد استبيحت..

خاطرة بقلم سلوان عامر

الفصل السابع عشر

***

أتدرين شيئاً ؟!

نقاء روحك ..

كشفافية الجسر الذي عبرناه يوماً

وغموض روحي ..

بحجم البحر عمقاً

ثقي بي حبيبتي

ودعينا نسير الدرب سوياً

وإن عرقلتكِ المحن

وسقطتِ في بحر غموضي فعلاً

غوصي حبيبتي بين أمواجي المتلاطمة بحثاً

عن الجواهر المفقودة في أعماقي ..

وستجدينها حتماً

وخذي مني وعداً

حينها .. سنذوب سوياً في بحر الحب عشقاً

وسنعزف معاً على أوتار الحياة أجمل لحناً

خاطرة هبة الغريبي

***

ترجو سلاما، هدوء، أو صمت..منذ عادت من السفر،

تحتاج لوقت للتفكير، بينما يعاجلها الوقت بضربات قاصمة،

لا يتركها إلا بأنفاس متلاحقة، وأحداث صادمة.

تقف مع الطبيب، تتابع حالة عاليا..

يعدد لها الكوارث، واحدة تلو الأخرى، حتى كادت أن

تسقط من فرطها.

"آثار تعذيب تغشى جسدها بأكمله، كدمات وسحجات،

جَلد، علامات حول معصمها، تدل على تقييدها"

كانت هذه أخف الصدمات، أما أشنعها هي أن عاليا فقدت

للتو جنينها.

وهنا..لا مكان للكلمات..التبريرات.

لا مجال للخطب، إنما مجال الصمت، إستجداء التصديق،

ومن ثم التفكير.

تنظر يمينا ويسارا، لا وجود له.

تتذكر إقتحامه لغرفة عاليا بعد صرختها وطلبها للمساعدة،

كان يقف يلتقط أنفاسه وكأنه كان يتسلق جبل شاهق العلو

وليس درج قصير يصلهم بالبهو.

عبد الرحمن يحمل عاليا سريعا الى السيارة، بينما هو يقف

بعينين متسعة، يشاهد ولا يشارك، تهزه لتعجل ذهابهم إلى

المشفى وهو مخطوف بكل حواسه.

هو حتما في الجنازة، يدفن والده، بمشاعر لا تعلم ماهيتها،

ولم تسعَ لإستكشافها.

جلست على كرسي جوار عاليا الغائبة عن الوعي، بوجه

أنهكته التجربة قبل أوانها.

لقد شاركتها عالم النساء مبكرا..مقتحمة شرعيته بخطوة

مستهجنة.

من قد يضحك على طفلة في هذا العمر..!

من قد يتعامل معها بتلك السادية المقيتة..!

والأصعب من ذلك، لماذا إستسلمت عاليا..لتعذيبه..دون

أن تخبر أحد بما يحدث معها!

هداها عقلها الى اسمه "كمال"..أيعقل!

تتلاحق أنفاسها، ينعقد حاجبيها، ينبض قلبها مسرعا ليزيد

توترها وخوفها...

كيف ستخبر زوجها وهو على جنونه؟

هل تتستر عليها ..؟

قالت بهمسٍ باكٍ

"ماذا أفعل يا ربي..ماذا أفعل؟"

"قولي له الحقيقة"

نظرت حيث الصوت، جرت نحوه، ترجوه دعما تفتقده

تنتحب بين ذراعيه ويهدهدها كما يفعل دوما.

"أخبريه الحقيقة يا خلود، لا تكذبي، عليه تحمل مسؤلياته

كاملة"

يشرد ويردف

" مابال المال الآن لاينفعها.."

تزداد دموعها تجيبه

"لا تلقِ اللومِ عليه يا جدي"

"على من ألقيه إذن!"

تحرك رأسها بجهل، ودموعا باتت تلازمها قالت

"لا أعلم..لا أعلم"

شهقاتها أغاثتها من أسئلته، يربت على رأسها..

"إهدأي يا بنتي، أعلم ما تعانيه، لقد دخلنا بيت الأسرار

وعلقت أقدامنا، لم نستطع تغيرهم، ولا نستطيع تركهم، عاليا

أشفق عليها، لقد كانت صيدا سهلا لأحدهم"

أحدهم، أحدهم هذا ما أوقف نحيبها تشعر بالرغبة في قتله،

نظراته البغيضة للصغيرة، ضرباته المقيتة لمنيرة، رغبته في

إنتهاكها قبلا حتى ولو بالكلمات..حتما هو كمال...

أنّات توحي بعودتها للواقع، إهتزاز رأسها، دموع تتساقط من

جانب عينيها المغلقة، كلها دلائل على إستفاقتها.

ضغطت على يد جدها تناشده الرحيل ففعل..

بقيا بمفردهما..مسحت خلود دموعها تماما وتحلت بالقوة في

موقف لا يصح فيه الا الحزم..

"إفتحي عينيكِ يا عاليا، نحن وحدنا"

وكان الانفجار، بكاء صارخ، ارتفاع بطنها وشهقاتها الهيستيرية، تنتحب وتبكي نكبتها، عاليا الطفلة ماتت ودفنت، وبقيت عاليا المرأة، ذات الخطيئة التي لا تغتفر.

"من فعل هذا؟"

بصوتٍ حازم سألت...خلود

وببكاءٍ صارخ أجابت...عاليا

"كمال؟"

تزفر حمما باكية صاخبة فتابعت خلود بحدة

"كيف سمحتِ له بالإقتراب منكِ، كيف تركته يعذبكِ هكذا، لماذا خذلتِ أبيكِ وأخاكِ"

صمت قاحل، خالٍ حتى من صوت البكاء..

ثم كلمات صادمة، قد سمِعتها من قبل، لكن بانفعالات مختلفة.

"أنا لا أستحق السعادة يا خلود، أنا أستحق الألم..الألم وفقط"

لغط، تمرد، عرقلة، تردد، هذا ما أصاب خلود في هذه اللحظة وأفكارها، ألجمت كلماتها، وإنحسرت إنفعالاتها...

"لقد إغتصب أمي، هي لم تكن تريدني، لقد حاولت مرات عديدة الإجهاض، لقد وضع بذرتي داخلها في لحظة سكر إنتقامية، لقد دمر أخي، وتسأليني لماذا خذلته"

ثم صرخت بقوة لا تتناسب مع وهن إجهاضها

"لقد خذلني هو قبلا"

لقد ظنت خلود بأن المفاجآت إنتهت بحملها وفقد جنينها،

وسادية كمال، ظلت تعدد الصدمات، الى أن وصلت الى،

دمر أخي..هل تعلم عاليا ما حدث لطارق!

"لقد سمعتكما وأنتما تتحدثان، سمعت كل شيء"

سقطت خلود فوق مقعدها..

ما الذي يحدث !

ما هذا الخراب الذي خلفه هذا الرجل!

وسؤال أخير حائر...هل طارق وعاليا ضحايا..أم مذنبين!

تلملم فتات التعقل لتقول

"وهل من الحكمة أن تردي خذلانه بفعلتكِ، أنتِ أخطأتِ

في حق ربكِ أولا يا عاليا، ثم نفسكِ، ألم تتساءلي ما المخرج

مم وضعتِ نفسكِ وعائلتكِ فيه، ماذا عن طارق لو علم

بالأمر، سيجن بالتأكيد، ربما يقتلكِ ويقتله"

تبكي وتتوسلها

"وهل ستخبريه؟"

" وكيف سأخفي عليه أمر كهذا، ألا تعي في أي كارثةٍ

أنتِ!"

"أرجوكِ يا خلود، لا تخبريه"

عندها دخل جدها ليحسم صراع خلود

"أنا سأخبره إن لم تفعل خلود يا عاليا"

"أرجوك يا جدي"

كان توسل عاليا، ليجيبها

"لست أتشرف بهذا اللقب منكِ، لقد حذرتكِ من أفعالكِ

وطيشكِ مرارا، هل نسيتِ؟"

قالت بإنكسار، تبتعد بوجهها عنه، تهمس مؤيدة قوله

"لا، لم أنسَ"

أردف بقسوة إستغربتها خلود، لم تعهد جدها هكذا

"أنتِ لم تكترثي لمن حولكِ، لمن يهتمون لأمركِ، لأخيكِ

الذي يحميكِ ويحاوطكِ بالأمان، لقد خذلتِ والدتكِ

يا عاليا"

ثم أمسك بيد خلود يجذبها خلفه ويغادر...

خبطات كالمطارق في رأسها تنحت نفقا للتمسك بالوعي،

دموع جفت لترويها دموع جديدة...

نحيب ساخط على ما فعلت وعلى عقاب تنتظره وتخافه..

"أمي، لالا، لا، لقد تركتني، ليتها كانت هنا، لهونت علي ما

يحدث، لما كان حدث من الأساس"

تتذكر والدتها وحبها لها، دفء أحضانها، دموع عينيها كلما

أنجزت شيء طلبته منها..تهمس

"لقد خذلتكِ يا امي..خذلتكِ"

كانت تدور بين رحى أفكارها بين خوف وهلع وآثام متكتلة

تطبق على صدرها، لم تشعر بمرور الوقت، ولا تعي له

دقات..

تقف سلمى على أعتاب بابها تدلف إليها بخطوات ثقيلة

متمهلة، بعد أن تلقت إتصالا من والدها لتذهب إليها وتهتم

بها، وتعلم ماذا اصابها..

فعلمت وصدمت مما جرى لها فور سماعها تفاصيل حديث

خلود والجد معها منذ قليل.

الآن علمت من أين أتت بالجينات المختلة المنافية للعقل...

والدها يعذب طفلة تصغرها بسنوات قليلة..

يفقدها عذريتها وتحمل منه..

تمرر عينيها على جسد عاليا الهزيل الممدد أمامها، بينما

الأخيرة لم تشعر بدنوها منها بسبب بكائها..

تجلس جوارها، تمسك بيدها، برمشات محتدة من عينيها

تعكس توترها، لتلتفت إليها عاليا، ترتعش يدها التي تحتضنها

سلمى..نظرات سجينة، لمسات معتذرة، لا تعي أيا منهما

علامَ تعتذر..إنما يجمعهما إحساس بالسخط تجاه شخص

واحد..

تتفرسها سلمى بشماتة خفية، ترتب أفكارها..تتساءل..ماذا

لو أنجبت عاليا، سيكون الطفل أخيها...من صديقتها

الصغيرة..عشيقة والدها السرية، التي يمارس عليها جنونه..

اي عته هذا!

عينيها الحمراء، وجهها المنتفخ، وعقلها المتجمد، منع لسانها

من النطق بأي شيء، بينما تخبرها عيني سلمى بأنها علمت ما

حدث لها، نظراتها المشفقة تخبرها بذلك..فيشتد بكائها..

ليتها كانت صديقتها وفقط، ليتها ما قابلت أبيها، ليتها ما

تحدثت إليه، ليته ما إهتم.

***

طمأنته في الهاتف على عاليا، توسلها البقاء معها حتى وقت

العزاء ليلا، تنظر الى جانب وجه جدها الغاضب وتقول

"أقسم بأني سأخبره كل شيء، لكن ليس الآن، نحن في ظرف

عائلي علينا جميعا التماسك لنمر به"

قال بحدة

"نحن أمام مصيبة يا خلود لا تهاون بها، أنتِ تلعبين بالنار

وستحرقكِ، أخبري طارق وتنحي جانبا"

"أنا لا أضمن ردة فعله....."

صاح بها

"وماذا تنتظرين منه، أن يصفق لها ويأخذها بين ذراعيه على

فعلتها.."

قالت بإجهاد

"الأمر معقد يا جدي، أنت لا تعلم ..."

قاطعها شاردا

"أنا أعلم كل شيء، جميعكم بحاجة لإعادة تربية"

لم تؤاخذه على قوله..فما فيها يكفيها..

صوت طارق الجاف ضايقها، رضاءه بكلمات مستهلكة

تطمأنه عن عاليا قبلها دون مسائلة، يبدو أنه يعاني هو الآخر..وبشدة.

أغلق الهاتف معها، عائدا الى الفيلا، يتذكر رؤيته لعاليا والدماء تلطخ يديها ووجهها، لقد جن جنونه يظنها إنتحرت، يلوم نفسه مؤكدا على أنه هو السبب، فقد توعدها بالحبس..

وقتها لم ينتظر خروج أحد الأطباء اليه ليؤكد ظنونه بعد أن صاحبهم إلى المشفى، فانسحب بصحبة عبد الرحمن للذهاب إلى معركة أخرى..

يشاهد الوجوه الحزينة تعزيه في والده، بينما داخله متبعثر بمشاعر مختلطة..ولم يخرج من تلك الدوامة إلا بصوتها منذ لحظات يطمئنه بأن عاليا بخير، وسيعدن في المساء.

وعندما غادرت الشمس في يوم بارد، حل الظلام في ليلة

أشد برودة..الصقيع يزحف الى القلوب ليحاوطها..

والى الاطراف فيخشبها..

وكقطعة الثلج وضعت عاليا جسدها تعانق الأغطية ترغب في

دفن نفسها..بجسد متراخي وروح فاقدة للأنفاس إستلقت،

تملس موضع جنينها المفقود..

لا تصدق بأنها كانت ستصبح أم بهذا النقم الغاشم داخلها،

كانت ستُخرج للعالم آخر يشبهها وأخيها في سوادهم..محتقن

منتقم.. وربما هي أول من سيلاقي غضبه.

بينما دلفت خلود إلى غرفتها

"هل عدتم!"

وقفته خلف النافذة يتابع الأجواء بالخارج، أنبأتها بمعرفته

الجواب..

"كيف هي؟"

قال بحيرة، هو يتعجل الجواب، بينما الآن ليس الوقت

المناسب...

إقترب يمسك ذراعها بتوسل

"طمئنيني عليها يا خلود، هل حاولت الإنتحار، هل آذيتها؟"

توقفت حيرتها، ذبح هلعها على أعتاب خوفه عليها..

لم ترَ نظرات كهذه من قبل تغشى ملامحه..

ولا لهفة كتلك التي تملأ مقلتيه..

الآن أصبح خوفها مضاعف، فهذه اللهفة ستنقلب رجفة

وإنتقام حين معرفته بالحقيقة..

فتحت فمها لتجيب

"لا.. عاليا لم تحاول الإنتحار"

تزامنت إجابتها مع رنين هاتفه..كمال يخبره بوصول

شخصيات عامة للعزاء، وعليه الحضور على الفور..أغلق

هاتفه، يهم بإرتداء ملابسه..يخبرها

"العزاء للنساء في القاعة المجاورة لنا، إستعدي وسأرسل لكِ

السائق ليصطحبكِ، اتركي عاليا ترتاح هنا، وأنا سأتدبر

الأمر"

ألقى أوامره وهو يرتدي حلته السوداء ورابطة عنقه التي

تماثلها، ليقترب من الباب، ويذهب.

لم ينتبه لإجابتها وربما تجاهلها، أو ما يواجهه من فرط

إنفعالاته يشتته..تشفق عليه حقا، وعلى نفسها.. فكيف

ستخبره؟

عاليا، وطارق، كعينين في وجه واحد..أصبعين في يدٍ واحدة..

عملة صدأة، عباءة مهترئة، أرض خربة...

تحتاج للتلميع والإصلاح..

روحان تبعثرا، وتكدرا..وتعكرا...

فلا تكرير ولا تذكير ولا لملمة ستفيد..

بروح قانطة قامت تغتسل من تعب يومها، ترتدي ثياب

سوداء، في انتظار السائق، لتذهب حرم طاق الرشيد الى

العزاء.

***

قرط صغير للأنف يتدلى فوق شفتيها، حلق دائري تضعه

منتصف أنفها لأسفل، في حركة ماجنة مناسبة للموسيقى

المرتفعة التي تحاوطهم في حفل ميلاد دُعيت اليه بصحبة

ذلك المنطوي..

بعد أن اصابها الملل من رفقة صديقتها ورغبت في التجديد،

مشاعر ثائرة إنتابتها عندما تلامست ايديهم وضمها اليه

واضعا احدى يديه على خصرها، يلامس جسدها بجسده،

في جرأة مستهجنة على لقاء أول، حيث اللابداية، محاط

بجنون الزحام، وهوس التجربة...

لمسات أجرأ على جسدها وسط غفلة الجميع كلا فيما يملك

ومع من يملك..

ظل يراقصها ويبتعد..

حتى خفت صوت الالحان، ولا زالت حركاته أكثر جرأة..

تنحى قليلا ليفسح المجال لصديقه، الذي إنضم إليهم، هي لم

تفكر متى..؟.. لم تمانع أو تجادل..مكان متطرف على

الأرجاء..في البداية لم تفهم مقصدهم من التجمع حولها..لكن

مع لمساتهم التي استباحتها بشرة الذئاب، مع بعض النكات

الخبيثة، والصفعات التي ألهبتها..فهمت، ورغبت...

"ما رأيكِ في لقاء يجمعنا، أنا، وأنتِ، وهو"

إثارة وإغواء صوته كثعبان يتلوى ليحكم الإلتفاف حول

فريسته، فيمنعه التنفس، بينما المنطوي لازال على لمساته

هامسا

"في بيتي، أم بيتكِ؟"

تجيب بحماسة

"هذه المرة عندك، والأخرى عندي"

أعجب الشابان بحماستها، هي لا تعلم ما الذي سيفعلانه،

ولم تجربه من قبل ، لكن ..ما المانع!

لا تحتاج لشماعة الأخطاء المحطمة من كثرة ما علَّقت فوقها

من خيبات، ولا تبحث عن عذر، هي توقن بأن فطرتها

المشوهة ممزوجة بدمائها، ولن تتخلص منها بسهولة.

***

"البقاء لله"

كانت نسرين تصافح خلود فور دخولها، تعزيها في موت

حماها، تتذكر وجهها بوضوح رغم مرور عدة سنوات على

رؤيتها..لن تنسَ دعمها فور معرفتها الحقيقة وأنها ليست

السبب في موت والدها..

"كيف حالكِ يا خلود؟"

بجمود أجابت

"بخير"

"وكيف حاله معكِ؟"

علامات إستفهام وجهها حشتها لتردف

"طارق"

تتفرسها لا تستسيغ سؤالها تشعر بأنها تخفي شيئاً

"ما الأمر، وما شأنكِ به؟ "

تكلمت بجدية مباشرة

"جئت أرد جميلكِ في قضية المسنين، أنا أعلم بجهلكِ عمن

تسبب بزجكِ في قضية أبي، لأنكِ لو علمتِ لما تزوجته أبدا"

صدمة وحزن ما تعاقبا على وجهها متسائلة

"ماذا تقصدين يا نسرين؟"

"طارق الرشيد هو من أمر بجعلكِ كبش فداء للطبيبة التي

تسببت في مقتل ابي"

رفعت يدها نحو شفتيها تكتم شهقتها، ثوانٍ مرت عليها

بسكون وعيونها مهتزة تغشاها الدموع، غير مستوعبة ما قد

قيل للتو.

"هو من تدخل بسطوته لالقاء التهمة على ممرضة فقيرة،

كانت لحظها العثر من ضمن طاقم الممرضات يوم وفاة أبي"

زيف الحقائق، لأجل من، هو السبب في سنوات عجاف

قضتها بخزي وظلم طال سمعتها، زوجها الذي طالما حلمت

بأن يكون اسمها مع اسمه داخل قوس واحد ليغلق عليهما.

تأوه قلبها، تصدق نسرين لا محالة فتاريخ طارق مليء بما

تجهله، ولسخرية القدر تاريخ اسود.

لم تنتظر نسرين كلمات منها، يكفيها أن أخبرتها الحقيقة التي

ارقت نومها طوال الايام المنصرمة..رغبت بمهاتفتها ولقائها

الا أنها كانت عروس، وخارج البلاد تنعم بأجازة زواج مزيفة، مع رجل أخفى عنها مساوءه.

ترى نسرين تغادر، إلا أنها لم ترمش، وعقلها كما الحاسوب، يعمل بلا توقف، تغلق عينيها وتفتحهما على دموع غزيرة تتساقط متسابقة الى نحرها لتبلله.

يعزيها الجميع، فتتقبل العزاء برحابة..فقد مات للتو الجزء المتبقي لحبه في قلبها.

نساء يتشحن بالسواد ، لم ترَ دمعة واحدة تسقط من عين إحداهن، يتحدثن، ينظرن إليها، يحسدنها على مكانتها العظيمة بانضمامها لعائلة الرشيد وهي الفقيرة الكادحة، ويرمقنها بشؤم وجهها على العائلة، فتهرب بعينيها عنهن تواسي نفسها، هن لا يعلمن بأنه هو نذير الشوم الذي ظلل

فوقها، تحاول لملمة شتاتها، ورأب شروخها، فلم تفلح وعينيها

تغزل لها ينبوع من الدموع لا يتوقف.

وقبل منتصف الليل بقليل، بعد مغادرة الجميع، وافاها حيث

هي، متجمدة، متبعثرة، عيون حمراء، انف ملتهب، وشفتين

جافتين، ووجه بلا حياة.

"هل نغادر؟"

صوته الهامس لا يتناسب مع ما تعانيه من صخب..

ينحني اليها، يمسك كتفيها

"ما الأمر يا خلود، ماذا بكِ!"

كانت قد جفت دموعها، كما جفت الانفاس من حولها

لتبقى وحيدة معه.

يطالعها بشغف قلق..

تناظره بموت ينهشها ليتركها هزيلة بين كفيه.

"خلود، هل أنتِ بخير ؟"

وبصوت متألم أجابت

"نعم .. لا.. "

يبدو الأمر خطير، علامات الأسى على وجهها تلكم امعاءه

"عاليا، هل حدث لها شيء"

نحبت من جديد، تشهق

"بل..أنا.."

أمسكها يجلسها أمامه على إحدى كراسي قاعة العزاء

"أنتِ ماذا..تكلمي"

يمسد ذراعها محاولا بث الدفء في اوصالها..

بصوت واهن قالت

"تنحى عني، أنا أكرهك يا طارق الرشيد، أكرهك، أكره سلطتك وتجبرك وتسلطك، أنت من ألقيت بي داخل السجن"

بهتت ملامحه، سقطت أكفه عن كتفيها، بوغت مما تقول، ومن مصدر علمها...لقد علمت للتو فمن أخبرها.

ملامح وجهه المتغيرة مع كلماتها التي فاجئته، أنبأتها بصدق نسرين التام...

"تتحكم في مصائر العباد، هذا يسجن وهذا حر، هذا يعمل وهذا لا، ظلم، وقهر سنوات عشتها انت السبب فيه!"

قامت تتحرك أمامه مبتعدة عنه

"صك الفشل ومنعي عن العمل في أي مكان حتى مع ظهور براءتي أنت صاحبه"

"لم أكن أعرفكِ وقتها يا خلود ، لا تخلطي الاوراق"

صاحت غاضبة

"وإن كان غيري، أنت قادر على ظلم اي شخص، أنت لا تعلم شيء عن مدى إرتجافي وانا بين جدران سجن عفن بما يحويه، أصناف من البشر لم تمر علي يوما، لا أنام خوفا على جدي، ومئات الأفكار تحثني على الإنقباض والإرتجاف"

هدأت نبرتها ولم يخفت الألم

"أنت كنت سببا في قتلي عشرات المرات يوميا وأنا ابحث عن عمل أكفي نفسي وجدي به ولا أجد، يطمع بي هذا وذاك"

تهز رأسها بالتزامن مع بكائها، إقترب منها

"أنتِ تصوريني كوحش"

"أنت حقا وحش، لا يسيطر على نفسه او إنتقامه، وحش

يحرك الكون على رغباته، لا يهتم بمن يسحق، لا يرتاح ولن

يرتاح"

آلمته كلماتها، هي الوحيدة التي توجعه كلماتها كنصل

السيف، وهي أيضا التي يهتز لغضبها وسخطها...

"هيا لنعود الى المنزل، نكمل حديثنا هناك"

"لا، لن أعود"

أمسك فكه بكفه، يحاول السيطرة على إنفعاله

"أين ستذهبين!"

"أي مكان، بعيد عنك"

"لن تذهبي الى اي مكان، أين حقي عليكِ كزوجٍ"

"أنت لا تعلم من دينك الا قشور، جدل بلا نهاية، هل تعلم

حقوقي بالمثل، هل تعلم المصارحة وعدم الكذب، لقد

أخفيت عني الحقائق، تبا لك"

أمسك ذراعها بعنف

"كنتِ تحلمين بقربي، أليس كذلك يا خلود، ما الذي تغير؟"

تقاومه صارخة

"لم أكن أعلم مساوئك"

فلت غضبه من قبضته ليثور

"كنتِ تعلمين بعقدتي، تعلمين بغضبي وإنتقامي"

"كنت تنتقم من نفسك، رغبت في مساعدتك وجعلك تعود

عن طريق الانتقام والكره، اما الآن علمت بما فعلته لايذائي

وايذاء عمتك التي ليس لها ناقة او جمل في انتقامك...عن

عاليا..."

يضيق عينه، يضغط على أسنانه

"ماذا بها عاليا؟"

قابلت ثورته بثورة

"كمال، رجلك الاوحد، وساعدك الايمن، إستمالها حتى نالها،

قيدها، عذبها ..."

يهز رأسه نفيا غير مصدق قولها، يهزها بعنف وسرعة، تكمل

صراخها

"جلدها، خنقها، عاليا كانت حامل وأسقطت جنينها"

صرخة قوية فلتت من حلقه، وصفعة على وجهها أسقطتها

أرضا من شدتها، يقبض على عنقها

"كاذبة، أنتِ كاذبة، تنتقمين مني"

قالت من بين أنفاسها

"بل هي الحقيقة التي تتغافل عنها، كمال وحش يشبهك،

أنتما وجهان لعملة واحدة..."

تشهق مردفة

"أنت معمي عن الحقائق، كمال الذي يكن لك حقدا أراه في

عينيه ويشتعل به قلبه، انت لا ترى الا ما تريد ولا تحاسب

الا من تريد، ويخفى عنك الكثير"

رفعها اليه، يجذبها خارج القاعة، يتمتم وهو في طريقه الى

السيارة

"لنا بيت نتحدث فيه، سترين السجن الحقيقي جراء كذبكِ،

لن تغادري يا خلود وإن كان موتي هو ما يحول بين ذلك"

وضعها في السيارة ، آمرا السائق بالتحرك نحو الفيلا.

في عتمة الليل تجسد لها الاثنان، هو بقامته وجسده القوي

يجرها خلفه بهمجية وسطوة.

تراقبهما من خلف النافذة.

صوته صارِخ، غاضب، تتساءل هل أخبرته خلود

بمصيبتها...؟

يقترب من بابها يمر الى غرفته..

يفتحها ويغلقها سريعا..خائفة توجهت الى الحمام، وبسرعة

إقتحم غرفتها، يرى طرف ثوبها وهي تغلق باب الحمام

عليها...

يطرقه بعنف

"إفتحي يا عاليا وإلا كسرته فوق رأسكِ"

أجابت بكسرة

"لن أفتح، ماذا تريد"

حاول التمسك بكذبه، وكل الدلائل توكد قول خلود، إلا إنه

لا يصدق، وكيف يصدق بأن أخته الطفلة أوشكت على أن

تكون أم...

يتمسك بآخر ذرة هدوء يملكها

"هل إغتصبكِ كمال؟"

"لا، كان الأمر برضاي"

هاج وقد كسرت كلماتها أبواب تعقله، تصرخ من الداخل

"كان يهتم لأمري، يؤلمني، يخلصني من عذاب روحي وقد

جئت الى الدنيا مجرد خطأ، إنتهاك، إنتقام من أبيك، جئت

لأم ودت لو توأد خزيها بموتي.."

بكائها يصبغ صوتها لترتجف

"قيد يداي العاجزة عن فعل أي شيء، لسعني بسوطه وقد

كرهت وجودي في عالم أخشاه، خنقني بحبله يكتم انفاسي يتصارِع لسماع صرخاتي التي يستنطقها مني فتريح صدري بخروجها"

يسقط أرضا تزامنا مع سقوطها بالداخل

"لقد سمعتك يا طارق وانت تتحدث الى خلود، شعرت بتلك الشفرات الحادة التي تمزقك لأنها ذبحتني، ألمنا واحد، وجلادنا واحد"

"أنتِ تزيفين الحقائق، ألمنا ليس واحدا، أنا لم أفعل ذلك بإرادتي، كنت مكرها، إنما أنتِ من إخترتِ طريقكِ، اتعلمين قدر الخزي الذي اشعر به، تدركين كم مرة لمت نفسي على تقصيري بحقكِ، هل تعي آلامي وأنا أراكِ تنالين ما حرمت أنا منه، حلمتُ بالسلام، العيش بين أحضان أمي والبعد عن

كل شيء"

ثم بوهن وتراخي أسند رأسه الى الباب و أردف

" بينما حصلتِ أنتِ على كل شيء، لماذا فعلتِ هذا بي،

لماذا"

لحظات حاسمة من السكوت..كلا ينعي حاله.. ليقطعها

"إفتحي يا عاليا"

فتحت الباب الذي يفصلها عنه، واقفة تواجهه بينما هو

لازال على ركبتيه أرضا

"إضربني يا طارق، إجلدني كما فعلت مع أبي، حررني من

آثامي يا أخي، أقسم بأني لم أفعل ذلك رغبة مني في كسرك،

إنما في كسر ذاتي"

صدقا لا تقدر على الوقوف، تسقط أمامه، ترفع وجهه

بكفها

"إضربني، مزقني، لك كل الحق"

أمسك شعرها، يرفع بلوزتها ليرى علامات الجلد، يشمر

أكمامها ليري إحمرار معصميها، في لحظة بين الجنون

والسكون، يأسر عينيها بين سجن عينيه، يهم بضربها سخطا

منها وعليها فتواجهه بخوفه...

تلك النظرات الخائفة التي تشبه نظراته يوم إنتهاكه..لقد

توسلهم هكذا..

يراها نفسه، وكأنه ينظر في المرآة..

يلعن نفسه وشعرها بين يديه، في حيرة من أمره، أيقتلعه من

شدة حنقه عليها...

أم يجذبها نحو أحضانه يعدها بالأمان...

لازالت عينيه تحتوي عينيها، ينظر إليها بهلع..

يتركها ليفر وكأنها شيطان يخشاه...

يقف .. ثم يرحل..تاركا إياها بين دموعها، وحيرتها.

***

مؤلم هو، مكان تلك الصفعة على وجنتها مؤلم...

لكن ليس بقدر الألم الذي يتملك قلبها.. كم كان حلما

عابثا الزواج منه...

كم كان عالياً كطائرة حلمت بركوبها لتذوب بين السحاب..

فكان سراب..كما الدخان....

تمنت يوما الزواج منه، والإقتراب فقط في بوتقة عشقه، حتى

غرقت فيها وابتلعتها في قرار سحيق مظلم.

تلك الصفعة ذكرتها بمكانها..

وقدرها...

هي كزجاجة عطر يقتنيها ..

أو طوق حول عنقه يرتديه، لكن لا يخنقه، وينزعه وقتما

شاء..

سمعت صوت سيارته الخاصة..

لقد غادر..حاولت فتح الباب، كان مغلقا..

صرخت بأسم عاليا لعلها تسمعها..

ردت عليها الأخرى صارخة بأنها محبوسة بالمثل..

يبحثن عن هواتفهن في ذات اللحظة لم يجدنها..

فبات الحبس قسري وانفرادي..

تضحك خلود وهي تفكر...من ظنت نفسها لتعالجه، هذه

الكومة من العقد المتحركة كالأحبال التي إشتدت عقدها

فبات فكها مستحيلا...

كانت تحصي الوقت لزواجها منه، والآن لا تريد وجوده،

أو رؤيته، بات ظلامه ملفتا، يقهرها حالما نظرت اليه.

قاسي وظالم، لا يملك قلب، يؤذي من حوله جميعهم...

وكيف تلوم على من يؤذي نفسه متعمدا..

صوت الباب يفتح، جدها يدخل، تندفع نحوه لتصطدم به

بقوة

"جدي..حمدا لله..حمدا لله.."

"كنت بالاسفل فسمعت صراخكما"

قبلت يده

"علينا المغادرة من هنا.."

إستفهم قائلا

"لماذا نغادر.."

قصت له ما حدث في عجاله..صمت يفكر

"لن تغادري يا خلود، أنتِ الآن بحاجة الى التعقل"

إبتعدت عنه ملدوغة من رد فعله

"أنت من تطلب مني التعقل، لقد عانيت معي مما حدث،

سنوات ممنوعة من العمل، لقمة العيش بالكاد كنا نصل

اليها، فراقي لك بسبب سجني، بكاءك، ودعائك، نومي بين

معدومي الاخلاق والضمير، وتطالبني بالتعقل.."

بهدوء أجاب

"كل هذا قبل أن يعرفكِ"

"أنت تتحدث مثله.."

"أنتِ غيرتهِ، تمسكي ولو بخيط رفيع لشفاءه، هو غيرنا، لقد

تربى على الحرية التي لا سقف لها، على أخلاق غير أخلاقنا

شاب بيده تلك الاموال والسلطة، بلا اب يراقب او ام تذم

وتعترض.. إلتمسي له العذر يابنتي"

صاحت به

"وأنا..أنا من يعوضني عن أحلامي التي سحقها بحذائه، لقد

داس علي يا جدي ودمر مستقبلي.."

"بل بناه من جديد، وعلى أسس، أصبحتِ زوجته، وستكوني

أما لأولاده، ستغيريه للأفضل"

أمسكت رأسها متألمة من طول هذا اليوم.. ألن ينقضي..

"جدي أنت لا تعلم شيئا"

تكرر كلماتها عن جهله الذي يتمسك به

"يسعدني ذلك، فالزوجة الأصيلة هي من لا تخرج أسرار

زوجها لأحد، تعقلي، وأحفظي بيتكِ وزوجكِ"

تنظر اليه بإنهاك وقد جف حلقها من مناقشته..

ليمضي هذا اليوم أولا..وبعدها لتتحدث بفم ممتليء.

***

يسير بسرعة جنونية على الطريق، يتفادى السيارات القليلة

التي تسبقه وكأنه في لعبة إلكترونية يحركها بأذرعِ الألعاب

بمهارة...

يغلق زجاج السيارة بأكملها، ليختلي بنفسه داخلها بدون

ضوضاء أو مقاطعة، فقط الإثارة...والتي إزدادت بذلك

الإشعار الذي نبهه بوجود عطب ما في فرامل سيارته..

شيء جديد يفرغ به غضبه، ضربات قلبه تصل لأذنيه في هذا

الصمت والبرد، في ساعة متأخرة من الليل، ليس خوفا، وإنما

ترقباً.

بُسطت أوراق الماضي، خُطت بها آثامه، فبات طيها شيء

عسير، ومواربتها شيء أعسر، وجبت المواجهة والهروب الآن

يعد جبنا فليس هناك أسوأ.

يشعر بلهيب يذيب جسده، ونيران تنشب في أطرافه لن

تنطفىء إلا بحرق الجاني..كمال..الذي وثق به، أحد رجاله

إن لم يكن جميعهم، تسلل كالذئب لينال فريسته، يشعر

بكراهية لا نهاية لها تجاهه.

عاليا..لن يسأل عن لماذا وكيف بدأت طريقها..فهو الوحيد

الذي يعلم الجواب..عندما تسد الطرق، ويصبح الإنسان

حبيس أفكاره، ربما لو تشاركتها معه لأفادها...

ضحك بسخرية

"كنت لأفيدها حقا"

إزدات ضحكاته وهو يتفادى سيارة أخرى أوشك على

الإصطدام بها، مر وقت طويل على قيادته سيارته بنفسه،

إنها متعة حقيقية توقف عنها منذ زمن،

البراح..الإتساع..والأفكار..

جميعها داخل سيارته، البيت السريع الذي يحرره من ضيق

الأماكن وإن إتسعت..

خلود، سترحل لا محالة، ستتركه بعد أن ذاق حلاوة الإهتمام

والقرب، ستأخذ معها كل ما أعطته له من وهج...

من سيرتب أفكاره..

من سيبكي بين ذراعيها.. أو يعطيه الحب في وقته، لا يتأخر

ولا يتمنع ولا تقيده ظروف.

تنفس بعمق، يزيد من سرعة سيارته لتصل إلى القصوى..

فتح زجاج سيارته، إصطدم الهواء البارد برأسه، ثوان وبدأت الامطار في الهطول...

كل الظروف مناسبة لمزاجه المتقلب، المطر يعني الفرج، فما باله تضيق عليه الدنيا ولا تنفرج أبدا، تتوالى الضربات من جميع الجهات لتنهكه وتشل حركته...

عاش وحيدا لأفكاره وإنتقامه، تدور الدنيا حوله..و ...

سيارة كبيرة تحاول إجتياز ملف أمامه..يقترب منها بسرعة جنونية، الأمطار تعوق رؤيته .. و .. و ..

***

اتعرفين يا صغيرة أنك تكبرين

أنك تتجهين باكرا الى الحزن

إلى امرأة مهزومة قبل الأوان

مهلاً ياصغيرة

فى عينيك المتعبتين سهاد

وبقايا طفولة تقاوم لماتهربين

اسمعى الموسيقى تصدح لك

والشمس تومئ وأنت فى الظل تتكومين ترقدين فى الصقيع

وكأن منافذ الهروب قد أوصدت.

خاطرة بقلم شوشو حكايات فريدة

***

الفصل الثامن عشر

***

لم أحلم بهدية أحتضنها ليلا..

ولم أتمنى حيوان أليف يغمرني بوفاءه..

أنا.. فقط.. تمنيت الحب..

أن أكون البذرة.. أساس النبت..

وليس فرعا معوجا تآكل بذنوب من حولي.

***

تسير في الطرقات وقطرات المطر تضرب وجهها بفوضوية،

تمسح عنها الألوان التي لطخت وجهها..

تتذكر ذلك التدنيس والجنون الذي نالته منذ لحظات..

فقد هتكت قدسيتها مستوحشة الطهارة والفطرة النقية..

مارست الرذيلة مفعمة بوهج الضلال..يهتز جسدها الذي

عبثا به ببشاعة فجة وهي في طريقها لمنزلها الخاوي..

نزعت حلق أنفها مع آخر درجات السلم المؤدي اليه.

وعندما دخلت ، هاجمها الظلام ككل يوم، لكن الفارق في

تلك الليلة وجدته في الزاوية بإنتظارها..

"أين كنتِ لهذا الوقت يا سلمى؟"

أجابته دون إكتراث

"عند إحدى صديقاتي"

قال بعنف غريب عليه في معاملتها

"الى الآن! "

يشير الى ساعته، قوست فمها لأسفل، ترفع حاجبيها دون

إهتمام، تومئ برأسها بنعم ...

تغاضى عن أول خطأ إكتشفه منها ليردف

"هل زرتِ عاليا؟"

جلست على أقرب كرسي تجيبه

"نعم، لقد فقدت جنينها، وآثار تعذيبك تركت آثارا لا بأس

بها على جسدها"

إرتد الى الخلف ملتصقا بالجدار، تستعمره الدهشة، وبصوت

غير مبالي أكملت

"أتقبل جميع إنحرافاتك يا أبي"

تعقد حاجبيها بسخرية درامية، وتردف

"إلا أن ما المتعة في تقييد طفلة وممارسة ساديتك عليها"

لتنقلب ملامحها لمقت وبغض يقطران من بين شفتيها في

كلمات حاقدة

" ألا يكفيك أمي وما عانته معك!"

إنفرجت فتحتي أنفه يعبء صدره بالهواء، يضغط على أسنانه

ليسمعها تكمل

"تظنني حمقاء، كنت أستمع لصراخها وإستمتاعك به، لقد

شاهدت ما تخبأه بعيدا عن عيني بحاسوبك.. هل كانت

ترجوك التوقف بسبب حملها بي.. ربما!"

وتزيده من الشعر بيتا

"كنت أرى خبثك ونظراتك المتبجحة نحو عاليا وكثيرا ما

أخليت لك المكان، راهنت على تربيتها وعقلها الذي لطالما

زجرني عن الأخطاء لتسقط هي في خطأ لا يغتفر"

إقتربت من باب غرفتها لا تنتظر دفاعه، لأنها ببساطة لن

تقتنع، مهما ناظرها بكلمات رديئة لا تحمل معنى، ولن تحمل

مبرر قد يشفيها هي نفسها..

"كنت خائفة فقط من وجود أخت لي، كانت لتحمل نفس

جيناتنا، أنا وأنت"

ثم أغلقت الباب في وجهه...

تبدل ثيابها، تضع سماعات الأذن ،تستمع الى موسيقى

صاخبة، ترفع الصوت على آخره ليغطي على ألم مواجهتها

معه، ليت عقلها وعينيها ينفجرا فلا تسمع ولا تعقل غيه

وجنونه.

مصدوم، فتيل وإشتعل غير قادر على خفته، لا يسعه

التفكير، ابنته تعلم خباياه، منذ زمن، تنأى بنفسها عن

مواجهته..

وهو من فتح جراحها لتسيل دمائها من جديد..

سلمى وحيدته، التي يخاف ألمها ويربأ بها عن أي شيء يؤذيها

علمت بما فعله مع عاليا...

يمسك رأسه، لأول مرة يعجز عقله عن التفكير أو تلبية

أوامره في إيجاد مخرج...

قلبه يتألم لألمها وغير قادر حتى على إحتوائها، تحصَّن بغرفته

هو الآخر...

كيف يخبرها بأن أمها هي من دفعته لتلك القسوة بعد أن

حاول معها كافة أساليبه للإستمتاع بها.. ولم ترضخ، باردة كالثلج، تنفر من قربه.. إلى أن إنتهى بهم الأمر ذات مرة لكسر ذراعها من شدة إيلامه لها.. والأخرى تسبب لها في نزيف داخلي..

هي من حولته لوحش يستمتع بإيلام غيره بدون توقف ليتجرع متعته، كيف ينسى قطرات العرق الذي يبلل شعرها الأحمر المتوهج ليلتصق برأسها تتأوه وتطالبه بالتوقف فيستثار وقد حولته من بليد إلى منتشٍ حامٍ يمعن في إيلامها علها تسعَد مثله وتشعر به ..

كيف ينسى إجبار إخوتها له على تطليقها منه بسبب ما تناله من قسوته وهو يعشقها..

"لن ننتظر حتى ترسلها لنا جثة بلا حراك"

يدفعونه دفعا إلى الخارج، يمنعوها عنه حتى ولو بنظرة وداع..

تاركا طفلته بسنواتها العشر خلفه.. مبتعدا بعد تهديد آخر من إخوتها

"أقسم أن أذيقك سجنا بعيد الأجل لن تخرج منه الا كهلا غير قادر على حك رأسك"

يكفيه ما ناله من تقريع بسبب زواجه منها..

وهو الأقل شأنا.. الأقل رفعة.. ليسخط على كل ما يقرب لها.. حتى وطنه.

لقد حارب لإسترداد سلمى بعد موت أمها لتكون تحت وصايته، فلن يخاف عليها أو يحميها أحد سواه، فكانت كل عالمه، يجمع المال لأجلها، يفسح لها المجال كي لا تشعر بقيد أو سجن..

يخفي عنها جانبه الأسود حتى لا تكرهه..

ينزوي بعطب روحه.. وشحوب رحمته كي لا يخيفها..

ينظر الى المرآة ليرى نفسه على حقيقتها، ويرى حقيقة أخرى

خلفه، تنعكس صورتها في المرآة...إلتفت اليه يهمس بخوف

"طارق"

دفعة قوية ألصقته بالمرآة لتتهشم، قبض طارق على مقدمة

قميصه يجذبه اليه ويقربه من أنفاسه

"هذا هو رد الجميل"

يمسك رأسه يدفعها الى الحائط بقوة فيدميها، وبصوت حانق

ينهج يشير الى قبضته

" تلك التي ساعدتني في تقويتها بين الصخور، ستكون أشد

من المطارق فوق رأسك، لقد إنتهكت بيتي وتعديت على

عرضي، سأخبرك اليوم من هو طارق الرشيد"

يفرد ذراعه يثنيها الى الخلف في درس لن يغيب عن باله

يوما.. يستمع لصوت تكسرها، يكرر ما علمه اياه كمال في

أول مناهج العنف التي درّسها له.. يضربه أسفل ذراعه

فيصرخ كمال متألما بصوت خشن جهوري.. يهمس طارق

بالقرب من أذنيه.. يذكره بكلماته

"أعلى، أصرخ بأعلى صوت، فأنا لم أتلذذ بعد"

بيد تستطيل مرتعشة يجذب قطعة زجاج مدببة ليجرح جانب

جسده بحدة ليبتعد طارق فور تناثر دماءه، فيتركه كمال يدور

حوله صارخا

"كيف نجوت!"

يقف كالثور غير متأثر بجرحه، فتلك المناوشات لا تثقله..

يتطلع اليه، يتحين الفرصة للإنقضاض عليه من جديد

فعاجله كمال بضربة خلف ركبته ليسقط طارق أرضا

"المرة القادمة سأحرص على تفجيرها نهائيا يا طارق، لن تقوم

لك قائمة، أختك وقد جردتها من برائتها وأصبحت جلادها،

وزوجتك سأنالها برضاها أو غصبا عنها، وسأستلذ

بصراخها.."

نزل إليه أرضا.. يستطرد بكلمات سامة تحرق رجولة الآخر

"أخبرني، كيف كانت بفستانها المتوهج"

كمن يسقط من فوق قمة باردة ليلتهب بدماءه فور ارتطامه

بالأرض، يتذكر يوم عودته من الساحل وشراءه لفساتين

كثيرة.. كانت تنزع وتبدل بطلب منه..

بفم مدله، وقرع مدوي كانفجار المناجم يتذكر كلماتها

"هل هذه كاميرا، في غرفة نومنا..؟!"

وعندما أوشك على الرد عاجلته صارخة

" أغلقها يا طارق.. الآن"

غليان أطرافه، واشتعال صدره ما بقي له من الذكرى، لقد

شاهد زوجته تنزع لباسها، تتعرى أمامه، يداعبها وتنزع

سلساله، تتنغنج بين يديه وتتفلت منه، لقد إنتهك أخته،

وتجسس على لحظاته الخاصة.. أي شيطان آواه في حياته،

وأي أفعى كبرت واستفحل سمها بين عائلته..

ينشب قبضته حول رقبة كمال كسهم إنفلت من قوسه

ليغرس في جسد مسموم رغب في تمزيقه..

يعافر كمال الموت بين بيديه.. ليضرب جرحه بقسوة فلا

يتأثر طارق ولا يفلته وقد إشتعلت جذوة إنتقامه..فبات

يسدد لكمات لا يعي موضعها ولا تأثيرها على خصمه وهو في خضم غيرته وحقده على من إخترق أنظمة أمانه وهو مؤتمن..

يبث سمه بصوت مختنق..

"لتستمع اليّ جيدا، حتى جد خلود لم يسلم من دائرتي، هذا العجوز المتهالك ذو النصائح المقيتة، هو من حقن والدك بدواء جديد رغب أيمن في تجربته على من هم في مثل حالته، وباءت تجربته بالفشل"

أرتخت أطرافه، تتحرك تفاحته يبتلع ريقع ويلتقط أنفاسه، وقد أقحمه كمال في مرارة جديدة لتحيل روحه الى شظايا متناثرة..ليقوم كمال مهزوما مكسورا.. يطعنه بآخر ما يملك ضغينة..القتل..

"أيمن!"

بسط طارق يديه على الأرض ليستعيد وقفته مترنحا، متمهلا

في الفهم، والده مات بيد جد خلود

"إليك المثير في الأمر، عاليا من أوصلت الدواء الى غرفة

والدك"

هو الآن يصارع الجنون، كل هذا الشرور يحمله بين جنباته ولم

يره يوما، هل كان كمال بهذا الذكاء ليخفيه، أم كان هو

بهذا الغباء كي لا يراه..

يشاهده ساخرا منه يشعل سيجارته بيده السليمة بينما

الأخري مفرودة على جانبه لا يستطيع تحريكها، صمت لا

يميزه سوى دخان إحتراق سيجارته وطلقة إستقرت في فخذ

كمال أسقطته أرضا، والثانية بالقرب من قلبه...

اقترب طارق ببرود نحوه يلصق فوهة مسدسه على

جبينه...يقول

"سأجعلك تتمنى الموت .. ولن تناله"

ثم ركله في صدره ليسقط برأسه على الارض، والدماء تنفجر

من جسده، وبقفزة سريعة تخطى طارق النافذة متسللا للنزول

كما صعد...

مغادرا ساحة القتال، يعد بالعودة عن قريب.

***

يقترب منها ومياه الأمطار تتساقط من ملابسه، مغلقة

العينين، يلامس وجهها بأصابع متمهلة، كل ما يرجوه الآن

إحتضانها كالجياع يلتهمون ما يُشبعهم ، لقد أشقاها معه منذ

إلتقى بها وقبلت العمل لديه..

تخيلها فقيرة .. عاملة .. لم يتخيلها يوما زوجته، يجمعهما

سرير وغطاء، يطبع قبلة على وجنتها، يواسي بها شغفه..

يدلف الى حمامه، ينزع ملابسة التي تصبغت بدماءه، مياة

باردة تجمد أوصاله في هذا الشتاء، تُبرد اشتعاله وتُهدأ ثورة

انتقامه، لقد كان قاب قوسين أو أدنى من موت محقق

.يتذكر لحظات الإثارة تلك.. سيارة ضخمة وأمطار تفاداها

بانحناءه بسيطة بسيارته، ليكمل طريقه الطويل يقلل السرعة

ببطء وحذر، يعترف بأنه أمضى الكثير من الوقت يقود بكل

جوارحه، يفكر فيمن سيؤذيهم بموته.. فكلما اقترب من

النهاية.. فر بابطاء سرعته..خلود لا تستحق موته.. ولا

عاليا، وحتما كمال..فمن سيستوفي ويقتص منه ديونه.

يدلك جسده برغوة قوية تزيل أثر الدماء عن يديه..

وصدره..

ينتفض تحت المياة الباردة..

بأنفاس متلاحقة تبقيه على قيد الحياة...

يشعر بلذة الهزيمة المؤقتة التي حققها على كمال..

يقبض على قطعة قطن وضمادة أحكم وضعها على جرحه

بعد أن نشف جسده جيدا..

يخرج مقتربا منها، مستلقية على ظهرها، نائمة بعمق

أزاح عنها الغطاء ليندس جوارها، يقبض على خصرها بيده،

يضع رأسها فوق صدره..وينام.

تململت في نومها فوق شيء صلب، تتمطى لتصطدم بذراعيه

تكبلها، أنفاس رتيبة ثقيلة وكأنه ينازع الموت...

أوقدت إضاءة خفيفة مبتعدة عن ذراعيه تهم بالقيام، طالعته بغضب، وتلاقت عيناها بندوب وجهه وجرح يلامس بطنها في جانب جسده..

حرارة مرتفعة..وجه شاحب، جسد متراخي واهن...ودماء تغطي ملابسهما.

هبت مسرعة نحو الأدوية التي تحتفظ بها بغرفتها...

إسعافات طبية سريعة...

تعقم جرحه، تقطبه، تلامس جسده الملتهب وكأنها بجانب مدفأة تشع حرارة فتتعرق من شدتها...

"ما الذي فعلته بنفسك هذه المرة؟"

تنظف حوله، وقد كست دماءه أغطية السرير، الفجر لم يحن بعد، تحاول جذبه كي تزيل المفارش، جسده الثقيل يمنعها عن

زحزحته..

مرت الدقائق بثقل المترنح سكرا...

حتى إستمعت لهمسه

"إمنحيني الحب، ليوم واحد يا خلود"

تمسك كفه، ليت لديها القدرة على كرهه، لتركته الآن، الآن

وبلا تفكير وقد عاد لايذاء نفسه...

لا..لا.. هذه ليست ملامح إيذاء النفس، فالجرح غائر،

وكدمات وجهه كمن تلقى لكمات، ترى مع من تشاجر!

أمسكت رأسها بيدها الحرة تكرر الأسم في رأسها..كمال...

ألا لعنة الله على هذا الشخص...

تتمنى يوما تسطع به الشمس ولا وجود له...

همس حارق ينبعث من شفتيه بحرارة تذيب عروقها

"خلود .. خلود"

تأوهاته تشل حركتها وتفكيرها، منشطرة بين تعاطفها معه،

وحنقها عليه، بين رحيل مؤكد، وبقاء مؤلم.

تحبه هي، تعشقه، بخطأه وصوابه...

تعشق عقده..التي قيدتها معه..

تكره قوته التي يوجهها نحو الخطأ...

لا يصوِّب بل يسحق...

في طريق المنتصف بين حبها له وكرهها لأفعاله...

عالقة بين بقائها حوله لتجعله يتمسك بالقشة الأخيرة من

إنسانيته..وبين رحيلها عنه ليسقط عنه آخر شخص قد يهتم

لأمره...

"خلود"

إسمها هذه المرة لم يكن هذيانا، بل نداء من رجل أستفاق للتو

وكان على شفير الموت...

بحشرجة كست صوته قال

"إقتربي"

فعلت، جذبها الى صدره فإستكانت عليه

"هكذا أُشفى، أنا أحبكِ يا خلود.. أحبك..ِ.أسألكِ بالله لا

تتركيني"

تدمع وهي تربت فوق ضمادته

"ليس وقت رجاء يا طارق لقد حُسم الأمر"

يستنشق شعرها إكسيره، متهالكا يقول

"أمهليني فرصة واحدة أشرح لكِ ما حدث"

بللت صدره، ترتعش رأسها.. تحركها بالرفض

"كنت حانقا عليّ وأنا أكشف أسرارك، الواحد تلو الآخر"

إرتفع صدره بأنفاسه، يحمل وجهها

"كنت سعيد بذلك رغم خوفي عليكِ من الإنغماس في

سوادي وقسوة عالمي"

"هذا العالم بسواده وقسوته أنت من صنعته، ولا زلت سجينا

له، مقيدا بين مرارته"

كلمات متراشقة بهدوء ناعم، يسهب كلا منهما في جراح

الآخر بلا تهاون، بفوضى كللت أرواحهم، لا يعلما طريقا

للبداية

"كمال أفسد فرامل سيارتي الخاصة"

شهقت تنظر اليه بعد أن أبعدها إنفعالها عنه، تمر على

كدماته بعينيها بتساؤل فيجيبها

"لقد ذهبت اليه، ونلت جزء يسير من حقوقي"

لم يفصح عما فعل، متألما من جراحه

"أشعر بصداع"

"سيمر، لقد حقنتك بمسكن، وقطبت جرحك"

"ليتكِ قادرة على تقطيب روحي يا خلود هكذا.. ليت لها

جلد يمكننا جمعه، أو شريان يمكننا وصله، ليتها شيء مادي

باستطاعتنا مداواته"

تهم بالقيام، وكلماته تؤجج شفقتها وعطفها نحوه، أمسك

كفها يسألها التمهل

"لا ترحلي، أرجوكِ"

"لقد تألمت، صدمت، أنت فعلت بي ما لن تشعر به ابدا،

أنت ظلمتني يا طارق، لا تعلم عن هذا الشعور شيئا"

أشاح بوجهه عنها يقول بغصة، بعد أن عانقته كلماتها بقسوة

"بل هذا الشعور خلق لأجلي"

دائرة أخرى يجعلها تدور بها، من منهم يئن أكثر، من منهم

يملك الدواء، من منهم عليه البدأ بالإقتراب وتقديم

تنازلات..

ستنسى ما حل على روحها وصدَّع راحتها، رايتها التي

نكَّسها في سجن مارق يجمع الصالح بالطالح.. برودته التي

نهشت جسدها وأكلت عنفوانها وكسرت قامتها لسنوات

تتلظى بعقاب ليس لها..؟!

افسحت عن كلمات مماطلة تكسب بها أرضا

"إمنحني الوقت، لابد أن أبتعد، لن أستطيع المكوث في

مكان به جلادي"

"لقد طببتِني! أليس هذا لأجل حبكِ؟! ألست أنا جلادكِ؟"

يلعق شفتيه يبللهما بتعب

"لأجل حبكِ إبقي، خلود أنا أحتاجكِ"

يحشرها في الزاوية كعادته، يتوسلها، يراهن على حبها له، تبكي من ركضه خلفها وتمسكه الشغوف بها.. يتضور قربا لها.. فتسحق آماله بكلماتها

"لأجل حبي لك يا طارق إتركني أبتعد، أرجوك"

ترك كفها على مهل، بهدوء قتل ما بقي له أمل في إستدرار عطفها.

"كما تشائين، لكن لن أترككِ كثيرا، وستكوني تحت حمايتي، فالأمر لم ينتهِ مع كمال بعد"

أوشكت على المغادرة، ليقول من أعمق نقة في قلبه

"خلود.. أنا أحبكِ، لن أتركِكِ، إبتعدي كما شئت لكنكِ

ستعودي.. حتما ستعودي"

تبكي من كلماته، متأثرة بجراحه، هو يحتاجها..

وهي تحتاج الفراق..

كيف تعطي وتمنح بسخاء.. وهي مذبوحة!

تهبه ما يرغب وهو سلب منها يوما أعز ما تملك..

الأمان الذي عوضها عن الفقر وضيق الحال.. سلبه منها

ليجامل من هم من طينته..

بينما هم من أصحاب الطين القاسي الجاف.. يمكن للأرض

أن تبتلعهم وتدفنهم دون أن يشعر أحد بغيابهم.

***

يومان مرا عليه كأنه بكهف مظلم خانق، يصارِع كوابيس

الماضي والحاضر، يحصي كبواته وغباءه المنقطع النظير.

كيف يأمن كمال على أخته وهو من ذاق الأمرين من أقرب الناس إليه، كيف إغتر بماله وسلطانه بأنه قد يخيف أحد ككمال..وكوابيسه جميعها حول..لماذا!!

لماذا يخونه..يرغب فيما يملك..يطعن عرضه..يدمر حياته؟!

يبتسم والتساؤلات يعقبها أخرى تجيبه بسخرية..

ولماذا اغتصبه أباه..؟!

الى متى سيظل جدارا منخفضا يثقله الجميع بضربات تزلزله..

الى متى سيحيى معصوب العينين عن الحقائق..

متى ستنقشع تلك الفقاعة السوداء التي تحاوطه وتنفجر ليسقط على أرض الواقع المليء بما هو أعجب وأغرب مما حدث معه..

يتناول دواءه..يزيح أغطيته التي ابتلعته ليومين طوال..

عاليا لم تزره أو هو من يجمع شتاته، ليس هذا المهم..المهم أن

يجد حل سريع لما يحدث معهم..هو..وهي..

يغادر غرفته إليها، يرجو بناء ما كان سببا في هدمه..يقرع

بابها..يدلف إليها..

كالأموات تناظره، وكالمتعلق بقشة الحياة يطالعها..

مستلقيه، تحتضن وسادتها..

يستلقي جوارها..يضمها اليه، يهدهد شعرها..يمسد

ظهرها..ترفع رأسها إليه حالما شعرت ببكاءه..تحتضنه، تشعر

بضمادة كبيرة تحت فانيلته الخفيفة..

"ماذا حدث لك؟"

يمسح عينيه وشعره بحركة واحده

" لا يهم.."

"هل تؤلمك؟"

يمعن النظر بها، يجيبها

"هناك أشياءً أشد ايلاما من الجسد يا عاليا"

تستند الى كتفه..تستمع إليه

"هل ابتزكِ كمال من قبل؟"

ذكرى بعيدة قابعة في مخيلتها، وقد بدأت أجزاء من الحقيقة

تتضح أمامها

"لقد كنا نلعب الورق، وكثيرا ما يفوز"

يغمض عينيه يفهم حيلته، يرتبها، يلفظها

"إليكِ خطة كمال، لتعي في أي وحلٍ سقطتِ..أولا يجذب

إهتمامكِ باللعب أو ما شابه، يتقرب اليكِ بمكر ذئب، ومن

ثم يخلع رداءه كما فعل في القصة الشهيرة ذات الرداء

الأحمر"

تبتسم وهي تتذكر هذا الفيلم، وقد شاهدته بصغرها مع

والدتها، لكنها لم تتعلم منه شيئا

"كمال خطط لقتلي..كان يرغب بنيل كل شيء عن

طريقكِ، ربما بحملكِ، أو بفضيحتكِ، بموتي ستكونين له

بالكامل، أنتِ والمال"

تختض بين يديه وهو يلقي على مسامعها ما لم تفهمه، كثيرا

ما كان يسأل عن أخيها وهي تجيبه، يبث السم بينهما وهي

تلتقمه بسذاجة..يشتد نحيبها على كل مرة انقادت نحو

هوته، تلعن نفسها على لحظات كرهت فيها أخيها وخلود..

"لقد انتهينا يا عاليا.."

يشدد من احتضانها، يؤجل أمر موت أبيها لحين تأكده من

قول ذاك المحتال، ربما أراد إثارة غضبه وفقط، يردف

"لقد انتهينا من كمال وغيره، لن تأتِ على سيرته مجددا، لن

ترينه مرة أخرى، لقد إستغلني وإياكِ"

يهزها يتأكد من متابعتها حديثه

"إغفري لي تقصيري معكِ يا عاليا، كنت أحسبني بمراقبتي

لكِ على الدوام بأني أحفظكِ، لهاني انتقامي عنكِ، أنا ألعن

غبائي ألف مرة..كيف وثقت به، كيف أئتمنته عليكِ"

تشعر بنبضاته وغضبه من اهتزاز جسده، يبكي وهي

كذلك.. حتى شهقت متأثره..تقبل يديه

"لا، لا يا طارق لست أنت السبب، أنا من اخترت طريقي

يا اخي وضللته..أنا من خذلك ومن قبلك أمي، لم تكن

لتنتظر ذلك مني..، أقسم بأني لن أعود لما فعلت مرة أخرى"

تقبل يده الأخرى وهي ترى دموعه تتسابق، لأول مرة تراه

بهذا الضعف والامتهان، هي حقا خذلته، دمرته، ورقصت

فوق أحزانه بدم بارد مع خادمه..

"كمال بغيض، مريض..حان وقت تعرفكِ على البشر

وأصنافهم"

تقول بندم

"لقد تعرفت على أسوأهم"

يمسك وجهها يمسح دموعها لتراه بوضوح، صورة منهكة له

إنما واضحه لا تغشاها الدموع.. لقد اعتلى سماوات الحزن

السبع فما ضره لو صحبها ليعتلي سماء واحدة نحو

السعادة..

"منذ الغد سنذهب سويا الى طبيب نفسي، نعري أرواحنا

أمامه بغرض الشفاء يا عاليا، سنثابر، سنواجه أخطائنا لن

نهرب منها، سنداوم على الجلسات والعلاج تشبثا منا في

حياة سوية..لن نمل..لن نغادر في منتصف الطريق ..نحن

نستحق النجاة"

يمسح على شعرها بحنان ويردف

" لتفخر بنا أمنا"

وبذكرها طابت الانفس وتطهرت بدموعهم، لقد زرعت

والدتهم واستثمرت بهم، مهما ضلوا سيعودوا..

"وعمتك!"

يجيبها

"ما بها"

"هل ستنتقم منها مجددا؟"

يأخذ نفسا عميقا فتقاطعه بخجل، لا تريد أن تنكأ جراحه

" لقد كانت تبحث عن زوجها انتقاما منه وليس حبا فيه،

لطالما استمعت لوعيدها له وهي تتحدث الى أمي ولم أكن

أفهم"

تضطرب انفاسه..حسنا، حقيقة أخرى تؤكد على غباءه..لقد

سامح عمته حتى ولو كانت تبحث عن زوجها محبة، هي في

النهاية ليست سببا، ولا تملك في هذه المعركة جريح..ولا

يخصها فيها نصل دامٍ لم تحمله.

"كل ما مضى لن نتحدث به مرة أخرى يا عاليا سوى

للطبيب، فهمتِ"

تطيعه مجيبة

"أجل..فهمت"

***

تتداعى أمامه تلك الصروح العالية التي أفنى حياته لأجلها، متشبث بالمنطق والعقل، منحته خبرته في الحياة، والكثير مما مر به صلابة لتحدي العوائق..

والآن يقف عاجزا أمام مجموعة من الأطفال مهما كبر عمرهم، لا يملكون خبرة ولا قوة لمواجهة الحياة المتحجرة بجمودها.

"لقد أوصلتها وقضيت كافة متطلباتها، لا تقلق عليها"

يتمشى أمام الفيلا بصحبة عبد الرحمن، الذي بات ملازما له، يفضفض معه بكلمات لا يستطيع كتمها

"لقد عاندتني وزوجها، وتركته وهو على هذا الحال وحده"

لم يجد صدى لكلماته فأكمل

"لقد أيدها في قرارها ليرفع يدي عنها"

يتقبل ضربة الهواء القوية بصدره الضعيف فيسعل بشدة..

" سأتوقف عن منح إرشاداتي للجميع، طالما لا يلتفتون إليها،

لا يسعني الآن سوى المشاهدة فقد أصبحت زوجته تأتمر

بأمره"

يخفي سخطه من طارق لما فعله بعمته، وبما نال خلود من

جبروته، يلملم ما تبعثر خلفه، يرتجي عودة وإنبعاث له من

عالم الاموات.. ربما يحطم تابوته ويغلق قبره فارغا لينجو

بنفسه.

يركل عبد الرحمن التراب تحته ويقول

"لا تظن بأن كلماتك غير مؤثرة، سيحتاجونها في وقت ما،

هكذا أنا اتذكر والدي ونصائحه، أفتقد كلماته القوية

ومساندته لي.. وأرغب لو كان أمامي لأخبره بأنني أغلق

الأنوار والتلفاز قبل نومي، أقبل يدي أمي كما كان يأمرني..

أهتم بأختي وأستمع لثرثرة ابنها، ولقاء الجمعة يعد مقدسا

لالتفاف الأسرة حول طاولة الطعام.. و.. "

يحتضن ذراعيه يقي صدره ضربة هواء جديدة، يستمع لآخر

كلمات عبد الرحمن..

" لقد إشتقته..! "

هل ستشتاقه خلود بعد موته هكذا، أم ستتسلح بعنادها

الدائم وغضبها المحلق فوق أنفها وعدم صبرها..

ستتذكر نصائحه..كما يفعل عبد الرحمن الآن مع والده..

تدمع عينيه تأثرا.. ولا يلحظ الماكث جواره الذي يعبر قنطرة

ذكرياته مع والده.. يسأله

" هل تريد إيصال شيء إليها، سأقوم بتوصيل بعض الحاجيات لها"

يحرك رأسه..

" لا"

يستمر في السير وحده، يلحق به عبد الرحمن..

يفكر في حالة طارق التي توحي بمواجهته لكمال، والا ما سبب جرحه، خلود لم تتحدث اليه، كان قد أعطاها مفتاح شقتهم القديمة بعد أن إستردها من أم محمود ذات يوم.. وها هي تذهب اليها بدونه.. تطالبه بالمكوث مع زوجها فهو بحاجته.. ليتدخل هذا العنيد بمكالمة يطلب فيها التنحي عن قراراتهم.. مطالبا إياها بانتظار السائق فهو في طريقه اليها

ليوصلها حيث شاءت..

***

يشعر بالعناء لمجرد وجوده في مقر عمله، يخشى مواجهته بعد ما فعله بالاتفاق مع كمال..

مستاء من السير خلفه وتوريطه في أمر يخص الرشيد..

"لقد أخبرني عن الدواء الذي صنعته، وقمت بتجربته على أبي"

يهز قدمه من خلف مكتبه، لا ينتظر طارق إجابة منه، بل يريد أن يستصغره ويقلل من شأنه، هو لا يهتم لموت والده على أية حال، وانما ما يؤرقه هو تحالفه مع كمال..

"أنت لم تهتم لوالدك يوما يا طارق، لقد كنت تعذبه بيديك"

عاجله بحدة

"هل كمال يعلم بما حدث لي، هل أخبرته بشيء يخصني"

أجاب على عجالة، يحتضن مكتبه بذراعيه

"لا، أقسم بأني لم أخبره، لقد سألني مباشرة عم تعاني ولم

اخبره..إنه عملي وأسرار مرضاي"

يسخر مبتسما

"حسنا فعلت"

يقف مستلهما، شاردا..يلوح بكفه

"لماذا أبي؟"

"كمال من اقترح ذلك، وعندما أخبرته كيف سيقوم به

طمئنني بأن الأمر سيتم في سرية تامة"

خبط على مكتب أيمن بقوة لينتفض الأخير، يصيح به

"لقد جعل عاليا توصل الدواء الى جد زوجتي ليقتله"

"نحن لم نكن نعلم أثره يا طارق"

"أنت تجاوزت حدودك معي يا أيمن، كيف تجرؤ وتقدم على فعل ذلك"

يقف يراضيه بخوف

" لم أكن أعلم بأنه سيضع الجميع في دائرة اتهام.."

يراه غاضبا، ينظر اليه باحتقار

"توخ الحذر، فأنا لا أترك ثأري كما تعلم، مهما طال الوقت"

يحاول تضخيم صوته

"لقد حفظت سرك لأعوام، جئتني تنزف دما وعالجتك دون سؤال"

"وقد منحتك ما تريد من مال، واستثمرت في ابن الرشيد جميلا رده اليك حالما احتجت"

يفرد ذراعيه

"ومن ثم طعنته وذبحته كشاه ضعيفه غير قادرة على أخذ

حقها، أنت استهنت بي يا ايمن، ركضت خلف مكتسبات

وهميه أغراك بها كمال، أنت لا تعلم ما الذي زججت نفسك

فيه"

يسير بعنف نحو الباب مغادرا، يرتعد الآخر خوفا من انتقامه،

فهو أكثر من يعرف طارق وغضبته..

يستوقفه، يمسك كتفه

"أرجوك يا طارق، فلنحل المسألة بهدوء"

يدفع يده بقوة،ليتهدل كتفه

"أنت من بدأت، وعليك تحمل نتائجك"

يراقب تأثير كلماته، ليسأله

" هل تعرف مكانه؟"

تردد ما كسى محياه..

"أليس في بيته؟"

"لقد مزقته منذ أسبوع، ورجالي لا يعرفوا عنه شيئا منذ وقتها، اقتحموا منزله ولم يجدوه، إن كان حيا فهو بحاجة لعناية طبيه، بالضرورة سيلجأ اليك"

أيمن طبيب، وكل ما يهمه هو سمعته، يجب ألا تدنس بالقيل والقال، هي أغلى عنده من المال والولد، لقد كان بحال يرثى لها يوم ادينت أخته، وبذل الغالي والنفيس للتستر على خطأها..

"سأخبرك إن اتصل بي"

نظرة دونية ما نالته من طارق وهو يغادر، يعده بخراب قريب.

***

وقلب يصرخ بالآهات..

يحلم بحنان وأمان...

يأمل مرسا مأمون..

لروح مقهورة...

وجسد مغصوب..

وعقل محجوب..

ومنطق محظور..

يحلم بشفاء لجروح...

فالوجع يشق الصدر وويغض الطرف عن المشهود.

والصرخات بداخله تشتد وتريد البوح عن المحظور.

فالقلب يضيق ويأبى العيش فهو مقيد كالعصفور.

والروح تهتف أين الفرج وأين المخرج؟!

أين الفرج وأين المخرج؟!

فالوجع يحاصر والروح تصارع...

والقلب يناشد الصمود...

والعقل مع أوجاعه موقوف...

فيا حلما كان قريبا، وبات بعيدا...

أتراك تكون حقيقة؟

خاطرة إيناس إبراهيم.

***

يا من وهبتنى بحبكِ قلبا جديد

تهجأ معكِ حروف العشق والأمل

قلب فى الحب والإهتمام بكر رشيد

فرأيت فيكِ أمانى وكنزى الثمين

وبوحت لكِ بسرى الدفين

وبكيت على صدركِ كطفل وليد

أشكو إليكِ مُر مالقيت

من القريب لا البعيد

فضممتنى إلى صدركِ ووعدتنى

م اليوم أبدا لن أكون وحيد

واليوم ها أنتِ تتركين يدى

اليوم تريدين الرحيل

بت ترانى بلا قلب

فعن أى قلب قبلكِ تسألين ؟

قلبى الذى إنتزعوه من أضلعى

و تقرَّح جرحه وإمتلأ بالدماء و

الصديد

أحقا تتعجبين ثأرى ممن أراقوا رجولتى

تلومينى لأن طوفان إنتقامى

جَرف فى طريقه روح بلا ذنب

وما كان ذنبى وذنب جسد ؟

جردوه من ثوب براءته

وتركوه عَارٍ ينزف دماء

وشم بالعار الزمن لن يمحيه

وما كان جُرمى ؟كى تكون رجولتى

فريسة لمخالب نجاساتهم

فريسة إلتهموها بتلذذ حتى إكتفوا

وتركوا روحى فى الظلام تحتضر

ومضوا فى طريقهم وكأن شيئا لم يكن

تركوا جسدى مدموغ بأثار إعتدائهم

أثار تشتعل جمراتها بنار الحقد

وإنتقام يحمل لهم شر الوعيد

إنتقام لطفل كان

كطائر صغير ضعيف

إقتلعوا ريشه بلا رحمة

وصرخاته يذوب لها الجليد

ومن إنتهاكهم له تُزيد

وكأن قلوبهم قُدَّت من حديد

وما رحلوا عنه إلا وهو

منحور م الوريد

طفل كبر ومازالت روحه هناك

فى قبوهم تطلب الرحمة

ويأبى شيطانهم العنيد

طفل لعنة أصوات إنتهاكهم له

تلاحقه فى نومه ويقظته

كشبح مَرِيد

فإذا كنت تريدين الرحيل

فلترحلى

فحتى الشفاء ما عُدت

أريد

خاطرة رشا الشاعر

***

الفصل التاسع عشر

***

أنتِ قصيدة تائه انا بين ربوعها..

اغفري لبيت بها بلا عنوان..

***

تجاعيد السماء بسحبها المتعرجة الباهتة، تنبئ بيوم بارد

جديد أضافه لتلك الأيام الثقيلة التي مرت في فراقها، أسبوعا

كاملا وهي بعيدة عنه، طعامه بارد، فراشه بارد، وقلبه

مثقوب بفراغ الشوق إليها ..

يتوقف عبد الرحمن بالسيارة أمام الحي الضيق الذي تسكنه،

ليكمل طارق طريقه إليها سيرا على الأقدام ، تغَبَّر حذاءه

بتراب حيها، وامتلأ صدره بروائح الأكل الشعبي المنبعثة من

نوافذه..روائح مختلطة بين مقلي ومشوى.. أنى لأولئك الناس

بالشواء..!

رائحة قهوة.. وشيء أخر برائحة مسكَّرة يجهله..

دبيب كخلية نحل تسعى مبكرا لإنتاج العسل..

يقف أمام الباب يستمع لحديث يدور بالداخل..

ترحب بأم محمود التي أتت للتو تسبق دخوله إلى البيت بلحظات، تمدح الآلات الكبيرة بصوتها الرنان الذي إخترق الباب ليصل لأذنه، غسالة عصريه، فرن حديث، ويخفى عن عينه رؤيتها وهي تخرج منه إناء حراري ملتهب بما فيه، تغلق باب الفرن لتشعر بلسعة حول رقبتها فتتحسس موقع سلسلته الفضية..فتتذكره.. وكيف تنساه وكل ما يحاوطها قطعة من ماله، وإهتمامه الذي يرافقها حتى غرفة نومها بعطوره التي أرسلها مع عبد الرحمن.. محملا بطلبات يومية كثيرة لم تطلبها.

يأتيها حينا يحمل آلة صنع القهوة..

والآخر يحمل أطقم أواني، أجهزة، زجاجات المياة المعبأة الباهظة..

"ما كل هذا يا خلود؟"

تبحلق متسعة العينين فيما حولها، فتعي خلود ما تعانيه أم

محمود، هو ذاته ما كانت تعانيه يوم دخلت فيلته إنه

"الانبهار"

"لقد أخبرتكِ بأن زوجي ثري يا أم محمود"

"أنا اعلم، لقد شاهدت صوركم على ورق المجلة التي جلب

بها محمود شطائر الفول"

تحك مؤخرة رأسها

"هل أكلتِ شطائر الفول فوق وجهي يا أم محمود"

تتنحنح بخجل

"للأمانة، لقد كان فوق وجه زوجكِ لهذا لم أره جيدا"

توليها ظهرها، منذ أتت على سيرته وهي تؤجج بها لهيبا

متناقضا بين غضب وشوق، كعادتها منذ فارقته..

تتحرى أخباره من جدها الذي لم يتوانَ عن نهرها يوميا بسببه، مطالبا إياها بعودة قريبه فقد مل وجوده بينهم، وهم ليسوا بحاجته، فزوجها تحسنت صحته، ويجيء ويذهب كما القرود، بينما هو يرغب بالعودة إلى بيته..

"هل هو وسيم؟"

تسألها أم محمود فتجيبها

"أجل، لكن أنفه كبير، لا أظنه سيعجبكِ"

يلصق جبهته بالباب يقاوم ضحكه.. ينصت إليهم... لاعنا صوت الحداد بالخارج وآلته الصاخبة..

"أنفه كبيرة، عافانا الله، كله الا الانف، فهي تفسد جمال الوجه"

فكرت قليلا ثم أردفت

"عموما..الرجل لا يضره شكله، المهم جيبه..ويكفي ما يحضره لكِ يوميا"

امرأة فارغة العقل، وهل يعيب رجلها سوى جيبه، المال الذي يسخر له كل شيء، إنتقام، افتراء، هوى متشعب في كافة المشاعر والأفعال..

طرقات على الباب، تقترب أم محمود لتفتح..تطالع الطارق ببلاهة، شعر بني، ذقن مهذب، وجه رائق..عيون رمادية كما تشاهد في الأفلام.. فلم يسبق لها أن رأت أعين رمادية حقيقية من قبل.. سألت ببلاهة

"من؟"

أجاب مشيرا الى المذهولة خلفها

"زوجها"

تتفرسها أم محمود وتقول

"صاحب الأنف الكبير! "

إرتبكت خلود من قولها، تنظر أرضا..

أفسحت له أم محمود ليدخل، بينما خلود تهدأ هذا الذي

وثب بين أضلعها، تقتص وتنهل من وجهه، توبخه وكأنه من

هجرها وليست هي..

تستفيق الأخرى من وجهه الوسيم، وتخرج من هوة ملابسه

الفخمة، لتمسكه من ذراعه تجذبه إلى الداخل تزغرد

"يا ألف مرحبا يا سيد طارق، لقد زارنا النبي، إنه ليوم

سعدي"

يقول بمكر

"هل تقربين لمسعد بياع الفول؟"

"إنها أم محمود صاحبة البيت"

مد كفه نحوها ، يقول باحترام

"مرحبا سيدتي"

تقف بينهما مسرعة تمسك كفه هامسة بتحدي

" لا تصافح النساء"

يشدد على كفها، يأسر عينيها يخبرها بشوقه لها، يحرك إبهامه

فوق سطح يدها وقد أثاره الجنون من لمستها، يضرب خافقه

ضلوعه مستمتعا بقربها

"هل تريدين شيء يا خلود، سأغادر"

إستفاق من سُكره يُخرج من جيبه المال يناوله لها

"هذا لمحمود، وام محمود، لحسن استقبالها زوجتي"

ومع زوجتي تعلقت عيناه بها، يقيس سرعة نبضها بعينيه التي

توقفت عند صدغها، لم يشعر بزغرودة أم محمود وهي تغادر

وتغلق الباب خلفها..

كل ما يشعر به الآن، ثورة تزلزل أركانه تدفعه دفعا لضمها،

اقترب يضم خصرها اليه، يدفعها نحو أحضانه، يضع كفه

خلف ظهرها يلصق جسدها بصدره، لتنفلت آهة مشتاقه

من فمه..

تضم يديها حول رقبته ببطء يعاند هشاشتها بقربه، تبكي

فوق كتفه، تطمئن برؤيته ، أنه بخير..

وفي لحظات تبدل حالها، تحاول الابتعاد فيشدد من قربها،

تتملص من قربه فلا يتركها

"زاد شوقي اليكِ بهذا الحضن يا خلود..ألن تكتفي بتلك

الأيام القاصمة بهجركِ"

تتأهب للانقضاض عليه بلسانها تتذكر ظلمه، وينطفىء

الحديث بشعلته يعاكسها..بأنفاسه المتأججة..

تتوسد الصراخ، فيضنيها برقته..

عينيها النازفة تعاقبه..ولا تعلم بأن دموعها كالسيوف تمزقه..

"أنا من وكلت محامٍ للدفاع عنكِ يا خلود، فقد كنتِ عذابي"

يبعدها عن صدره، ليسجن سواد عيونها بين رماديتيه الرائقة

بخطى نحو الشفاء..

"لم أخرج عن دائرة انتقامي الا بكِ، لم تكوني ضمن مخططاتي،

أنا لم أظلم أحد لم يظلمني، كنتِ عذاباتي وانا سبب

سجنكِ، وأسر روحكِ، وانا السجين المعذب.."

يلامس كفها، ذراعها، كتفيها..

"أطلعته على قضيتكِ، لأتحرر من ذنب ظننته بسيط، لم أكن

أعلم بخسة أيمن وأخته، ومطاردته لكِ في عملكِ"

تبتعد عنه تقاوم عبراتها، يحتضن ظهرها يواسيها

"أنا من قبلتكِ للعمل في الدار، بعد ما رأيت اسمكِ متقدمة

للوظيفة، أنا من وافقت على سلفتكِ، كتعويض عما كنت

سببا فيه"

" أنت من وظفتني بفيلتك، تغدقني بالمال كتعويض لما فعلته،

منحت جدي وظيفة بعد أن ساعد والدك وشعرت بالذنب"

تتآكلها الظنون

"هل تزوجتني لتكفر عن ذنبك يا طارق"

يروض اشتياقه لها، يتحدث الى عقلها أولا، ومن ثم يريدها

بأكملها، يعي ما تعانيه، يصبر ويصبر..هو يرجو صفحا،

واقتناع بالغفران..

يلتفت اليها، وصوتها المنكسر يحطم كلماته على عتبة

خنوعها وإستسلامها لفكرة سواده..

" وهل يربط المرء مصيره بأحدهم شفقة، أو تكفيرا عن

ذنب، أنا من رحم الحياة ومن مشيمة الظلم خلقت، أشعر بما

تعانيه يا خلود، أشعر بنقمتكِ وسخطكِ علي، ربما لو مزقتني

لن أغضب، أتفهم معاناتكِ جيدا.. إلا بعدكِ عني لا أفهمه

ولا أقبله"

يبتعد عنها خطوتين، وبصوت حزين يكمل

" كنت تائه، لا أرى الكون إلا ملطخا، أنحني وأقدم ما يريده

الآخرون في محاولة رخيصة لمقايضتهم بما اريد.."

إهتزاز جفنيها بدموعها جعلته يحتضن وجهها يقبلها، يدعوها

ليغدقها بشرعية عشقه... وبقرب انفاسه يخبرها

" سامحيني يا خلود"

تشتم صدقه، تستشعر أسفه.. وتشفق عليه من عذره..

خارطة متداخلة المدن والمعالم هي أعذاره..

زرقاء بأسفاره يبحر في انتقامه..

سوداء كغرابيب سود بأرواح يدمرها في طريقه..

صفراء كقلوب من يساعدوه.. ومن ثم يطعنوه..

"أنا أحبكِ، تزوجتكِ لأجل عقلكِ وحكمتكِ، أنا ذائب في

أفكاركِ التي توجهني وتطهرني"

يخرج من جيبه زجاجتين دواء، يبسطهم كل واحدة بكف،

تحول مزاجه المشتاق الى رجل متلعثم الافكار يخطو بفتور نحو

ردات الافعال

"كلاهما زجاجات دواء، تجرعها أبي قبل موته، وجدتهم بغرفته

فارغتين"

يضعهم فوق الطاولة، يستطرد

"لقد أخبرني كمال، بأنه أرسل دواء جديد يختبره ايمن لعلاج

حالة أبي"

شهقت وقد فطنت لتلميحاته

"تقصد أن الدواء هو المتسبب في قتل والدك"

لحظات صمت، عقلها وتروسه السريعه توصلت الى

"جدي قتله؟!!"

"وعاليا من أوصلت الى جدكِ الدواء"

يجلس ويكمل حديثه

"مخطط محكم، يقيدني، لن أستطيع الابلاغ عن فعلتهم

فالجميع مدان، يمكنني تحليل الزجاجتين وتوضيح الفارق بين

محتوياتهم.. واللجوء للطب الشرعي، وأسير في اجراءات

قانونية... ستضرنا جميعا في النهاية"

تجلس قربه مصدومة

"لا تخبر جدي يا طارق أرجوك، سيموت إن علم بانه تسبب

في قتل احدهم"

يرفع حاجبيه باهاك

"لهذا جئتكِ، لا أعرف طريقا اسلكه لحل هذه الكارثة"

تتوسد كتفه وقد نسيت شجارهم

"جدي، لالا، لا ينبغي له أن يعلم..لن أتحمل سوءا قد يمسه،

سأموت"

يلف يديه حولها، يقبل رأسها بين أحضانه

"ليس لدي سوى اللعب مواريا الحقائق، لكن لكلٍ منمها

نقطة ضعف، وسأفعل مثلما فعلوا"

تشد يديها حول خصره، تردد بخوف

"لن أسامحك هذه المرة إن كنت سببا في سجن جدي وبعده

عني"

تتوسله بشفتيها ويديها وكلماتها..

لا تعلم أي سعير أوقدته به، أي اشتياق تمكن منه، يلامس

شفتيها..

يقترب من وجهها..يلمس فكها

"خلود، لقد اشتقت اليكِ"

تصدع جدار صلابتها أمام كلماته..

ألهمها الشوق والتهمها بعشقه..

يتضور جوعا إليها وقد حرمته الشبع منها..

طغيان الشوق تشقق فأغرقهما طوفان العشق..

تلك الشدائد المحيطة بهم، جعلتهم فوق سفينة مثقوبه،

غمرتهم المياة من كل مكان ولم يتبقَ لكلاهما، سوى كلاهما..

***

يتململ في أربطته، لقد خضع لجراحة عاجلة منذ ايام..

كاد أن يفارق الحياة..يحرك رأسه يمينا ويسارا بتعب ومرض

تمكن منه..

ذراع مجبرة، وساق مضمدة، وصدر كالتابوت يحمل ميتا بين

اضلعه تعفن وفاحت رائحته.

يتذكر كلمات أيمن المرتعدة..الذي غادره منذ لحظات

"لن أستطيع مساعدتك أكثر من ذلك..لقد هددني طارق،

أنت تعلم بأني لن أقف أمامه لاجلك"

رؤية مشوشة من كثرة الدواء الذي يتناوله

"هذا أقصى ما يمكنني تقديمه لك بعد أن أشفقت على حال

ابنتك وهي متخبطة ليست تدري سبيلا لخلاصك..لقد

خضعت لجراحة دامت ساعات كنت بين الحياة والموت،

هذه الغرفة في مسكن بعيد عن الاعين، تابعة لصديق لي، فور

استرداد عافيتك، وجبت مغادرتك"

لازال يصارع أشباحه..سلمى، أين هي!

لم يخبره أيمن عن مكانها وهو ينصرف تاركا اياه كالجثة التي

تنتظر الحرق.

غرفة خافتة الانوار..مرض يحاصره ..لا يقو على الحركة..

يردد اسمها بتعب

"سلمى..سلمى.."

بينما سلمى في ذات الوقت كانت تطالع مثلث مقلوب

باللون الوردي لفت إنتباهها في ميدالية مفاتيح الماكث

جوارها ملقاه في السيارة..تذهب معه الى حفلة ماجنة أخرى

وقد إستجاب جسدها لكل ما هو فوضوي وعبثي...

"الى ماذا يرمز هذا المثلث؟"

يمعن النظر فيها بإستغراب

"حقا لا تعلمين يا سلمى!"

أومأت بالايجاب فقال مبتسما

"هو رمز المثلية..الكلمة التي أكرهها، لما يروجه البعض عن

مفهومها، هم لا يعلمون بأنها فطرة..وميول مختلفة..دوما ما

نخشى المغامرة، وكل ما هو جديد نسميه شاذ..هم لا يعلمون

شيئا عن متعتنا، لم يصلو ا لما نصل اليه نحن..يرتدون أقنعة

فوق وجوههم..وينكرون وجودنا كي لا يوصمهم المجتمع

بالمحاباة والتشجيع.. بينما يشعرون بالغيرة لأنهم لا يستطيعون

تقليدنا"

مختل يتباهى بشذوذه، يقنّعِ الكذب ويقنن المحرمات، يخرج

من جيبه ميدالية في طرفها مربع صغير بألوان قوس قزح

يناولها إياها

"هذه لكِ"

"وعن ماذا تعبر تلك؟"

صف السيارة يستعد الى النزول بصحبتها..

"هو إختصار ال بي جي تي.."

إستوضحت بوجهها، بانعقاد حاجبيها وانكماش وجهها،

فأجاب

"حركة لتحرير المثليين والمثليات ومزدوجي الميول"

غمز بعينيه يشير اليها

"مثلكِ"

تضحك بتخبط، تضع يدها بيده...

تشعر بالهواء الطلق الذي ضربهم بترجلهم من السيارة..

يكتنفها التيه، تسير جواره وتلمسه بينما روحها عالقة هناك..

خائفة، مرتعدة..

حيث مواجهتها مع والدها، ومن ثم إستيقاظها على دماءه

فاقدا للوعي، لا تستطيع نسيان وجهه المتورم والدماء الكثيرة

التي تحيط به، لا تشعر بالشفقة تجاهه انما بالخوف... لحظات

متجمدة بين فزعٍ وترقب وحيرة، لم تر جثة عن قرب من قبل،

هي حتى لا تعلم كيف تفحصه لتتأكد أنه لازال على قيد

الحياة، أخرجها رنين هاتفه من تلك الحالة المتبلدة، تجيب

على هاتفه بأصابع مرتعشة وهي ترى المتصل يسبق اسمه

كلمة الطبيب، فتحت الخط تتحدث بهلع وقد وجدت من

تستنجد به

"أرجوك.. ابي.. دماء... سريره، أبي مات، رصاصات.."

ثم تركت الهاتف لتفر من المنزل خائفة.. هاربة.. وكأنها هي

من قتلته.. تركض بلا توقف بلا وجهه..

لتجد بين مرتادي الحفلات سكن..

وتكون وجهتها المجون المطلق..

ودليلها مجموعة من المختليين المختبئين في شق الجدار.

***

تساعدها في ارتداء ملابسها..تمشط شعرها أمام المرآة

بشرود، تتذكر كلمات طبيبتها عن مساعدة من يحتاج،

ونسيان الالم الذاتي والذوبان في ذوات الآخرين..

لازالت تكرة تعرية عطبها أمام أحد حتى لو طبيبتها، وتعاني

انحسار الكلمات في وصف ما بداخلها..

مرارة في وصف شوقها لوالدها رغم كل ما عاناه من حولها

منه..الا انها اشتاقت لاحضانه في حياته وبعد موته..

لماذا نشتاق دوما للمستحيلات!

بصدر يملؤه الأمل في التحقق!

لماذا تتعلق عيوننا بكل ما هو غائب؟

هو حنين للنقص! ربما بغية الكمال!

نبحث عن إجابات بين الموتى... نحنّ لعناق شخص لا وجود

له... انما بقي منه رفات أخلاق.. معاملات.. أموال...

وسيرة.. إن كانت طيبة رُفعت بها الى السماء... وإن كانت

سيئة لاحقتك حتى موتك..

لماذا لا تتعلق قلوبنا بما هو متاح.. ويمكن إيجاده!

هي رغبة الإنسان دوما في البحث والبحث، إن وجد الحب

يبحث عن الأخوة، وإن كان له أخ ذكر يتأفف ولِمَ لا أنثى..

وإن وجد المال... يبحث عن الاسرة في حين شَغَلَه جمع ماله

عن تكوين أسرة..

محظوظ هو من يجد مال واسرة وحب...

ليته لا يبحث الآن عن الصحة!

تتلعثم كل مرة في فهم ذاتها، متأرجحة بين الرفض والكره،

ووأد طفولتها بالحبس والتقييد..

هي مجموعة من الشظايا في جسد مضطرب، تتعجب من

مكوناتها..

تلف شعر عمتها تجمعه في كعكة صغيرة بما تبقى من شعرها

الأبيض الخفيف، تعطرها..

تشعر بلماسته فوق شعرها فور دخوله إلى الغرفة، يدعم

حبوها نحو السلام وان كان بطيء..تسأله

"كيف حال خلود.. ألن تعود قريبا يا طارق؟"

يبتسم إليها برضا بعد ما ناله من تلك الناعمة..يفكر في توقه

إليها منذ الآن، ورغبته في العودة إليها

يمنحها لمسة حانية

"ستعود، قريبا جدا يا عاليا"

ابتسامة منهكة، وهي تلحظ إشراقة وجهه.. ليته حصل على

الحب أخيرا والأسرة.. تشير نحو عمته ليأخذ نصيبه من العناية بها، وغادرتهم..

يجلس بين يديها يتشمم طيب عطرها، هكذا هي السيدة منيرة بهيئتها الارستقراطية الشامخة..

يشد على روحه الباسلة التي تتناسى ما فعل بها، بعد أن كان يجلد روحه بسياط الكره لأجلها..

كيف شك للحظة بأنها لم تغضب لما حدث له، يمسك وجهها بين كفيه يقبل راسها مرارا، كيف ظن بأنها تبحث عن زوجها لشدة حبها له، وهي التي أحبته هو أكثر من نفسها ، يتحدث اليها ويعلم انها لن تفهمه

"سامحيني..لا اعرف كم مرة علي ان اعتذر، أخطائي بحق الكثير تثقلني، تهشيمي لحيوات كثيرة بيدي يقتلني..

أنا آسف يا عمتي..آسف"

يساعدها على الوقوف والتدثر بلحافها..

" ليتكِ تذكرين يا عمتي فتحرريني من ذنبي، صدقت خلود

عندما اتهمتني بتحجر قلبي، أقسم بأني تألمت وأنا أرى وجهي

الآخر في كمال وهو يعذبكِ.. بت انازع غضبي وحبي لكِ..

كنت متناقض.. أسير بغير هدى.. سامحيني"

تغشى عينيه الدموع وهو يتذكر كيف كان وحشا مجرد من

الرحمة معها.. لقد أسعفت خلود قلبه بصدمة حبها فعاد

ينبض من جديد.. يقبل رأسها ثانيةً..

يطالعها بوجه حزين منكسر يقول لها قبل أن تغيب في نومها

" قولي سامحتك يا طارق"

تربت على رأسه لا تعرفه، لكن دموعه ووجهه المتوسل جعلها

تردد

" سامحتك يا طارق"

يستتر في صدرها بخزيه.. ممنيا نفسه بسماح مزيف لا تعيه،

لكن قلبه يريده... حتى لو قسرا..

تربت على خده كطفل تمنته وكبر ونمت ذقنه..

تفسح له مكانا جوارها.. تدعوه للنوم جوارها

"هل تعشيت؟"

"أجل.."

يخلع حذاءه، يتمدد جوارها بطول جسده

"إذا فقد حان وقت النوم"

وقبل أن يشد الغطاء حوله، كانت تغط في نومها، ضحكت

عينيه..وبصوت خافت

"أيتها الماكرة منيتني بليلة أنعم فيها بدفء حنانكِ، ومن ثم

تركتني لأجل أحلام بخسة"

يزيح الأغطية، يتناول حذاءه... يردف

" إنها ليلة خلود على كل حال"

بعد لحظات..

ينزل الى البهو، يجلس شاردا بما كان، وبما سيكون..

يشعر بثقل أكتافه، وانهزام آخر يزحف لقلبه متخوفا..

من ضربة"كمال" اللاحقة..

لا يعرف مكانه، ولا ابنته الماجنة، لكنها حتما ستكون في

منفى قاذورات يسهل عليه اقتفاء أثره..سيجدها

بالتأكيد..فبعد أن تبعها رجله وهي تسير بغير هدى

..مشتتة..هلعة– كما وصفها– الي مخور سافر حتى

الساعات الأولى من الصباح، وعند عدم خروجها دلف–

الرجل– الى المكان فوجده خاليا.. فساعات الصباح والبكور

ليست لخفافيش الظلام..

"أريد أن أعرف لماذا أنا هنا؟"

يلتفت نحو جد خلود، يبتسم ثغره..

"حتى تلين ابنة ابنك وتعود لرشدها وبيت زوجها؟"

"أنا لا شأن لي بلعب الصغار هذا، أنا رجل صاحب أعمال،

وبيتي القديم بالقرب من الدار، اريد العودة اليه"

"لا تكن كالاطفال، امنحني الوقت فقط لاراضيها"

يمرر أصبعه فوق انفه

" لا اتوقع ضربة كمال الآن، هو يحتاج الكثير من الوقت

ليتعافى مما فعلته به، لا بأس في استرداد بعض اللحظات

الشيقة معها، ولتصبر أنت يا عجوز"

"هل اخبرتها بانك من وكلت لها محامي"

"اجل"

"وقبِلتها عاملة عندك"

"اجل"

"وهل أجدى ذلك نفعا؟ "

يضحك بسعادة

"أجل"

يمسد رأسه

"كنت انت سهلا في الاقناع أكثر منها"

يتنهد برضا.. يستند بظهره على كرسيه

"أعلم بانك تعاني بني، لن انكر ضعفي وقلة حيلتي وهي

بعيدة عني في تلك المحنة، خاصة وأنا أتوسل محاميا.. جارا لي

فرفض لأني لا أملك أتعابه، قصر اليد والحاجة..وشعور

الظلم اشد وطأة، خاصة وانت لا تعلم متى سينقضي"

يربت على كتفه، يستسمحه بلمسات مهدهدة كالاطفال

"لقد أخطأت في حق الجميع"

تدارك هذا الأسى الذي يزحف إليه ليردف

"هي بخير الآن مع ام محمود، لقد اعجبت بتلك المرأة"

يجيب بأسف

"أنت لم تسمعها وهي تسبنا، تلقي بنا وبامتعتنا في الشارع

تطاردنا بصراخها وشتائمها"

عقد حاجبيه، من تلك التي تسب زوجته، ينهض مغادرا..

يحثه شوقه إليها لترك كل شيء لأجلها.

"هناك حراسة حول الفيلا، انتبه لعاليا وعمتي، لي عودة قريبة بصحبة خلود..خذ حذرك"

يمشي معه إلى السيارة..يلمح عبد الرحمن بداخلها فيشير إليه مرحبا..فيبادله التحية.. ووجهه متجهم.. وكأنه يعاني شئا ما.

***

تتناول شايها بنهم، تستمتع بحركة الطريق التي تغمره الضوضاء..صافرة هنا..دراجة هناك..أحدهم يسب الآخر.. حكايات تلامس أذنها بين الجارات..من تقص سوء معاملة زوجها وتنتظر إجابة الأخرى..

في أيام معدودة من عمرها، منذ غادرت حيها وهي ترى العجائب، ظنت بأن الخروج من قن الدجاج الى متسع الحياة سيغمرها سعادة... إلا أن الأرض ضاقت عليها بمجرد

تخطيها أبواب القن..

طارق وعالمه المغمور بالمشكلات، المستفحل الأخطاء..

المتطرف في انتقامه..لندن وتجربة قريبة، وسعادة مجنونة

تلتهمها..

تضحك وهي تتذكر مراعاته لها، هي كوكبه الذي يولي وجهه

نحوه.. وقبلته التي يرتحل إليها ومعها...

شيء غريب تراه عاليا يمتزج مع ملامحها وهي تراقبها، رقيقة

أكثر، حالمة جدا، تبدو كحمامة بيضاء ترفرف وسط هذا

المكان القذر الذي تسكنه

"خلود، يجب أن تعودي معي، هذا المكان الذي تقطنيه

عشوائي، لدرجة مغيظة"

ضحكت وهي تقدم لها كوب الشاي بالنعناع، شعرت عاليا

بتفتح مسامها حالما تذوقته

"أمم، لذيذ"

"هذا المكان العشوائي ولدت به وكبرت يا عاليا، هل يمكن

لأحد أن يجبركِ على ترك الفيلا"

هزت رأسها نفيا...

" لكنه ليس بيتكِ الآن"

فتحت أم محمود الباب الموارب لتدخل تقاطع حديثهم،

فتصيح خلود بنفاذ صبر

"مرحبا أم محمود، هل هناك شيء"

قالت بحرج

"لا..لكني جئت للاطمئنان عليكِ، من هذه الكعكة الحلوة"

عرفت عاليا نفسها لتلك الفضولية التي إقتحمتهم..

"أنا عاليا، أخت زوجها"

هشت وبشت تهم بإطلاق الزغرودة المعتادة، إستوقفتها

خلود

"لقد مر وقت الزفاف والزغاريد، أرجوكِ توقفي، وهل يمكنكِ

الإستئذان قبل الولوج لبيتي"

"وكيف تستأذن والباب مفتوح هكذا لكل من هب ودب"

صوته الثائر جعل ثلاثتهم يتجمدن...

إقترب من عاليا

"كيف تغادرين الفيلا دون إذني، أو إصطحاب أحد الحراس،

ومتى أتيتِ الى هنا لقد تركتكِ للتو هناك؟"

مر على خلود، يقول بغضب

"كيف تتركين بابكِ هكذا، ألم أخبركِ بالخطر المحدق بنا"

جاء دور أم محمود فبسط كفه ليقول

"أعطني المال الذي أخذته مني وغادري على الفور، فقد

سببتِ زوجتي ذات يوم"

ترتعد أوصالها..تحاول إخراج المال الذي لم يفارق صدرها منذ

الصباح وتعطيه له مرتعشة، وقد رأت تحول وجهه الوسيم

الذي رأته من قبل الى وجه قاتم غاضب

يلتفت الى عاليا يشير نحو باب المنزل، ستجدي عبد الرحمن

بالخارج سيعيدكِ الى الفيلا، لا اريد حركات طفولية منذ

الآن، كوني على قدر المسؤلية يا عاليا"

تفرك كفيها

"أنا خائفة.."

يتنهد مقتربا منها

"يومين وساعود بها، اعتني بعمتكِ جيدا"

تحمل حقيبتها، ترفع قلنسوة سترتها لتحميها البرد، وعينيها

تملأها الوعود بأنها لن تخزله مرة أخرى وستكون على قدر

المسؤولية.. وتغادر..

يغلق الباب خلفها ويلتفت لتلك الحارة أمامه، تلملم أكواب

الشاي تحترق من صياحه بها منذ قليل..

"لقد ذهبنا لطبيبة.."

تغير لونها وهي تترك ما بيدها وتقول

"مجددا، طبيبة تنام أمامها وتسرد عليها تفاصيل طفولتك"

ضحك رغما عنه

"المهم النتيجة"

إعترضت على قوله، بأكاذيب تختلقها

"الاطباء الرجال أمهر"

"الطبيبات النساء أحلم"

"الأطباء محددون، لا أخذ ولا رد"

"الطبيبات، أرق وألطف"

ضربته على صدره فجذبها اليه

"أنتِ غيورة"

لم ترد، تتميز غضبا.. وإحتياجا

"تغارين من أم مسعد؟ "

أخرجها من مزاج الاحتياج الى مزاج الضحك

"أم محمود"

بين يديه يهدهدها بعيون رمادية عذبة، شبقة نحو الحياة..

بوجه عاشق تتملى ملامحه الحبيبة التي إشتاقتها..

قرب بقرب..حتى بات لا يفصلهما سوى أنفاسهما، علِقت

شفتيه بأنفها

"أحبكِ"

كلمته، جرعة المخدر في طرف شفتيه انتقلت لجلدها

فتخدرت تماما، عبث بها بإستمتاع وشوق، يصارِع أفكار

وكلمات جاء يخبرها بها، لكن لا بأس، فليسكن شوقه الآن

وبعدها يحدث ما يحدث..

وبصوتٍ غائم قالت

"توقف"

بأنفاس متلاحقة أخبرها

"توقفي أنتِ عن إغرائي"

يديه غير ساكنة، تشبه تنهيداته..

بعد لحظات تحطمت فيها كلمتها وعزتها، نسيت ظلمها

والكلمات العصماء التي تغنت بها..

رفعت راية حبها عاليا لتكون ملاصقة لزوجها وعشيقها..

تمرغا في الحب فلم يتبقَ من الهجر والفراق سوى رماد، حملته

الرياح بين ذراتها فغاب واندثر.

" عودي معي"

تتأرجح بين الخدر..والواقع..

"خلود، أنا أحتاج لعقلكِ الآن"

حاولت استجماع تعقلها ففشلت، وعلى ذات الحال أجابت

"و أنا لا أريده الآن"

استدركته لنعيمها ..وقد نسي لماذا أتى، متسائلا هل سيرحل!

***

يبتاع حبات الطماطم بعناية، يجب أن تكون حمراء، ليس بها

ثقب، دون نقاط صفراء تدل على مرضها، ليست باللينة ولا

بالصلبة.

هكذا أخبرته خلود بعد أن أحضر إليها الطماطم الفاسدة

بالأمس..وحينها صاحت في وجهه

"هو مال سايب، أنت لم تتعب في الحصول عليه، تلك

الطماطم فاسدة سنلقيها في القمامة"

نظر إليها مبهوتا

"عفوا، من تعب إذا في جلب المال"

تثرثر ببرود

"ليس من شأني، عد الى البياع وبدلها"

رفع حاجبيه، انفرجت زاوية بفمه بشبه إبتسامة

"كيف، وهل يمكن؟"

"أجل، إذهب اليه وقل له، خلود تقول لك ...."

قاطعها وقد اتسعت عينه

"ماذا..هل سأذهب الى الرجل وأخبره بأن والدتي ترسل

سلامها وتأمرني بتبديل الخضروات"

مسح وجهه بكفه

"كنت أعلم أننا سنصل لهذه النقطة يا طارق، دعني انا في

البيت وشؤونه واهتم انت بالعمل والمال"

"الم يكن مال سايب، وخذ من التل يختل، الآن اعترفتي بأني

اعمل..هذا خطأي منذ البداية، انا من دللتكِ واستحق ما

يحدث لي"

جلست بحزن على كرسيها، فتراجع عن كلماته

"أنا..فقط..أردت المساعدة، لقد ضايقكِ البائع بالأمس،

وشكوتِ لي غلاءه وتطاوله عليكِ"

"ها، أكمل..وماذا فعلت انا...خلعت حذائي وأخذت

حقي"

تنهد مبتسما

"وهل هذه هي طريقتك في أخذ الحق"

إنتقلت عدوى الإبتسام إليها وهي تقول

"نعم"

"وأنا، أريد حقي، كيف آخذه"

غمزت له

"لقد أخذته كثيرا"

أمسك بأكياس الخضروات وأعطاها ظهره

"سأذهب لأبدلها، أخبريني ماذا اقول مجددا..لكن عندما

أعود، أعدي حقوقي جميعها لأني أرغب في مناقشتها جميعها

بهدوء وراحة"

ضحكت تحتضن ظهره

"قل له خلود تقول لك بدل هذه الأشياء، ولا بأس في إظهار

تلك له، كي يرتدع"

تلمس عضلة ذراعه فيقول

"عندي واحدة أخرى في الذراع الآخر"

ثم ترك الاكياس، عازفا عن خروجه والتفت اليها، يشير الى

صدره

"وعندي هنا..الكثير"

وضمها اليه، تتحسس عضلاته بنهم، وهو يتحسس حبها

بشغف، تستشعر الحماية تحت جناحه، وتغرق بحبه الذي

لطالما أكد عليه، ترتعش نظراته فوق وجهها كي يحتويها،

يترك عينيها لينزلق الى أنفها وشفاها، شعرها، يركض

بالنظرات والهمسات فوقها...ينازع حبه فيها..وشوقه الذي

لا ينتهي لها..

"هل يمكن لأحد أن يحب أحد بهذه الطريقة يا خلود"

تتحدث بأنفاسه

"أنا"

"هل يمكن لأحد حلو الملامح والصفات، أن يعلم بأنه حلو"

"وهل تعلم أنت؟"

تشير لحلاوته، يتذوق شهدها...

تخبره عن عشقها، فيميزها بنظرته المكتفيه..

وصلا الى حد الإشباع، والإمتلاء، وكل مرة يقولا بأنهما

وصلا للإكتفاء..يكتشفا أنهما لا زالا في بداية الطريق.

يستفيق على كلمات البائع منتفضا

"مضى عشر دقائق وأنت تختار الحبات يا أستاذ طارق"

أخذ ثلاثة حبات من الطماطم فاسدة، عن عمد، ووضعها

داخل كيسه، علها تطلب منه العودة لتبديل الفاسد، ويحظى

بليلة أخرى كتلك.

في بداية الأمر شعر بالغيرة تتآكله من تعاملها مع البائعين هنا

فقد يتجاوز احدهم معها، أما الآن فأصبح يوم تسوقه ممتع،

كالألعاب التي يتمتع بها الطفل ويستميت للفوز.

هو فاز حقا، نصر يعقبه نصر، لكنه يجمح للأكثر

**

مر أسبوع كامل بين خوفها من كمال وما تخبئه لها الأيام،

وبين سعادة حملت بين طياتها الهدوء.

أم محمود إعتزلتها منذ مواجهتها الأخيرة مع طارق

.فاستحالت حياتهم الى جنة غنّاء..

تتحدث الى عاليا كل يوم، بين اطمئنان ودعم..تقص عليها

علاقتها المستحدثة بطبيبتها..التي ترسل لها مقالات متنوعة

عن ترميم وبناء الذات...

مقالات وكتب ثقافية جذابة لمثل عمرها... وافلام شيقة

بعيدة عن ما يحمله إعلام الكبار...

بينما حبيبها، وزودها من الدنيا، تغدق عليه الحب الغير

مشروط..وتتوسله العودة الى الفيلا، والغريب أنه من يرفض

بعد أن كان يتوسلها الرجوع.

باتت تعشق بناءه لشخصه الجديد، الذي يمنحها الضحك بعد كآبة دامت سنوات، وعلامات حفرت وامتزجت مع ملامحه فأصبحت قسماته قاسية.

لا يعتمد على ماله في الوصول اليها والنيل من قلبها، بل بإهتمامه...

من قال ان الحب خاتم من الماس، او إسورة تقيد المعصم بالعشق، أو عقد يلتف حول الرقبة ويسقط فوق النحر فيزينه..

الحب ابسط من هذا البذخ...

الحب ليس ترف...

هو الإجتماع والتفاهم والإهتمام...

ما همني الحب إذا افترقنا...

أو إذا إختلفنا فجمحنا...

او بغير إهتمام وإحتواء...

سيكون حينها كالنيل بغير ماء، لن يروي.

أو كالسماء بلا نجوم...او قمر...فكيف تنير.

او كالجسد بدون قلب..فكيف ينبض ويعيش.

طرقات الباب فصلتها عن أفكارها، توجهت نحوه، فتحت

صائحة تتعلق برقبته

"جدي، إشتقت اليك"

عانقها بشوق

"لو كنتِ إشتقتِ لأتيتِ، لقد غادرتِ لأجله، والآن هو

معكِ، إذا غادرتِ لاجلي أنا"

قالت مسرعة

"لا..لا تقل هذا"

قال بخبث عجوز

"إذاً رغبتِ به بعيدا عن الجميع، لتحظي بالخصوصية"

تلجلجت فحسم أمره، وهو يخرج حقيبة صغيرة من خلفه

"أريد تلك الخصوصية أنا أيضا"

ضحكت وهي تفسح له الطريق

"لقد اصبحت جمعية عمومية وليست خصوصية يا جدي"

لوى فمه

"لا يا صاحبة العقل، غادري أنتِ وزوجكِ، وأنا سأبقى هنا،

وأنت وزوجكِ وأخته ستكونون في مكان واحد لتسهل

حمايتكم"

حاولت مقاطعته

"جدي ...."

فقاطعها

"ولا كلمة، هذا أمر يا خلود، تمتعي بعيشك يا ابنتي، لا تفوتي الفرصة للتمسك بزوجكِ، عودي اليه، وقفي جوار عالية، هيا..أعدي حقيبتك"

الباب يغلق.. إلتفا الى مصدر الصوت، فقد عاد طارق من التسوق...

وضع الأكياس...

رحب بالجد وقصت عليه خلود ما قاله فأكد على كلامه وكأنه ليس هو من توسله الصبر حتى يعود بها، ويدحض أي كلمات أو أفكار تحثها على الرجوعِ...قال يداري خيبته

"عين العقل، لقد أصاب، لابد من عودتكِ، فأنا بين هنا

وهناك وكأني متزوج إثنتين"

ضربت كتفه

"واحدة، واحدة فقط، وان فعلتها وتزوجت بأخرى سأقتلها

وسأظل واحدة"

نظر لعينيها بوله

"أقسم بأنها ستظل واحدة من...."

قاطع تلك الوصلة الرومانسية نحنحة الجد، ليتم قوله

"لكم بيت يجمعكم، ليس هنا مكان العرض"

حمل الأكياس يمسكها ليغادر فقالت

"أترك الطعام لجدي"

فهمس اليها

"أنا إشتريتها بمالي الذي اكد واتعب به..هو ليس مال سايب،

ثم أن هناك طماطم فاسدة"

شهقت

"ولماذا أحضرتها طالما هكذا"

"كي تطلبي مني إعادتها، وتعديني بالمكافأة"

كادت أن تصيح به الا أن جدها أوقف همسهم

"هيا..هيا.. قلنا هنا ليس مكان العرض"

***

يرتدي حذاءه البسيط لينهى تأنقه...يحكم غلق سترته.. انه

يناير بقسوة صقيعه.. وحدَّة أمطاره..

يذهب لدار العجائز يهتم بعمله ويعطيهم من روحه في سعادة

لا مثيل لها، لا يمل من طلباتهم ولا العناية بهم... ولا يمنعه

هذا الطقس الصباحي البارد من الذهاب لهم..

يمسك مقبض الباب يفتحه مغادرا...

وإذا بجسد يفوقه قوة..وطول يسد بابه..فيتراجع الى

داخل...

بينما كمال يتبعه ويغلق الباب يسير نحوه ، يعرج

بتماسك..الى أن ألصقه بالحائط

"كيف حال العجوز؟"

يتدارك خوفه، ينصب جسده البالي أمام قوة كمال وإن بدا

متوعك...

"طارق ليس هنا..خلود..وأيضا عاليا.."

جذب كرسي ليجلس عليه، يتطلع الى الجد ..يتحدث بحنين

ذئب إشتاق كلبته يرعى حولها

"عاليا..الصغيرة الفاتنة..الجسد الفائر.. العيون

الشغوفة..والشفاة ال..."

"توقف، أنت عديم الشرف، لقد إنتهكت طفلة لم تتجاوز

أعتاب المراهقة..أنت مسخ يشوه كل ما هو جميل..سترى

عقوبة فعلتك في حياتك وعلى مرآى ومسمع من الجميع..الا

الأعراض..إلا الأعراض .."

قام يقذف بالكرسي نحوه فاصطدم بالحائط وتكسر

"توقف أنت..يا مدعي الشرف، ألم يخبرك أحدهم بأنك قاتل

عديم الرحمة تماثلني"

يرد له كلماته، يقترب منه يبخ سمومه

"أنت حقنت والد طارق بدواء قيد البحث تسبب في

موته.."

ثم همس جواره ينفث كراهيته في اذنه

"أنت قتلت الرجل، أنت من فعل..أنت..قاتل"

تسارعت انفاس العجوز

"أنت كاذب..حتما كاذب..انت محتال مختل وانا لا أصدقك"

"ألم يخبرك طارق، لابد وان خلود تعرف، كيف يخفون الأمر عنك، ربما يخشون سقوطك..ألن تسقط أيها العجوز عديم الفائدة"

حاول تنظيم أنفاسه...يقول بصلابة يخفي هشاشة صدمته

"ولماذا تأتي إلى عديم الفائدة لتوجه ضربتك..إن رغبت سقوطي فلا تطمح للكثير، أنا لست غر عديم الخبرة، أنا رجل يؤمن بالله، ولكم مرت علي المصائب وانا لها وتد متين الجذور، قوي العزيمة، أنت جئت الي لأنك جبان لا تستطيع

مواجهة من هو أقوى منك..أنت خسيس جئت مستضعفا

اياي.."

يبتعد عن مرمى وجوده ليكمل

"أنت ضعيف يا هذا، إعلم بأنك مهما ظننت نفسك بالذكاء

الفائق، أنت لم تصل الى ذكاء طارق.."

ثم كرمش أنفه مستصغرا إياه يردف بصلابة

"ولا الى سلطته"

اختزل المسافة بينهم بذات العرج...يتحدث أمام وجهه

"سنرى..إجعله يشدد الحراسة أكثر وأكثر..وأخبره بأن لقائنا

إقترب"

بعد أن أغلق الباب..لجأ الى اقرب كرسي وتهالك فوقه

..ترتعد أوصاله وتدمع عينه..

يواسي نفسه..ويجلدها بسياط الذنب...يردد بقوة انفاسه

"أستغفر الله واتوب اليه"

يكررها...

"أستغفر الله واتوب اليه"

تسقط دموعه ويهلع جسده وينتفض

"أستغفر الله واتوب اليه"

***

انتظرتك عاما بعد عام

لتحررينى من ظلمة الأوهام

كشعاعا من النور اخترق اعماق الظلام

خاطرة شوشو حكايات فريدة

***

سألتك بالله الاتتركيني

وبجوار نبضك اسكنيني

سألتك بالله في نهر حبك اغرقيني

كوني لي السلوي

كوني النجاة كوني الحياة

كوني التوبة كوني طريقي الرشيد

كوني انتِ دليلي

ف بغيرك غارق انا لا محال

وفي بعدك كيف تكون النجاة

سألتك بحق حبي ان تعنيني

قربك رحمه قربك سكن قربك آمان

فكيف الحياة دون سرها

وانت سري وسروري

سألتك بالله لا ترحلي

لا تنزعي روحي برحليك

لا ترحلي

بجوار نبضك اسكنيني

وبداخل قلبك اخفيني

من سواد عالمي اتنشليني

من هلاك نفسي نجيني

دونك خاسر دونك ضائع

فكيف اكون ان لم تكوني أنتِ يا عيوني

وبلسم جروحي

حروف سلوان عامر

***

الفصل العشرين والأخير

***

كتوم هو صوت الألم، يصر على الاستكانة ممزقا خلجاتي بصمته، يصرخ بهمس ويمسي وينخر ويحرق روحا .. أشبه بالرماد.

***

يستلقي على ظهره، يفرد يديه جواره، يغمض عينيه ويتنفس،

شهيق

"واحد، إثنان....خمسة"

يزفر الهواء، يكرر العد حتى خمسة، يركز على تنفسه، يستمع

الى نبضات قلبه التي يعمل على تهدئتها منذ إختطاف روحه

منه..

تلقى خبر إختطافها بهياج..كاد أن يهشم كل شيء كعادته،

الخبر أطاح بعقله وهو في عمله، وجن جنونه..

إنه اليوم الوحيد الذي وافق على خروج عاليا بعد محاولات

مضنيه ونعوت تتهمه بالسجن، بل وأعطاها خلود التي

حدثته بالحكمة- إن أراد الله لهم سوء سيحدث حتى لو أغلق

عليهم بمتاريس-ليسهل المهمة على كمال، والذي كان

ينتظر خروجهم بفارغ الصبر على ما يبدو..

نبضة، عدة، خمسة...

يحاول التركيز، السيطرة، هو الآن في أحلك ظروفه، لابد أن يثبت لنفسه قبل خلود تماسكه.

عاليا صغيرته المحطمة في قبضة كمال الآن، فما عساه يفعل بها، خلود التي تمناها وهدده بها مرارا معه الآن... عقله يعاقبه بصداع يتباهى بمداهمته، ليقضي على ما تبقى من تركيزه..

مرت خمسة أيام على فراقها، لم يرها، أو يستمع لتذمرها الدائم من طعامه، لم ينم جوارها يتلقف انفاسها بأذنه، خلود هذه المرة فارقته رغما عنه وعنها...

لم تعد وعودها سارية..

وقد سرقتها يدٍ ظالمة لا تعرف معنى الوفاء..ولا الوعود.

نبضة أخرى بعنقه يستشعرها مع كتم أنفاسة للحظات..

اطلقها ليعود تنفسه لإنتظامه...يفكك ويركب أنفاسه، يحاول

الولوجِ لذكرى تهدأ ثورته.. فذهب لذكرى قريبة جمعتم بعد

عودتهم الى الفيلا، تضع أمامه البازلاء المطبوخة والأرز،

تطعمه اللحم بفمه..يلوي شفتيه، يكاد يبصق الطعام في

وجهها

"أنا لا أحب الخضروات بهذا الشكل"

رزعت شوكتها وملعقتها بقوة

"عدنا للكلام الذي لا يبل ولا يحل"

"ما الذي يحدث معكِ يا خلود، أصبحتِ تقلدين أم محمود

في حديثكِ..."

ثم بدا وكأنه يتحدث الى نفسه

"أنا السبب .انا من وافقتكِ على المكوث هناك"

تضعَ البازلاء على الارز، تلوكها بحب

"ملعقة واحدة وبعدها تذمر، تذوقها اولا"

"أنا لا أفهم العلاقة بين الخضروات والطماطم..لماذا تضعين

كل شيء بها..وكأنها قاعدة لا يمكن تبديلها..أنا لا أفهم

الباميا..الفاصوليا..حتى البطاطس لم تتركيها لحالها ووضعتها

بهذه الصلصة"

قالت ساخرة

"رحم الله امرء لم يشتري لنا من قبل سوى الطماطم، سأتركك

أنت مع الإستيك..والهوت دوج..وشرائح اللانشون المدخن

والباستا الإيطالي..هذه الاشياء المائعة.."

"أرجوكِ يا خلود أتركِ صنع الطعام للخادمة، أنتِ سيدة هذا البيت..أرجوكِ"

"لن تخيل علي حججك الفارغة لتبعدني عن المطبخ..أنا لك بالمرصاد"

ولم تتركه الا وهي تطعمه قسرا..وبدا مستمتعا في نهاية المطاف..يطالبها بكوب من الشاي في عادة أصلتها به...

يتفرسها وهي تحمل الاطباق تنظف الطاولة.. تضع كوب الشاي أمامه...

خلود..هي مدرسة قائمة بذاتها..لا تتأثر بأحد بل هي المؤثرة..

تأخذ منها ولا تأخذ هي من أحد...

مبتكرة ومبدعة، ترتب غرفتهم بيديها، لا تسمح للخدم

بالدخول إليها.. متعللة"بأنه لا يجب لأحد الإطلاع على

حرمتها"

"كيف حال علاجك"

يعشق إهتمامها

"ألا تلاحظين التحسن؟"

ترتشف شايها، تدفع صورته داخل جفونها، وقد أغرقها

طغيان عشقه، تنهد..

"أنا أسعى للشفاء يا خلود..لأجلكِ"

تربت على كفه..

"هل توقفت كوابيسك.."

ينظر لعينيها مباشرة

"أنتِ كوابيسي"

عقدت حاجبيها تسحب كفها التي تحاوطه

"أنا .."

بدا مهموما

"كابوس يطاردني بفقدكِ، بخروجكِ من حياتي، وكيف افعل،

كيف بعد هذا الحب تفارقيني"

خرجت من المطبخ لتحتضنه

"إنه شيطان، استعذ بالله منه، انا ابدا لن اتركك، وكيف لي

أنا أن أفعل، أنت الراحة بعد عناء سنوات، ذروة الخدر بعد

تنبه الحواس في قتال ضاري انهكني مع الحياة..مرسى روحي

وجسدي بين يديك، أنا كشعيرات رأسك متمسكة بجلدك

ولن أسقط حتى لو أصبحت كهلا .. "

ضحك مستمتعا

"عديني..فأنتِ دوما ما توفين بوعودك"

تقبل وجنته، تتعلق برقبته..يضمها بقوة..يعتصرها بقلبه..

يتردد صدى خافقه بصدرها..

تشعر بعظام ظهره تتحرك بعنف يسحقها...

" هل أنتِ سعيدة معي يا خلود"

"سعيدة كمن تعافى بعد مرض..ومن اغتنى بعد فقر

وضيق..سعيدة بك..معك..سعادتي ليست بالمال..ابدا

وربي..بل هي في رجل يحميني وأكن أغلى ما يملك..لقد

تحديت الجميع لأجلي"

"ألستِ غاضبة مني!"

"انا سعيدة بك يا حبيبي"

غشيت عينيها الدموع تنثر قبلاتها فوق وجهه

" لقد جمعتني وكمال بعملة واحدة"

"أنت لم تؤذِ الا من آذاك..بينما هو مطلق الاذى..أنت لم تتعتدَ على عرض أحد.. ذنبك الوحيد أنا..وقد أسقطتني في حبك فسقط وزرك"

يتلمس موضع سلسلته الفارغ، يهذي وقد عاد الى واقعه

"لقد وعدتني بألا تفارقيني، أنتِ وهي"

دموع متعلقة بعينه، ثابته، جامدة ضائعة بدونها، يبحث هنا وهناك، قلب الأرض، باطنها وظاهرها، بعلاقاته الكثيرة ولم يصل الى شيء.

كمال يجيد الإختفاء..

ما يخيفه حقا، ساديته التي مارسها على عمته بدون رحمة، ماذا لو نفذ تهديده ذات مرة على خلود...

هنا تشتت تركيزه..وتسارعت أنفاسه..يفتح عينيه بغضب

وثورة متوعدا..

طرقات متوالية على باب غرفته، تبعها دخول الجد متلهفا..

"لقد وجدت هذه"

إعتدل طارق يلتقط مفكرة صغيرة من بين يديه الضعيفة التي

لازالت تعاني أثر الحادث..

"أين وجدتها!"

"غرفة عاليا"

تجري عينيه فوق السطور مسرعة، عله يرى دليل او علامة

على مكانهم.

يشفق على طارق، ينظر الى تأهبه ولهفته، عروقا بجانب عينيه

بدت بارزة، ظاهرة..فقد إختطف كمال ثمرتا قلبه، بتحد

قاسٍ مرير.

لقد انتعش الأمل بداخله برؤية هذه المذكرات بعد الشحوب

الذي أصابه مع الغدر الغاشم الذي تعرضت له السيارة

وهو بصحبتهم، كان يدافع ويشيح بيده.. يقاوم فكان

نصيبه خلع أصاب كتفه..وجرح أعلى حاجبه إثر إرتطامه

بالأرض.

يتخيل لو أنه بعمر طارق وشبابه لفعل مثلما يفعل، الا أن

طارق يفوقه قوة..يتذكر صوت تمتماته من صالة الجيم

الملحقة بالفيلا، وقوة صوته وأهاته..يعلم بأن تلك الأوزان

التي يحملها ليست سببا في تألمه، وإنما ما يعانيه من نيران

بداخله..زوجته واخته مع مختل..لا تنبؤ بأفعاله

يكمل الكلمات التي خطتها يد عاليا في مفكرتها..ويديه

تتشنج عبثا، غير قادر على السيطرة..الحقير كان يؤذي

أخته، تفاصيل عذابها وقوته عليها..وما زاده حنقا..كلماتها

المستمتعة المعذبة..

"في هذا الطقس الحارق..بغرفة لا منفذ فيها للهواء سوى

نافذة صغيرة تطل على الصحراء..بمنزل متهالك..قاتم..

مقبض للنفس..على إرتفاع...."

إنتبه لوصف المكان، أوصاف عائمة..لا يمكن السير على

هداها...يكملها بصبر عله يصل الى الهدى..

"تمثال ضخم أراه من نافذتي.. رغم بعده إلا أني أشعر

بالضآلة أمامه، كما اشعر مع كمال.. أنا ضئيلة..متصدعة،

شاحبة كهذا التمثال الرمادي تماما"

يرفع رأسه عن الكلمات، يفكر..

"مهلا..إنه..احد مخازن شركاتي.."

يتابع الجد إنفعالاته، ترقب..يأس..حيرة..إنفراجة...لا ينكر

ضيقه منه فزواج خلود منه ما جعلها تتعرض للمخاطر.

"هيا بنا.."

"الى أين يا طارق.."

وكانت هذه آخر كلمات إستمع إليها، وبعدها بدأ سلسلة

من الأوامر لرجاله.

***

"أقسم بالله لقد حاولنا، توقفي يا خلود لقد إلتهب معصمي

من تلك الاسلاك الحديدية التي تقيده"

تحاول مجددا بنفس الثبات كأول مرة

"أنا أكره الأستسلام، ولدت مقاتلة، لا أعرف لليأس طريقا"

تحرك معصميها تحاول وتحاول.. لحظات...وإستسلمت..

بعد كلماتها الحماسية المتقدة..خبى وهجها...تستند برأسها

الى رأس عاليا بيأس

"كيف توهمتِ بأن هذا الحقير أحبكِ"

"بل الأصوب..كيف تخيلت بأني أحبه"

صمت مؤنب تلى كلماتها..

دنس يطالها بمرور الوقت، وهذا الثقب داخلها يتسع..

تسأل خلود

"هل تحبينه؟ "

انساقت لحوارها وهي ترى شظايا القنوت متناثرة حولها

"أجل، أحبه..ولو عاد بي الزمن لأخترته ثانيةً، طارق بداخله

طفل يحبو يحتاج لمن يسنده ليقف ويمشي"

تحرك فخذها ببنطالها الضيق بلا مبالاة

"هل هو قاسي معكِ"

إنغلقت ملامح خلود لتردف عاليا

"أقصد في العلاقة الخاصة"

تتحدث إليها بخبرة إمرأة تكبرها..

"لا يجدر بكِ الحديث معي في هذه الأمور يا عاليا "

فردت ساقيها المقيدتين بذات السلاسل

" لقد رأيت كدمة تعلو صدركِ"

ارتبكت تردف

"هل يؤذيكِ؟"

تعي خلفية علاقتها بكمال، الذي شوه افكارها بأفعاله

الكريهه

"لا، طارق ليس قاسي..وامسحي تجربة كمال من عقلكِ..

الزواج ليس بهذا السوء، الزواج مودة ورحمة واحتواء، كيف

يهتم بكِ، يدللكِ، يحمل عنكِ، لا يكون سببا في ألمكِ

وجلدكِ، كمال هذا مريض لا يمت للرجال بصلة، الرجل

من يحمي أنثاه لا من يجور وينصب نفسه سيدا عليها"

وعلى ذكره إنفرج الباب..ودخل..وحده..

يلف حولهما وهو يعرج..كانت المرة الأولى التي ترياه فيها

منذ قدومهم الى هنا.

ومنذ لمحته استعر الغضب في قلبها لاستغلاله لها، وقتل ما هو

برئ داخلها لأجل حقده الأعمى.. تنفث الإحتقار في

كلماتها.. تشير لعرجه

"يبدو أن طارق خلف أثره عليك"

ضغط على أسنانه، هو يشعر بالمهانة من تفوقه عليه،

لكن هذه المرة لن يفلت...

"هل كنت مختبئا للعلاج..أم خوفا منه"

تلعب عاليا على وترا حساسا باتت على يقين بأنه يوجعه،

وهو المقارنة بينه وبين أخيها...

"هل آلمتك قبضته كما كنت تؤلمني..أم ألهبت رصاصاته

فخذك القوية...يبدو أنه تسبب لك في عاهة...أو..ربما أنت

تتماثل للشفاء"

يظهر عدم إكتراثه بينما بداخله يغلي..فالصغيرة وللأسف

..تنبش منابت المه...

"ألم تضع نهاية في مخيلتك لفعلتك الشنعاء تلك..ألم تخشَ

سلطانه وقوته..أنت لاتزن جناح بعوضة فيما يملك..عد

لرشدك وأعلم من أنت..وموضعك"

صفعة..نزل على وجهها بصفعة قوية إعتادتها من يده، لطالما

أشعرتها بالحِطة والذل..واستلذتها يوما..والآن باتت تكرهها

كما تكرهه.

"أنسيتِ ما بيننا بتلك السهولة يا عاليا..نسيتِ تأوهاتك

وطلبكِ المزيد من المهانة..."

قالت من بين أنفاسها

"فك قيدي"

"كنتِ تطالبيني بتقييدكِ..وإلهاب ظهركِ بالسوط..تراكِ بدلتِ

عاداتكِ!.."

تنتفض خلود من تلك المواجهة، لا تستطيع السيطرة على

جسدها..ترتعش خوفا من هؤلاء المجانين الذين سقطت

وسطهم..

تصل كلمات عاليا اليها..بينما هي ترتعد رعبا...

"حررني..لربما إشتقت لألمك"

وفي لحظة عابثة..يقارن ضعفها وقوته، وحدتها مسكثرا

برجاله..شوقه لتعذيبها..فك..قيدها..

***

يطوي الأرض طيا تحت سيارته..تلاحقه سيارة رجاله..بداخله

الأمل لكنه يحجمه ولا يطمح الى الكثير...

يجلس جواره يرى عبوسه..وصدرة الذي لا يتوقف عن

ملاحقة الانفاس..ينقر بأصابعه على المقود بتوتر..يضحك

العجوز..

فيعبس طارق بشدة

"تضحك ونحن في هذه الظروف...ما السبب..أضحكني

معك"

"لو كنت بحثت في العالم أجمع عن زوج يليق بخلود..لم أكن

لأجد مثلك لها.."

لا يعلم هل يضحك على ذلك الاطراء..أم يحزن على

تضييعه للأمانة..

"إختطاف خلود وما حدث لعاليا لم يكن خطأك بني"

هناك احد لا يلقي بالمسؤلية على عاتقه ...لا يلومه على ما

يحدث..وهل لامه احد..فيكفيه جلد نفسه هو وتأنيبها على

كل الأشياء...

"عاليا تجني ما كسبت يداها، أنت لم تقصر معها في شيء،

لقد منحتها قدر إستطاعتك..هي من إختارت طريقها"

يستمع لكلماته، وهو على ذات السرعة

"وأيضا خلود..لقد بالغت في حماية الجميع..ويوم وافقت

على خروجنا أمنت الجميع، أنت لم تقصر مع أحد..توقف

عن لوم ذاتك..وإهدأ..ألقي بتلك الهموم والأحمال على الله

فهو حسبك"

ليست كلمات طبيبته ليتبعها..وإنما كلمات تركت أثر في

نفسه..صلواته والحفاظ عليها..هذبت كثيرا من غضبه..

وأخيرا الدعاء..

لهذا العجوز دور هام في تغيره..دور يوازي وجود خلود المحبة

بلا شروط..ودور طبيبته العلمي التوجيهي...

هو لم يحظ طوال سنوات عمره بهذا المثلث المهتم..المتوغل

بين ثنايا قلبه..الذي يخاطب عقله..ويمتزج مع روحه...

إطمئنان توحد مع خلاياه..

دعاء يتردد بين صدي أنفاسه..

ويقين بالله..بأنه لن يخزله...

وصل الى وجهته..ينتظر الفرج..والغيث

***

تقف أمامه تخفي إنفعالاتها بحرص الذئب..يحكم الفخ..وينتظر

على مهل ليحتفل بالنصر...

يعرج وتلاحقه..يدور وتدور..يقترب وتفعل مثله..

يقفا متقاتلين بالنظرات وخلود تتفرج..وكأنه فيلم سينمائي

تعيشه ثانية بثانية..تتوقف أنفاسها مع كل حركة.

يهمس بأذنيها

"لقد إشتقتكِ"

بذات الهمس

"وأنا ايضا"

وكعادة المحبين أمثالهم..دفعها بقوة لترتطم بالحائط خلفها..

وفي عادة جديدة لكرهها له..ضربته بقوة على قدمه التي

يعرج بها فصرخ متألما..

وفي عادة المذعورين أغلقت خلود عينيها..تأبى مشاهدة هذا

العنف..ودت لو أنه فيلم حقيقي وبيدها محول القنوات

لأستبدلته بآخر رومانسي.

سن أسنانه..يكتم وجعه من جرحه الذي لم يشفى كليا

"يبدو أنكِ إشتقتِ العذاب..يا صغيرة"

وهل لا زالت صغيرة...

تجنح الى الباب..تلمس شيء إسطواني الشكل طويل..عندما

لمسته شعرت بالإحباط فهو كارتوني وليس معدن...

أمسكته بصلابة..مستشعرة عكس ملمسه..تقترب

منه...تصرخ به

"أنا لست صغيرة..أنا أم ..فقدت جنينها..إمرأة كبيرة تحمل

هم مستقبلها..أنا أخت جلبت العار لمن حولها"

تضربه بقوة..وقد صمدت تلك الاعصا بيدها حتى الآن

ولم تنثنِ

أمسك معصمها في آخر ضربة وصيحة...

"أنتِ عبدتي..وأنا سيدكِ..أم نسيتِ"

يلوي معصمها خلفها..يتعمد إهانتها..لفت معصمها

وإنفكت من قبضته..تعيد ضربه صارخة حتى باتت لا تسمع

نفسها

"أنت وحش.. وأنا حرة.. حرة..حرة"

تهدلت العصا بيدها..سقطت أرضا..تبكي بتعب وقد أنهكتها

مواجهته ..

"أنتِ قاتلة يا عاليا، أنتِ تسببتِ في موت أبيكِ، من اشتقتِ

عناقه واهتمامه، فمن منا يعد أكثر وحشية الضحية أم

الجلاد"

يقف ضاحكا، يسخر منها..وهي في عالم آخر جاثية على

ركبتيها...بعد أن سدد طعنته الأخيرة بنعتها قاتلة

وخلود مغمضة العينين تقبض وجهها، تجز على اسنانها،

تضغط على عينيها المغلقة بقوة بجفونها..دموع تتساقط

بجانب عينيها..لكنها لم تستطع إغلاق أذنيها..إستمعت الى

كلمات وصرخات عاليا...

أكانت تحمل كل هذا بداخلها وحدها...وحدها...

تشهق ولا زالت لا ترى شيئا...إستمعت الى كلماته القريبة

"وأنتِ يا خلود...كيف ترغبين قربي..بعنف..أم بنعومة

وحنان مثلما يفعل طارق"

يلمس حجابها..كتفها فتتجمد..

وجنتيها فتنتفض....

"ألم يخبركِ بأني من دفعته للزواج منكِ حتى لا يفتضح أمره،

أنا من أخبرته بحميتكِ وصلابتكِ، بأنكِ لن تتواني عن

التصدي له حالما تعرفين بجلده لأبيه، أخبركِ سرا..أنا من

ابتعت له السوط"

تشيح بوجهها عنه، تبتعد عن حقد أنفاسه، ليردف بأذنها

وكأنه شيطان رجيم

"هل حكى لكِ عن شوقي للفستان الناري"

تسللت يديه يمررها فوق ساقيها فتدفعه بحده

"الصندل الذهبي، خيوطه الملتفة حول ساقيكِ، تقسو عليها، تحددها بتموجٍ قاتل لقلبي يا خلود"

صرخت به...

"إبتعد عني، وإلا أقسم بربي أقتلك..لن أتوانى عن تمزيقك يا هذا..لقد عكرت العالم بخبثك ومرضك.."

يكمل وكأنها لم تقل شيئا

"لماذا أغلقتِ الكاميرا، لماذا يستهويكي دائما غلق الأبواب بوجهي"

ضربته برأسها على أنفه..في ضربة أودعتها قوتها..فأفقدتها الوعي على الفور...

بينما هو أصيب بالدوار وفقد توازنه...أصوات تأتي من الخارج...

صخب وخبطات...الى أن فتح الباب..وكان آخر شيء رآه هو دخول طارق...

***

ينحني اليها يضمها الى صدره..يهدهدها

"إهدأي يا عاليا..لقد إنتهى كل شيء.."

يربت على شعرها...يدلك ذراعها..يكرر كلمة الهدوء على مسامعها..الى أن سكنت..

يستمع إلى كلمات اخترقته

"هذه الإمبراطورية يجب أن تنتهي"

ليقترب منه عبد الرحمن يلكمه بغضب

"وهل أنت من توزع الارزاق، من يعطي ومن يمنع، لعنة الله

عليك"

بعين نصف مفتوحة يراهم كمال، ولا زال يثرثر ويعوي كما

الكلاب

"عبد الرحمن لا وقت لدينا"

ترتعد عاليا مذعورة، قدميها كالهلام، يحملها عبد الرحمن

سريعا وكلمات طارق تلاحقه

"اتصل بالشرطة"

وتوجه نحو خلود..يمسح عن وجهها الدماء..يخبط وجنتها

برفق...تحرك رأسها..

يسحبه بعيدا عنها، يمسك بشعره يحثه على البقاء معه

"لقد وجدنا ابنتك..ألا تريد الإطمئنان عليها"

لينهي كمال صراعه مع الدوار بإغماءة تمنى طارق لو تكون

الأخيرة

فك قيدها وحملها الى سيارته..

يقف جدها أمام السيارة يسجد شاكرا لله..

يتمتم بالحمد..يبكي بسعادة وهو يرى طارق يحمل زوجته

اليه..بينما عاليا بالداخل..وضعها بجوارها..

"إجعليها تستفيق"

في محاولة لشغل تفكير أخته التي أوشكت على الجنون

فصرخاتها بكلمة أنا حرة..كانت دليل وصوله الى الغرفة التي

بداخلها...

يجهل الكثير مما حدث بينهم..لكنه يعلم بأنه ليس بالشيء

الجيد...

في مكالمة سريعة..وطلب سريع..وقبل القبض على كمال

و زجه بالسجن لاختطاف أخته وزوجته..وقضية التعذيب

العالقة التي خرج منها بكفالة قيد التحقيق..

رغب في مشوار أخير قد يجمعه به...

***

يخرج الرجال جسدها من القمامة...

جسدها الهش.. لا يسترها شيء..عارية إلا من ذنوب

لطختها بحمرة الانتهاك، صدمة نهشت وجهه، يجري اليها

وهو مقيد..يحاول نزع سترته ليغطيها بدون فائدة..

القيود تعوقها.. لا يشعر بألم ساقه..ولا يشعر بالدماء

المتجمدة على أنفه فتعيق تنفسه...

ولا تلك الدموع التي غشيت عينيه فلا يرى سوى فمها

المفتوح..وكدمات وجهها وجسدها...

خربشات عميقة فوقه..

علامات اصابع حمراء على سوأتها وبطنها وساقها...كمن

تعرضت للتعذيب، الآن يحنق على من عنَّف ابنته بعد أن

أدمى جسد عاليا بحقده

جسد متقطع مهترىء لا يستره شيء عن الاعين...

اليوم يرى سوءته...بل الجميع يراها..لم يكن بحاجة للإلتفات

ليرى شماته طارق..وحضوره في هذة اللحظة تحديدا ليشهد

إنكساره...

لم يفكر كثيرا بطارق..بل غشيته مصيبته..يصرخ

"أرجوكم..سترتي...ملاءة..أستروا ابنتي ارجوكم"

يصرخ ويبكي كمدا...يتوسلهم الستر وهو من نزع الستر

عمن قابلهم، من انتهك اجساد مريضة واهنة بالضرب..

ها هو الدهر يدور لينال قسطا مما فعل.. والديان لا يموت.

***

تفوح السماء برذاذ المطر، تسقطه لتوازن الأرض وتسقي

الزرع لينبُت شامخا عزيزا، وتنفرج السماء وتكشف السحب

فتعود لصفائها، تحمل نجوم ثقيلة تزينها تلمع بنجاتهم.

عادوا للتو من الخارج، بعد أن إنتهت التحقيقات..

خلود تجلس بوهن، تتنفس بانتظام وعيونها متعلقة بطارق

الذي بدوره شعر أخيرا بالإطمئنان، يرى عاليا باهتة..صامتة،

متجهمة الوجه والجسد، ساكنة لا تتحرك تنظر الى لا شيء.

يضم رأسها اليه..وهذا الوجه الغريب عنها يقتله

"عاليا..لقد إنتهى الأمر"

أجابه صقيع عينيها بأنه لم ينتهي فهو متمسك بجذورها

"لن تري كمال مرة أخرى، سينال جزاءه"

"وأنا"

كان هذا جد عاليا فأجابه طارق...

"أنت وعاليا كنتم أدوات يستعملها كمال لغرضه..ليس

عليكم إثم"

"هذا من الناحية القانونية أم الإنسانية بني"

إبتعدت عاليا عن عناق أخيها وقد إنتبهت لكلمات جدها..

ردت خلود وهي تقف تجاهه

"الأثنين يا جدي..قانونيا .. أنت لم تكن تعلم..وإنسانيا أنت

لست ملام "

ثم توجهت نحو عاليا تردف

"وليس معنى أنكِ أوصلتِ الدواء اليه بأنكِ قاتلة يا عاليا

..توقفوا عن رثاء أنفسكم..أنظروا الى الجانب الإيجابي وهو

إختفاء هذا الخبيث من حياتنا"

تحدثت عاليا لاول مرة منذ عودتهم..

"وسلمى أيضا..إندثرت عائلته جميعها، يالها من معجزة، أن

ينقطع هو ونسله عن العالم، هذا المسخ القبيح"

فهمت خلود ما تعنيه عاليا عن فقد جنينها ايضا..فقد إنقطع

كمال حقا عن الدنيا، لا يملك أحدا للدعاء له او ذكر

حسناته..وهل يملك!

أمسكت خلود بذراعِ جدها، تقترب من كفه لتقبلها

"أستحلفك بالله لا تلقي اللوم على عاتقك..أنت سندي لا

تنكسر أمامي أرجوك"

"كدت أن أنكسر حقا بغيابك، لو أملك أن أربطكِ بيدي

كي لا تغيبي عني لفعلت، إمتناني وحمدي لله بعودتكِ، أكبر

بكثير من لومي لنفسي على ذنب لم أقصده، لن أمل من

الإستغفار..والدعاء له بالرحمة..فلا يجوز عليه سواها"

ربت على ظهرها.. يقبل رأسها مغادرا

"أستأذنكم..انا بحاجة للراحة، تصبحون على خير"

تسللت عاليا خفية الى غرفتها..بينما بقيا بمفردهما لوهلة...

يعانق عينيها بفضتيه، تسأله باهتمام

" ماذا عن أيمن؟ "

" بلاغ صغير قضى على مقر أبحاثه وسمعته الطبية التي يتفاخر

بها"

تبتسم، وهي تراه كالليث يزود عن حقه، ربما ليس بالطريق

المباشر لكنه لا يسهو عنه..

" هل لك يد في ما حدث لسلمى"

"علمت بشذوذها من فيديوهات على مواقع التواصل

الاجتماعي لقد حققت أعلى نسب مشاهدة"

شهقت

"وهل يقوموا بتصوير هذه القذارة"

يوميء برأسه

"تلك المقاطع سهلت طريق البحث، فحددنا الأماكن الخبيثة

لكننا وصلنا في وقت كان العرض انتهى"

يسكتها... يسألها

"هل لمسكِ"

"لقد قاتلته"

"عندما جئت كنتِ فاقدة للوعي"

"لقد حاربته قبلها"

"حجابكِ كان مفكوك"

"لقد حاول إخافتي، لكني لم أخافه"

"ماذا فعلتِ"

"دعوت عليه"

"و"

"وإستجاب الله دعوة المظلوم، صدقا لم أفرح لما حدث

لابنته، لكن هو يستحق الحرق على كل حال.."

يجذبها اليه، يفركها بين يديه...

"كانت أصعب أيام مرت علي يا خلود، أنتِ لا تعلمي مدى

خوفي وإنخلاع قلبي عليكِ أنتِ وعاليا، مع تصوري أنكم

بمفردكم تواجهونه.."

كان وقت عصيب وهي ترى كمال عاريا من آدميته أمامها،

تفزع من رؤية أولئك الأشخاص، تتمنى لو أن الوجود يخلو

من شرورهم.

"قال لي بأنه السبب في زواجنا، حتى أتكتم على سقطاتك"

"وهل صدقته؟"

تشبع من فوضى عينيه، تتسلى على حسابه.. تطيل من

صمتها لتؤجج أوهامه

"لا، لم أصدقه.. لقد وهبتني أكثر مما أخذت مني، دللتني

بجنون وكنت أنت في أمس الحاجة لجنوني، قد أشك بأن عدد

أصابعي أربع، ولا أشك في حبك وزواجك مني لاحتياجك

لي"

"بل حبي لكِ يا خلود... حبي"

تعود بسؤالها للاطمئنان عليه

"هل آذيت نفسك؟"

"إلتزمت بالعلاج لأجلكِ"

لفت يديها حول عنقه، وكلماتها تصل اليه بقربها

"أنا فخورة بك"

"لقد كسرت مزهريتين"

"لا يهم، المهم أنك لم تجرح ذاتك"

"وثلاث زجاجات عطر"

"هل شربت الخمر"

"لا"

"حسنا، لازلت فخورة بك"

"وحطمت زجاج نافذتي، ومرآة غرفة النوم"

"هل إقتربت من عطوري"

يشدد من عناقها

"لا، كانت بقربي طوال الوقت..."

أبعدها عنه، لا يفلت إنشا من وجهها، يلمس شعرها بجنون..

"خلود، هيا الى غرفتنا"

تلملم أشيائها، يجذبها بسرعة

"الآن"

"إتركني استحم اولا..او ..أطعمني، لقد كنت آكل خبز

مبلل كالدجاج..طارق..انتظر"

يحملها لأنها تبطئه، يعدها بالطعام والاستحمام..يعدها بالهناء

مكتملا

***

شاردة..

"كيف ماتت سلمى؟"

تجيبها خلود

"يقول طارق بأنها كانت ضمن مجموعة من الشواذ، فقد كشفت التحقيقات بأنها مغتصبة بوحشية..لكن على ما يبدو هي لم تقاوم"

تحاوطها بذراعيها وتكمل

"لقد وجدو علامة على كفها لمثلث وردي مقلوب، وكأنها من قامت برسمه، منتمية لتلك الجماعات، لا تشغلي بالكِ بالماضي يا عاليا"

"لم يصبح ماض بعد يا خلود، سيكون مستقبلي أيضا"

تنحنحت خلود متمسكة بالمنطق

"عاليا، انا لن أكذب عليكِ وأقول لكِ الخطأ كله على هذا المختل، بل منكِ أيضا..أنتِ من فتحتِ له الباب ليدخل اليكِ ويستبيحكِ، أنت من إستمتعتِ بعذابه..هكذا كتبتِ في مذكراتكِ"

نظرت اليها بغضب..وخلود تخرج مذكراتها الوردية من جيبها

"كيف تتعدي على خصوصيتي هكذا؟"

"لست أنا من فعل..إنه طارق"

جلست على سريرها تنتحب..

"أنتم لم تتركوا لي شيء"

"هذه المفكرة سبب في معرفة طارق مكاننا، ثم إننا أهل، هو أخيكِ وانا زوجته، لم يعد هناك أسرار بيننا، لا عيب في طلب

النصيحة والمشورة، لا عيب في إعترافنا بأننا مرضى ونحتاج

للعلاج"

قالت بإنكار

"لا..أنا لست بحاجة لعلاج يا خلود إهتمي بزوجكِ"

رققت صوتها، تحاول ضم عاليا اليها

"حبيبتي، كلنا نخطيء، ليس عيبا بأن نعود عن خطأنا"

"أنا لست طفلة لتتحدثي معي هكذا"

"بل أنتِ طفلها أفسدها ذنبها، ماذا لو وعدتكِ بالخروج الى

الملاهي واقتناء الحلوى، ماذا لو شاهدتي فيلم كارتوني الآن،

ماذا لو رأيتِ شيئا رغبتِ في شراءه..ألن تقفزي كي نبتاعه

لكِ..لقد مر الوقت العصيب دعينا نتماثل الى الشفاء"

تبكي متألمة، تنعي مستقبلها

"أي شفاء يا خلود..عن أي جرح تحديدا تتحدثين..من

البداية أم الآن، أم جرح الغد..لقد ظلمت نفسي قبل أن

يظلمني أحد، لم أتمسك بمبادىء أمي التي زرعتها بي، بل

بحثت عن نبت آخر من نسج الشيطان...لكم حذرني جدكِ،

لكم وجهتني أنتِ، وطارق المسكين الذي لا أعلم كيف

سيواجه خاطبا يخبره بعيبي...أنا أستحق الموت كسلمى.."

تمنحها سنابل الأمل

"لا..لا..لا تتحدثي هكذا، كل الذنوب لها توبة، لا يا عاليا،

لا تكوني بهذا البؤس..أنظري للغد بأمل، يكفي شعوركِ

بالندم هذا، إستشعري بأن حياتكِ نعمة، لا تتمني الموت

كسلمى ابدا، تلك سوء خاتمة..احمدي الله أن مد في عمرك

لتستغفري.."

تبكي بحرقة وكلمات خلود تمنحها الأمل البائس، الأمل

القاتم..الذي لا لون له ولا كيفية..

"أستغفر الله وأتوب إليه"

ولا زالت على حالها، تبكي عشرات المرات، على ذنوب

أضاعت بها ما كان وما سيكون..

تشهق حتى تورمت عينيها على ذنوب عتيدة عميقة متمسكة

بجذورها في الأرض ووجب إقتلاعها..

تندم..وتستغفر..عل الله يغفر.

***

إرتدت الخلخال..أحكمته حول ساقها..يتدلى فوق كف

قدميها، تحركه يمينا ويسارا فيصدر صوتا رنانا...

سمعت دخوله الى غرفتها ...

نزلت بقدميها عن السرير...تخطو اليه بدلال، قميصها

القصير الذي أنهكه النظر اليه...والهبه جسدها الملفوف

به...

وقفت امامه...

استكان صوت خلخالها..

"أعيدي هذا المشهد"

ضحكت تركن الى صدره...

ثم تستدير في عرض حارق متجدد...

مشت نصف طريقها وهو لا يترك إنش من جسدها لا يطاله

بنظره...

وقبل ان تكمل لفتها وصل اليها بحكم وثاق ذراعيه حولها

"أنتِ تضربين به على قلبي يا خلود، ليس على الأرض"

ترجع رأسها للخلف بغنج مفرط من لمساتة المجنونة...

تضحك برقة تقتله...

من يصدق بأنها أخفت عنه هذا النعيم الأبدي خلف رسميتها

وجديتها وخوفها...

اللعنة على سيدي التي نادته بها على الدوام...

اللعنة على كل شيء كان سيبعدها عنه...

على انتقامه وخوفه ومرضه...

يتشمم رقبتها

"من اين حصلتِ عليه"

"أم محمود"

يأسر عينيها، يسقط بنظره على شفتيها...

"ذكريني بأن أشكرها"

تغضنت ملامحها

"تشكرها على ماذا...لقد اهدتني اياه...هل ستذهب وتخبرها

بأنه اسعدك...أخبرني انا"

لا يجاريها بغيرتها...تمتعه حتى وهي غاضبة...غيور...

"سأخبركِ كيف أسعدني، ولأي مدى أشعلني"

"اذا هو من أشعلك وليس أنا...طارق...افلتني"

يفعل العكس...يقيدها بجسده

"أنت تحتالين، انا لن ادعكِ"

ثم أشار بيديه نحو رأسها...

"احفظي ذلك جيدا"

توقفت عن التملص من بين يديه...

تنظر لوجهه الحديث الذي يناضل للفوز بها...وتطويع قلبها

له...

يتشرب سماحتها وهدوءها...يلين أمام المصاعب ويتحداها...

ماالذي غيرته فيه...

يهتز بؤبؤها تنظر الى ذقنه...عينيه الرمادية...واقصى امانيها

ان تنجب طفل يحمل لون عينيه...

إنها لمنقبة لها ولطفلها أمام أهل الحارة...

"خلود، أين شطحتي بأفكارك، لا أعتقد انها توافق افكاري

الآن"

"في طفل بعيون رمادية تشبه أبيه"

لا حظت تشتته

"ستنجب يا طارق، وستكون خير مثال للأبوه، لا تدع

الماضي يقيدك بعد الآن"

رائحك الهيل تفوح من فمه، تقتطع جزءا من علكته لتضعها

بفمها تلوكها..تتباهى بفعلتها ضاحكة.

"خلود، يكفيني ألاعيب "

***

"عمتي، هل أنتِ بخير، أنا طارق اعمل بدار العجائز..

انا بخدمتكِ"

تنظر الى هذا المجذوب الذي لا تعرفه...فيردف وهو يزيح

عنها الغطاء، يساعدها على القيام..

"هذا إجابة سؤال"من أنت""

يقبل رأسها لا يهتم لاستغرابها...

يختار ثوب أنيق.. يساعدها على إرتداءه..

"ما رأيكِ بالافطار معي وزوجتي خلود، هي تعمل معي في

نفس الدار"

يضحك وهو يضع وشاحا بلون القهوة على وجهها الأبيض...

يضع حذاء أنيق بقدمها...

"الآن، أنتِ جاهزة، هيا بنا"

بعد لحظات قليلة كانا في الحديقة، يشاهد خلود وهي تدفع جدها نحوهم..

هو لا يسمعها لكنه يعلم عما تتحدث...

"يا جدي هذا أفضل لكم ولنا، كي نجتمع في بيت واحد جميعنا، لن اتركك في المنزل القديم مع ام محمود انا لا آمنها عليك"

"كيف سأتزوج من السيدة منيرة ولا لا تعرف احد، لا تملك

القبول أو الرفض"

"سيزوجك طارق لها، هو وليها"

"أنا لا أعلم مدى مشروعية الزواج، هي في عتاد الموتى،

أقصد الذين يسقط عنهم التكليف..كيف ستتزوج..توقفي

عن دفعي يا خلود"

وصلا الى طارق بصحبة عمته أخيرا، حجابها وأناقتها هو من

فعل ذلك..طارق هو من دلل عمته هكذا..

تحاوطه بنظرات العشق الممزوج بالكمال..لا ليس وقته ذكر

اسمه البائس هنا...العشق الممزوج بال... ال... لا يهم..هو

إحساس بأن زوجها كائن منتج متعايش..يحب من حوله

ويتخطى أزماته...

تركت ذراع جدها مسحورة نحو طارق، تتلقف ذراعه وتبتعد

معه نحو حوض السباحة..لتترك جدها بصحبة منيرة..ولا تعلم

في أي حديث سيخوضا..ولا أية مواضيع سيفتحها

جدها..والسيدة منيرة ستساعده على غلقها قبل البدأ.

***

الخاتمة

***

تتنفس خواطره..تنصهر لمشاعره، تتشرب كل الحب الذي

يمنحه، والذي تجتهد لإمتصاصه..

بعد مرور عام ونصف على زواجهم..أنجبت

الصغير.."يوسف"..رضيعها الذي يتوسد ذراعها..

يترقرق ظل الماء على وجهه، ليس هناك شمس، بعد أن قام

بتغطية حمام السباحة حتى لا يكشفها أحد، وايضا عاليا، بعد

أن فهم باقسى الطرق أنها لم تعد طفلة..

تختلي بنفسها كثيرا رغم إلتزامها بدراستها واتساع دائرة

اصدقائها قليلا الا أنها لم تعد تثق بأحد..

"اتركيه، سيتعلم وحده.."

يتناول صغيره منها يدربه على السباحة، يشهق بين يديه يردد

"بابا"

فيقلبه طارق على ظهره ليطفو.. ويضحك الصغير وكأنه

يطفو فوق الغيوم..

يراقبه بحب..فتضع يديها على كتفه مؤازرة

"ستمنحه ما عجز أبيك عن منحك إياه.. أثق بذلك"

يصوب نحو قلبها إبتسامته يموّج المياه بيده والصغير كما

هو.. حتى التقطته بيديها

"ما مشكلتكِ.. اتركيه"

تحجبه عنه بكتفها، فيردف

"سأعلمه كما علمت امه"

تشتد بوطأة دلالها، تسبل جفنيها تستدر غزله، يمسك رأسها

يدفعها في الماء فتصرخ تناشده المساعدة بعد أن سحب

يوسف منها

"وليتكِ تعلمتِ.. جف حلقي من التعليمات ولا فائدة.."

يضع صغيره في عربته، ويعود الي الصارخة بالأسفل

"طارق.. أنا أغرق"

يرفعها عن الماء وقد اتصلت خصلاتها القصيرة بجبينها

"ليس وأنا هنا"

يرفعها من أسفل ذراعيها لتجلس على حافة المسبح.. تقطر

الماء من أنفها وشفتيها... تضحك وهي تدفعه بقدميها

" أقسم بأني لن أسامحك"

" كل مرة تقسمين"

"حسنا، لن اسامحك حتى تمر ساعة"

يلامس قدميها التي لازالت في الماء.. فتقول

"نصف ساعة"

يجذبها من قدميها فتسقط أمامه في الماء

"يرفعها بالكاد تتنفس.. يتحدث أمام شفتيها

"لن تغضبي مني ولو للحظة واحدة.. اتفقنا"

يغمز بعينيه، تعلم بقدرته على افلاتها ليتركها تتعلم السباحة

وحدها كما الصغير فصاحت

"ولا لحظة واحدة"

إقترب هائما يحاول إقتناص قبلة.. فتحاول التمسك

بالحافة..جيدا..ثم شنت قوتها وعزمها لتدفس وجهه بالماء

لتفر هاربة، تلاحقها صيحاته

"اقسم بأنها لن تكون قبلة واحدة يا خلود..."

***

تقف أمام البحر..تأرجحها ضربات الهواء، يهتز تحت قدميها

الجسر الذي تقف عليه..

هواء تخدرها لمساته فتغمض عينيها..سماء تخطفها بطولها..بحر

يقذفها برذاذه..

تبتسم.. تفرد ذراعيها تحتضن الطبيعة بين ذراعيها..

تروض خوفها..

تحاول مد قنطرة لتعبرها بأحلامها وتنسى الماضي..

الذنوب السميكة تجتهد لإذابتها..

ما تتمناه يخالف امكانياتها المعتلة.. لكنها تحاول..

لأجل خلود المحبة، صديقتها وزوجة أخيها..

لأجل طارق الذي تحمل مرارة كل شيء لاستردادها..

ترفع قدما..تلحقها الأخرى..

ترغب لو تحطم هزيمتها المتكررة في الإفصاح عما بداخلها..

ترجم الصمت وتقف فوق رفاته.. تنصب وقفتها فوق

الجسر..

لا يفصلها عن احتضان هذا الفراغ سوى قفزة..

تحررها من التعصب.. الندم الذي يتآكلها..

يوسف الصغير..

وجهه الضاحك، وجنته اللينة..

القبلة منه تدمنها فتنهل قبلات..

كفه.. جلده المنثني بطبقات تدغدغ القلب..

تفرد ذراعيها..يطير شعرها الطويل خلفها.. الهواء بأذنيها

بوجهها يدفعها الى الخلف وتتجاسر هي للأمام...

تنظر للمياة أمامها ببريق خلفه القمر بعناقه...

تتقدم الى الأمام خطوة.. خطوة.. وهذا الصوت الأجش

يتسلل ليمزق شرشفها الوردي الذي تغطي أحلامها به

"ما الذي تفعلينه؟"

تشهق.. تلتفت بعصبيه..وبصوت سال منه فيض الهذيان

"عبد الرحمن!"

***

تمت بحمد الله